دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية

تاليف
دكتور
محمد محمد عبد القادر الخطيب
أستاذ التاريخ والحضارة الاسلامية المساعد
بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ — ١٩٩١ م

مطبعة الحسين الاسلامية
٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر



دراســـــات

في تاريخ الحضـــارة الاسـلامية

دراسات

في

تاريخ الحضارة الإسلامية

تاليف
دكتور
محمد محمد عبد القادر الخطيب
أستاذ التاريخ والحضارة الاسلامية المساعد
بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ — ١٩٩١ م

مطبعة الحسين الاسلامية
٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر



أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله حمدا يليق بجلال وجهه ، وعظيم سلطانه ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله ، وصفيه من خلقه وخليله ، أتم الله به النعمة ، وأكمل الدين ، وختم به الأنبياء والمرسلين ، وأعطاه ما لم يعط أحدا من العالمين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله ، وصحابته ، والتابعين ، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين ، وبعد :

فإننى أسجد لله شكرا على ما منح من عون ، وأفاء من فضل ، ويسر من توفيق ، لكتابة هذه الدراسات عن « حضارتنا الإسلامية العظيمة » .

وقد جاءت هذه الدراسات ـ تحقيقا لرغبة قديمة ، وأمنية غالية ، ظلت تجيش فى النفس سنوات طويلة ، لكى ألج هذا الميدان ، وألقى بدلوى فيه ، يدفعنى لذلك عوامل متعددة ، ودوافع مختلفة :

أولها : ما نراه الآن من « صحوة الأمة الإسلامية » ـ هذه الصحوة التى جاءت بعد سنوات طوال من القهر والتسلط الاستعمارى الأوربى على بلاد المسلمين ، وقد حاول المستعمرون طوال هذه السنوات بشتى السبل ، وكافة الوسائل ، أن يقضوا على حيوية هذه الأمة ، وأن يمسخوا شخصيتها ، ويفقدوها هويتها ،

لكن هذه الأمـة المسلمة ظلت تقـاوم محن الأيام ، وتواجه أحداث الدهـر ، فى صـلابة نادرة ، وصمود عجيب ، استمدتهما الأمة الصابرة من مقومات دينهـا ، وخصائص عقيدتها ، حتى حققت استقلالها السياسى ٠

وهى اليوم تحـاول أن تستدرك ما فات ، وتعـوض ما ضـاع ـ لكنهـا تواجـه غـزوا فكـريا متواصـلا ـ هو فى الحقيقـة أخطر من الغزو العسكرى السـابق ، لأنه هـذه المـرة يريد أن يدمـر قواها الداخليـة ، وعزائمها ، وشخصيتها ، ومقوماتها ، وانتهاب كل ما تملك ٠

ومن ثم فهـذه الامـة الاسـلامية فى أمس الحـاجة الى من يبصرها بأمـرها ، ويردها الى ذاتها ، ويعيد صلتها بماضيها المشرق ، وحضارتها الزاهـيـرة ٠

لأن نقطـة البداية لكل امة تريد أن تحقـق وجودها ـ هى معـرفة نفسها ، ومقومات شخصيتها ، وفهم رسالتها ، وتبصر تاريخها ، واستيعاب عبـره ودروسـه ٠

وعند ذلك تستطيـع أن تعـرف وجهتهـا ، وتهتـدى الى طـريق غاياتها ، وقد عمد الأعـداء دوما الى التشـكك فى تاريخنا وحضارتنا ، وتفسيرهما بما يـلائم أهـواءهم ، وما يسـاعدهم على بـلوغ ماربهـم وخططهم ٠

لانهم يعلمون أن هـذه الامـة المسـلمة قـوة ضخمة ، وأن ابنـاءها اذا عـرفوا حقيقة أنفسهم ، وحقيقـة تاريخهم وحضـارتهم يستطيعون أن يصنعوا العجـائب ، وأن يستعدوا ريادتهم وقيـادتهم فى هذه الحياة ٠

ولهـذا فنحـن فى حـاجة الى أن نعيـد ربـط امتنـا بحضـارتها

الاسلامية ، لتصل حاضرها الآمل ـ بماضيها الزاهر ـ لتحقيق الغد المأمول .

ثانى هذه الدوافع : ما نراه فى الساحة الاسلامية الآن من « اضطراب فى بعض المفاهيم » وخاصة بين الشباب .

فهناك حيرة فى الخيارات أحيانا ، وهناك اضطراب فى الفهم ، وخلل فى ترتيب الأولويات ، وهناك افتقار للنظرة الكلية للأشياء وجنوح الى التجزىء الذى يشتت الأمور ، ولا يحقق التوازن المطلوب ... أحيانا أخرى .

هناك صراع يبدو أحيانا بين القديم والحديث .. بين المادة والروح .. بين العلم والدين .. بين الجمود والتجديد ...

وهذا التشتت أو التارجح ـ أحيانا ـ دليل على أن البعض ما يزال فى مرحلة الحيرة أو عدم الاستقرار ، ونحن نود ونأمل أن ينتقل المسلم المعاصر الى مرحلة الرشد ، حيث تستقر أمامه الثوابت ، وتتدعم فى ذهنه الاختيارات ، وذلك بالتعرف على حضارته الاسلامية الفذة .

هذه الحضارة الاسلامية العظيمة التى قامت على أساس رسالة سماوية هى الاسلام والتى حقق المسلمون بها ـ أعظم حضارة ظهرت فى التاريخ ـ وما يزال الاسلام بحمد الله قادرا على بعث هذه الحضارة من جديد ، اذا استوعب المسلمون فقه هذا الدين ، وطبقوه واقعا ، وسلوكا ، وقيما ، وعلاقات ، وأحكاما ... فى دنياهم .

وثالث هذه الدوافع : انه تأكد لكل ذى بصر وبصيرة « فشل الحضارة الأوربية المعاصرة » .

هذه الحضارة التى تقدمت تقدما هائلا فى عالم المادة ، لكنها أفلست افلاسا شائنا فى عالم الروح والقيم ، بحيث أصبحت غاية الحياة فى هذه الحضارة ـ اللذة المادية ، والرفاهية ، واشباع الشهوات ... .

أما الجانب الانسانى والخلقى ، والروحى فليس له اعتبار فى هذه الحضارة المعاصرة ومن ثم فلا يمكن أن تنمو الحياة فى ظلها نموا سليما ، وتترقى رقيا صحيحا .

ان الحضارة الأوربية المعاصرة ، حضارة ظالمة ، استعبدت الضعفاء ، ونهبت ثرواتهم ، واستغلت مواردهم ، وعبثت بمقدراتهم ، واستباحت حرماتهم ، وانتهكت مقدساتهم فى وضح النهار ، وتحت وطأة القهر والتجبر ، ولسان حالها دائما :

ودعوى القوى كدعوى السباع   من الناب والظفر برهانها

من هنا يبدو واجب المسلمين فى تعريف الآخرين بهذه الحضارة الاسلامية الرائدة ، والقاء الاضواء على سماتها المتميزة ، وخصائصها المتفردة ، وعطائها الخير فى كل اتجاه ، وانجازاتها الانسانية فى كل ميدان ، وكيف أنها حققت التوازن الفذ ، وأقامت التناسق المطلوب بين المادة والروح ، وبين الدنيا والآخرة ، والفرد والجماعة ، والقوى والضعيف ، بل والمسلم وغير المسلم ... .

لتعلم الانسانية المعذبة أنه لا خلاص لها الا بالاسلام ، ولا منقذ لها الا هذا الدين الذى أتم الله به النعمة ، وحقق به الخير ، فمن ابتغى الخير فى غيره أضله الله .

لهذه الدوافع وغيرها ... قمت بهذه الدراسة .

ولقد عكفت طويلا على ما كتبه الباحثون والمفكرون من دراسات في موضوع الحضارة ، وتكشف لي من خلال ما قرأته من كتب كثيرة أن الباحثين نهجوا في دراساتهم الحضارية منهجين ، أو بتعبير آخر انقسموا الى مدرستين :

● مدرسة انساقت وراء المناهج الغربية ، وتقليد المفكرين الأوربيين ، فجاءت كتاباتها عن الحضارة لتركز على « النظم الحضارية » بالدرجة الأولى ، فهي تتحدث عن النظام السياسي ، والاداري ، والاقتصادي ، والاجتماعي ... الخ .

وفي رأيي : أن التحديث عن « النظم » باعتبار أن هذه هي الحضارة ـ قصور في استيعاب المعنى المتكامل والشامل للحضارة

فالنظم كما أرى هي أوعية الحضارة ـ وليست الحضارة ، ولكن هؤلاء الباحثين يكتبون عن الحضارة الاسلامية فيتحدثون مثلا عن النظام السياسي فاذا بهم يتحدثون عن نظام الخلافة ، ثم نظام الوزارة ، فالحجابة ... الخ ويعنون بتفصيلات كثيرة معتبرين أن هذه هي الحضارة ... .

وفي رأيي أن الحضارة هي النتائج ، أو الثمرات ، أو الآثار التي تحققها هذه النظم المتعددة ... .

فبالنسبة للنظام السياسي مثلا تكون الحقيقة الحضارية لهذا النظام مثلا هو مدى التطبيق لمبدأ الشورى ، وتحقيق العدالة ، والإلتزام بمبدأ المساواة ، وتحقيق تكافؤ الفرص ، وتكريس مفاهيم

الحرية ، وصون كرامة الفرد والأمة ... الخ هذه القيم الرفيعة التى يحققها النظام أم لا .

ولهذا كانت نظرة الأمة الاسلامية للحاكم المسلم نظرة حضارية عميقة ، لأنهم اعتبروه قائما مقام رسول الله ﷺ ، نائبا عنه فى أمور الدين والدنيا .

وهل الحضارة الحقيقية الا تحقيق مصالح العباد والبلاد فيما يتصل بأمور دينهم ودنياهم ؟

فالنظم اذن لا قيمة لها ، ما لم تثمر ثمارها ، وتحقق نتائجها ، وتعطى ما هو منوط بها ـ لكن هذه المدرسة فى رأيى ـ اهتمت بالنظم دون الاهتمام بعطائها الحضارى .

● المدرسة الثانية هى المدرسة التى تحدثت عن الحضارة ، فاذا بهؤلاء لا يتحدثون عن الحضارة الاسلامية ، وانما يتحدثون عن الدين الاسلامى لأن حديثهم جاء مقتصرا على بعض الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، ومحاولة تفسيرها ، أو ربط معانيها ، دون حديث يذكر عن تناول الحضارة ، وواقعها التاريخى فى حياة الأمة الاسلامية ..

وبعد معايشة طويلة لكلا المنهجين ـ ادركت أن كلا منهما لا يفى بالغرض المطلوب ، ولا يتعامل مع المفاهيم الدقيقة للحضارة ، والمضامين المستوعبة لها تعاملا كافيا .

ولذلك وجدت أن هناك ضرورة لبحث جديد ، يتناول مفاهيم الحضارة الاسلامية ومضامينها ، ويكشف خصائصها وسماتها

الفريدة والمتميزة فى دنيا الحضارات ؛ بحيث لا يعتمد على الصيغ الأدبية ، والعبارات الانشائية ، وانما يعايش تاريخ هذه الأمة الاسلامية ، ويغوص فى أعماق هذا التاريخ ليقدم الشواهد ، وليعطى النماذج ، وليصوغ البراهين ...

ولعل من نافلة القول الاشارة الى أن أى دراسة جديدة يقدمها الباحث لا تتكون فجأة ، ولا تتشكل بطريقة عابرة ، وانما تحتاج الى استيعاب وفهم ومعايشة للموضوع المطروح حتى تتكون لدى الباحث الحساسية المطلوبة للتعامل مع موضوعه .

وكل فكرة جديدة هى فى الحقيقة وليدة معاناة طويلة ، وخلاصة تجارب متعددة ، يتحملها الباحث فى صمت وصبر وتحمل ، مدركا ان العلم لا يعطيه بعضه حتى يعطيه كله ؛ وان ثمار أى بحث لا تنضجها الا المعاناة الدائبة ، والعمل الموصول ، والجهاد المتواصل .

وقد عشت - علم الله - هذه المعاناة فترة طويلة من الوقت ، حتى أتم الله نعمته ، ويسر وأعان ، فجاء هذا الكتاب - الذى أسعد بتقديمه اليوم ليقدم هذه الدراسة الجديدة - فى اعتقادى -

وقبل أن أقدم فصول الكتاب - أود أن أشير الى عدة نقاط :

أولا : اننى أتناول « الحضارة الاسلامية » من خلال سماتها وخصائصها التى تكشفت لى ابان عصور ازدهارها .

ثانيا : أن هذه الدراسة لم تشمل كل السمات والخصائص التى تميزت بها حضارتنا العظيمة ؛ فهناك سمات وخصائص أخرى متعددة

انفردت بها هـذه الحضـارة الثرية ، وسوف أتناولها بمشيئة الله تعالى في دراساتي اللاحقة .

ثالثـاً : انني اعنى بعصـور الازدهـار هنـا ، تلك العصور التى كان المسلمون فيها بحق يمثـلون اعظم قـوة سياسية على وجه الأرض ، وكانوا يقدمون عطاءهم الحضـارى في كل اتجـاه ، وكانت حضـارتهم هى الحضـارة الرائدة ، والتى تسود الدنيـا ، وتترك أثرها وتأثيرها في كل مكان من أرض الله الواسـعة .

وهى فترة امتدت في عمـر الزمن حوالى عشرة قـرون تقـريبا ...

بعدها تغيرت موازين القـوى ، وغـربت شمس الحضـارة فى بلاد المسلمين ، لتسطع فى أوربا بفضل المؤثرات الاسـلامية ، وليحف المسلمين ليل طويل من الجمـود والتأخـر فى كل ناحية من نواحى الحياة .

وقد قسمت هذه الدراسـة الى مقـدمة ، وستة فصول ، وخاتمة .

ففى هذه المقـدمة تحدثت عن الدوافـع والأسـباب التى كانت وراء هـذه الدراسـة ، وسيعقب ذلك عـرض لفصول الدراسة .

وجاء الفصـل الأول بعنوان « تمهيد فى دراسة الحضـارة » .

وكان هذا الفصـل ضروريا للتعـرف على الحضـارة ، ومفاهيمها ، ومعايشـة أجـوائها ... ومن ثم تحـدثت فى هـذا الفصـل عن معنى الحضـارة لغـة واصطلاحا ، وكيف تعددت وجهـات النظـر فى مفهـوم الحضـارة ـ ثم حصرت أهم الاتجـاهات فى مفاهيم الحضـارة بثـلاثة اتجاهات ، مبينا رأيي في الاتجـاه الصحيح منها ،

كما تناولت المصطلحات التى لها علاقة بالحضارة ، فوضحت معنى « المدنية » وارتباطها بالحضارة ، ومعنى الثقافة وصلتها بالحضارة ، مشيرا الى آراء المفكرين فى ذلك .

وتحدثت عن « عناصر صنع الحضارة » والتى لابدمن توافرها لكى توجد الحضارة ، واعقبت ذلك بالحديث عن عوامل قيام الحضارة وعوامل فنائها .

أما الفصل الثانى فعنوانه « الحضارة الاسلامية وارتباطها بالاسلام » .

وقد بدأته بتعريف الحضارة الاسلامية ، والى أى مدى امتدت تلك الحضارة ، ثم تحدثت عن أبرز الحضارات التى ظهرت فى التاريخ ليتأكد لنا أن هذه الحضارات انحرفت دائما عن الاتجاه الصحيح ، فهى مرة تنحرف الى جانب الروح لتهمل عالم الحس والمادة ، ومرة تنحرف الى جانب المادة لتهمل جانب الروح .

وأن الحضارة الاسلامية كانت حضارة فريدة فى التاريخ لأنها حضارة شاملة مستوعبة ـ شملت الانسان مادة وروحا ، وشرحت بالتفصيل السبب الذى ميز الحضارة الاسلامية ، واعطاها خصائصها المتميزة فى التاريخ ، لانها قامت على أساس الدين الاسلامى .

ذلك الدين الذى انزله الله ليكون منهاجا شاملا يتناول شتى نواحى الانسان ، ومجالات الحياة ، فهو يشمل جوانب العقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، والأخلاق ، والعقوبات ، والعلاقات العامة والخاصة .. الخ .

أجمل انه دين جامع شامل ، استوعب الحياة كلها طولا

وعرضبا ، بحيث نستطيع أن نقول بحق انه ما من موقف من مواقف الحياة ، ولا قضية من قضايا الانسان الا وللاسلام فيها حكم ورأى وتوجيه ... وأنه دين حضارة ، ورقى ، وازدهار ...

ولهذه الحقائق كلها ـ كان الدين اسلامى ـ هو الأصل الأصيل ، والأساس المتين للحضارة الاسلامية ، وهذا هو السبب فى ثراء هذه الحضارة ورحابتها وانفرادها وتميزها عن غيرها من الحضارات الاخرى ، لأنها قامت على إساس دين الهى ، ومنهج ربانى مفصل فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ثم جاء الحديث ليتناول « **السمات والخصائص الكثيرة** » التى تميزت بها الحضارة الاسلامية فى عصور ازدهارها من خلال التاريخ الاسلامى ، وواقع الحياة الاسلامية عبر هذه العصور .

ومن ثم كان الفصل الثالث الذى جاء ليتحدث عن سمة وخصيصة من سمات هذه الحضارة الاسلامية وخصائصها فكان عنوانه « **حضارة تتسم بالروح الدينية القوية** » وقد تأكد من خلال ما عرضناه ان « روح التدين » ظهرت واتضحت فى كثير مما تركه المسلمون من مظاهر الحضارة ، وأن الشخصية الاسلامية ظلت على امتداد عصور الازدهار ـ شخصية متدينة يحتل الدين اهمية كبيرة فى كل نواحى حياتها .

وللتدليل على ذلك وضحت اثر الروح الدينية فى تخطيط المدينة الاسلامية ، وفى اهتمام المسلمين بمساجدهم ، وفى كثرة مؤسسات المسلمين الدينية ، كما اتضح الأثر الدينى فى نوع الطعام والشراب ، وفى الملابس والزينة والمظهر عند المسلمين ، واتضح ايضا فى نظام المسكن ، وفى نظرة المسلمين الى وظيفة الحسبة ، وكذلك وضحت

الروح الدينيـة فى نظـرة المجتمـع الاسـلامى وتقـديره لرجال الدين ، وفى الاحتفـال بالاعيـاد الدينيـة الاسـلامية ، واختيـار الاسماء التى تتصـل بالدين ورمـوزه ...

وقد تجـلى لنـا من خـلال التفاصـيل التى ذكـرناها ـ أن الروح الدينيـة بحـق كانت تصبغ الحيـاة اليوميـة للمسلمين فى كل صـغيرة وكبيرة ، وفى كل حركاتهم وسكناتهم .

وحتى لا يتصور أحد أن الاسـلام يهتم بالاخـرة فقط دون الدنيـا ، كان لابد من الحـديث عن اهتمـام الاسـلام بالدنيـا ، وأن الحضـارة الاسـلامية جمعت بين العمل للدنيـا ، والعمـل للآخـرة معا .

ولذا جاء الفصل الرابع ليتحدث عن سمة أخـرى من سمات الحضارة الاسـلامية وهى أنها « حضـارة تقوم على عمـارة الدنيـا والاقبـال على الحيـاة » .

وفى هذا الفصـل وضحت عـلاقة الاسـلام بالدنيـا ، وحث الاسلام على العمـل واتقـانه ، وان العمـل للدنيـا عبـادة ، وأن الاسـلام عـدو التبطـل باسـم الدين ... ثم شرحت بالتفصـيل أن هـذه المفـاهيم الواضحة جعلت المسلمين ينطلقون فى آفـاق الارض يملأونها حركة وسعيا فى كل ناحيـة من نواحيها .

ولتأكيد هذه الحقيقـة كان لابد من معايشـة المسلمين فى كل ميادين العمـل من زراعة .. وصناعة .. وتجـارة ..

فشرحت بالتفصيل اهتمام المسلمين « بالـزراعة » وكيف انطـلقوا يعمـرون الارض ويحيون موآتهـا ، ويهتمون بزراعتها ، ومن ثم نظموا وسـائل الري في أنحـاء العـالم الاسـلامي ، كما تفننوا في أسـاليب

الزراعة ، وعرفوا السماد ، والتلقيح ، وتطعيم بعض الاشجار ، وابدعوا في تنسيق الحدائق ... ثم تحدثت عن أهم ما زرعه المسلمون من انواع الحبوب ، والخضروات ، والفواكه .. كما تحدثت عن اهتمامهم بتربية الحيوانات والطيور ...

ثم تحدثت عن اهتمام المسلمين « بالصناعة » فاشرت الى الاسباب التى ادت الى تقدمها فى المجتمع الاسلامى ، كما تحدثت عن أهم المعادن التى استخرجوها من أجل الصناعة ، واعقبت هذا بالتحدث عن أهم الصناعات عند المسلمين ، كما اشرت الى النظم الاسلامية التى ادت الى جودة الصناعة واتقانها .

وانتقلت بعد ذلك للحديث عن اهتمام المسلمين « بالتجارة » ووضحت أن المعاملات التجارية كانت تتم بين المسلمين غالبا فى ضوء الآداب والأحكام الاسلامية ، ثم تحدثت عن العوامل التى أدت الى ازدهار التجارة عند المسلمين ، وأن تجار المسلمين انطلقوا الى كل مكان من ارض الله الواسعة ، وجابت سفنهم كل البحار ، وامتدت صلاتهم التجارية مع معظم بلاد العالم ، حتى أمست الاسكندرية وبغداد كما يقول المستشرق « متز » هما اللتان تقرران الأسعار للعالم خلال القرن الرابع الهجرى .

كما اشرت الى طرق التجارة ، وأهم الموانى التجارية فى بلاد المسلمين ، واعقبت هذا بالحديث عن سبق المسلمين فى نظم التجارة : والأعمال المصرفية ، ونقل الأوربيين عنهم .

وهكذا جد المسلمون فى طلب الرزق وابتغاء فضل الله ، فى شتى أرجاء البر والبحر ، تطبيقا لتعاليم الاسلام التى تحث المسلمين

على أن يأخذوا بكل أسباب القـوة ، وأن يكونوا سـادة عالمهم ، ورواد دنياهم فى كل ناحية من نواحى الحيـاة .

وختمت هـذا الفصـل بتأكيد هذه الحقيقة المتالقة ، وهى أن المجتمع الاسـلامى حقق التوازن الفذ الذى جمـع بين الدنيـا والآخـرة والعمـل لكليهما فى وقت واحـد ، فلم يخاصم المسلمون الدنيـا من أجل الآخرة ، وانما أقبلوا على دنيـاهم وتمتعوا بطيباتها ، مستلهمين تعـاليم ربهم ، وروح دينهم ، فى التوسط والاعتدال غالبـا .

وجاء الفصـل الخـامس بعنوان « حضـارة تقـوم على التـكافل والتراحـم » .

وقد بدأته بالحديث عن المجتمعات القـديمة والوسيطة خارج ديار الاسـلام ، ووضحت كيف أنها كانت مجتمعـات طبقيـة يسودها الظـلم ، وينتشر فيهـا الجـور والغبن ، ثم تحدثت عن المجتمـع الاسـلامى وأنه مجتمـع لا طبقى ، ووضحت أن تعـاليم الاسـلام لا تسمح بقيام الطبقات فى المجتمـع الاسـلامى ، وانمـا تسمح فقط بقيـام مجتمـع الاخـاء والتـكافل والتراحم ، وقد شرحت هـذه الحقيقة بافاضة وتفصيل .

وقد استطاعت تعليمات الاسـلام الكثيرة ـ والتى تحدثت عنها ـ أن تحقـق التـكافل والتراحم فى المجتمـع الاسـلامى ، وهذه حقيقـة متـالقة فى تاريخ حضـارتنا الاسلامية ، وقد تحدثت عن هـذه الحقيقـة بافاضة ، وتناولت صـور التكافل والتراحم الكثيرة التى عـرفها المجتمع الاسـلامى .

وفى هذا الاطار تحدثت بالتفصيل عن عنـاية المجتمـع الاسـلامى

بالضعفاء والمحتاجين ، واليتيم ، والمرضى ، وطـلاب العـلم ، والغرباء ، والنســاء والمطلقات الأرامل ٠٠٠

وفى كل هذه الموضوعات ـ لم يكن الحديث انشائيا ٠٠ ، وانما دعمنا حديثنا بالحقـائق الثابتـة ، والوقـائع المؤكدة من تاريخنا الاســلامى ، كما جاءت فى المصـادر الموثوق بصحتها ٠

ثم ختمت هـذا الفصـل بالحديث عن نظـام الوقف فى الاســلام ، ودوره الفذ فى تكافل الأمـة الاسـلامية ٠

وجاء الفصـل السـادس والأخير ليتحدث عن سمة أخـرى من سمات الحضـارة الاسـلامية وخصيصـة من خصـائصها وهى أنهـا « حضـارة تقوم على التسـامح » ٠

وفى هـذا الفصـل عشنا مع دعـوة الاسـلام الملحـة الى التسامح ، وحث المسلمين على التمسك بهذا الخلق ، ثم تحدثت عن أن عقائد المسلمين ونظـرتهم الى الدنيـا كانت تعمـق فيهم أيضـا روح التسـامح والعفو ، لأن المسلم يعتقـد ان حقـه اذا ضـاع عند النـاس ـ فلن يضيع عند الله ، واذا فاته الجـزاء العاجل ، فلن يفوته الجزاء الآجل ٠

وتحدثت أيضـا عن موقف الاســلام من غير المسلمين ، وأنه موقف قـام على التسـامح النـادر الذى لا نجد له نظيرا فى التاريخ كله ، حيث أن الاســلام لم يرغم أحدا للدخول فيه ، وانما بسط يد المـودة والتسـامح مع الجميـع ، وكان تعـامله مع الآخـرين يقوم على أسـاس الدعـوة الى الاسـلام ـ فان رفضـوا كان عليهـم دفـع الجـزية ، فان رفضـوا كان القتـال هو آخـر المراحل التى يلجـأ اليها المسلمون بعد أن يستنفدوا كل الحيـل مع خصومهم دفاعا عن النفس والدين ، ورد العـدوان ، ومع هذا فقد كانت هنـاك آداب وتوجيهـات كثيرة للاسـلام ليلتزم بها المسلمون فى حروبهم وقد وضحت ذلك كله بالتفصيل ٠

ثم تحدثت بافاضة عن نظرة الاسلام الى الديانات السماوية وتوجيهات الاسلام فى معاملة أهل الذمة ، ولتأكيد موقف الاسلام العظيم والمتسامح من أهل الذمة ، ولاظهار هذه الحقيقة المتالقة عبر العصور الإسلامية المتعاقبة تحدثت بالتفصيل عن معاملة الرسول لأهل الذمة ، ثم معاملة المسلمين لأهل الذمة خلال عصر الراشدين .

وأكدت أن الأسس والأحكام التى وضعها الرسول ﷺ ، وصحابته الأجلاء رضوان الله عليهم ـ ظلت بعد ذلك نبراسا وقاعدة تحكم المسلمين فى معاملتهم لأهل الذمة عبر العصور المتعاقبة .

ولتأكيد هذه الحقيقة أوضحت بالتفصيل تمتع أهل الذمة بكثير من مناصب الدولة ، وتمتعهم كذلك بمكانة اجتماعية واقتصادية طيبة ، كما تمتعوا بتسامح عام وشامل فى كل ناحية من النواحى .

وكنت حريصا فى ذكر هذه الحقائق كلها أن ادعم حديثى بما كتبه المستشرقون من باب « وشهد شاهدمن اهلها » ومن باب « الفضل ماشهد به الأعداء » وحتى لا يكون هناك أى مجال للإتهام بالتعصب أو الافتئات ...

ثم تحدثت بعد ذلك على اثر التسامح الاسلامى فى انتشار الاسلام ، واشرت الى بعض الاتهامات الباطلة التى يرددها بعض الحاقدين على الاسلام محاولين اتهام الاسلام والمسلمين بعدم التسامح .. وقد فندت كل هذه المزاعم الكاذبة ، ودحضت كل هذه الشبهات الباطلة ، كما تناولت موضوع القلاقل والاضطرابات التى وقعت احيانا بين المسلمين وأهل الذمة ، ووضحت الأسباب الحقيقية التى كانت وراء هذه القلاقل والاضطرابات .

ثم ختمت هذا الفصل بالحديث عن تعصب المجتمعات غير الاسلامية ،

وكيف أن المجتمعات الأخرى حفها ليل حالك السواد من التعصب والاضطهاد للمخالفين ، وقد تحدثت عن ذلك لنعرف الى أى مدى كانت سماحة الاسلام وتسامح المسلمين .

وبهذا نكون قد قضينا وقتا طيبا مع هذه الدراسة عن تاريخ الحضارة الاسلامية والتى تحدثنا فيها عن بعض سمات وخصائص هذه الحضارة العظيمة ، وهناك سمات وخصائص أخرى سوف نتناولها فى دراسات لاحقة ان شاء الله تعالى .

وقد اعتمدت هذه الدراسة على كثير من المصادر والمراجع ، يمكن للقارىء أن يلمسها من خلال هوامش الصفحات ، ومن القائمة المثبتة فى نهاية الكتاب وسوف يلمس القارىء من خلالها ان شاء الله مدى ما بذل من جهد وعناء للوصول بالدراسة الى هذه الصورة .

أسال الله تبارك وتعالى أن ينفع بهذه الدراسة ، وأن تكون بداية دراسات أخرى للتعرف على هذه الحضارة الرائدة ، التى صنعها المسلمون بحسن فقههم لدينهم ، وبحسن عملهم واستلهامهم لقيمه العليا ، ومثله الرفيعة ، وفضائله المتفردة .

كما أسأله تبارك وتعالى أن يجعل عملنا هذا خالصا لوجهه الكريم ، وأن يجعله فى موازين حسناتنا يوم الدين ، يوم لا ينفع مال ولا بنون . وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون .

دكتور

محمد محمد عبد القادر الخطيب

القاهرة ـ حلمية الزيتون

١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م

الفصل الأول

تمهيـــد فى دراسة الحضـــارة

معنى الحضـــارة :

الحضارة فى اللغة العربيـة : احـد مصادر الفعل « حضر » بمعنى اتى ـ يقال حضر الغائب حضورا ـ قدم من غيبته ، ويقبـــال « حضر » فلان ـ حضارة ـ اقامفى الحضر ، و « تحضر » يتحضر ـ تخلق باخلاق اهل الحضر وعاداتهم .

و « الحضر » بفتحتين : خلاف « البـدو » والنسبة اليه « حضرى » اى أقام بالحضر و « الحضارة » بفتح الحاء وكسرها الاقامة فى الحضر .

والحضر ، والحضرة ، والحاضرة : هى المدن والقرى والريف .

وسميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التى يكون لهم بهـا قرار .

وبهذا المعنى استعملها القطامى الشـاعر ـ مفتخرا ببـــداوة قومه مستخفا بساكنى القرى والمدن حيث قال :

فمن تكن الحضـارة أعجبته · فاى رجال بادية ترانا .

و « البداوة » : هى الاقامة المتنقلة فى البوادى (١) ٠

فاصل المعنى اذن هو الاستقرار الذى ينشأ من زراعة الأرض على ضفاف الأنهار - أو على العيون والآبار - وما يترتب على هذه الاقامة من التعاون والتآزر ، وتبادل الأفكار والمعلومات ، والرقى المادى والمعنوى فى الأخلاق والعادات والطباع والعقائد ووسائل الحياة المختلفة ٠

وذلك بخلاف الاقامة المتنقلة فى البوادى ، وما تحويه من غلظة وخشونة ، وما تستتبعه من فظاظة الخلق وجفوة الطبع ، وما تتميز به من غارة وسلب ونهب واعتداء على منابت الكلأ ومواقع الغيث (٢) ٠

والتمييز بين البداوة والحضارة موجود منذ القدم ٠

فقد وجدت عند العرب كلمات فى معنى البداوة والحضر مثل الوبر ، والمدر والحدر ، والحجر ٠

---

(١) أنظر : اسماعيل بن حماد الجوهرى : الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) - مادة حضر ج ٢ ص ٦٣٢ - ٦٣٣ - تحقيق أحمد عبد الغفور عطار - القاهرة - الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم (ابن منظور) : لسان العرب - مادة حضر ج ٢ ص ٩٠٦ - ٩١٠ ، دار المعارف - القاهرة ، محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى : مختار الصحاح ص ١١٠ - ١١١ - المطبعة العثمانية - القاهرة - ١٣١١ هـ ، المعجم الوسيط ج ١ ص ١٨٠ قام باخراجه ابراهيم مصطفى وآخرون وأشرف على طبعه عبد السلام هارون - مجمع اللغة العربية - القاهرة - ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م ٠

(٢) أنظر د٠ توفيق يوسف الواعى : الحضارة الاسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ص ١٦ - دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة - الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، توفيق محمد سبع : قيم حضارية فى القرآن الكريم ج ١ ص ١٥ - سلسلة البحوث الاسلامية - يصدرها مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر - القاهرة - العدد الخمسون ربيع الآخر ١٣٩٢ هـ / مايو ١٩٧٢ م ٠

فالوبر : هو الصوف الذى يصنع منه البـدوى خيامه وملابسه فى الصحراء ، ويقال : أهل الوبر - أى أهل البوادى (٣) .

أما المـدر : فهو قطع الطين المتماسك الذى تبنى به مساكن الحضر فى المدن والقرى رمزا للحضارة ، فاذا قيل أهل المـدر كان معنـاه أهل الحواضر والمدن والقرى - يقال فلان سيد مدرته - أى قريته (٤) .

وقد سمى العرب مصر : بالمدرة السوداء - كناية عن أنها تتكون من قرى ومدن .

وذلك فى الحديث الذى أورده ابن عبد الحكم ... عن رسول الله ﷺ حيث قال : « الله الله فى أهل الذمة ، أهـل المـدرة السـوداء ، السحم الجعاد ، فان لهم نسبا وصهرا » (٥) .

أما الحـدر : فهى الأرض المنحدرة التى لا يبنى عليها لتعنى البادية لأن أهل البادية يسكنونها ولا يبنون عليها (٦) .

والحجر : يشير الى البيوت التى تبنى بالحجارة ، ويسكنها أهـل الحضر من ساكنى القرى والمـدن ، ولذا يقـال : « أهل الحجر » لأنهم يسكنون بيوتا متينة ثابتة خلافا لأهل البادية (٧) .

---

(٣) أنظر ابن منظور : لسان العرب ج ٦ ص ٤٧٥٢ .
(٤) أنظر ابن منظور : لسان العرب ج ٦ ص ٤١٥٩ ، ٤١٦٠ ، الرازى : مختار الصحاح ص ١٤٧ .
(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٥ تحقيق عبد المنعم عامر - لجنة البيان العربى - القاهرة - ١٩٦١ م - والسحم جمع أسحم ، والسحمة سواد كلون الغراب .
(٦) أنظر ابن منظور : لسان العرب ج ٢ ص ٨٠٢ .
(٧) أنظر ابن منظور : نفس المصدر ج ٢ ص ٧٨١ .

وقد وجدنا فى الجزيرة العربية عدة مدن باسم الحجر (٨) ٠

الحضـارة مصطلحا ومفهـوما :

من المصطلحات الأكثر تعقيدا مصطلح « الحضارة » ـ فيكاد هـذا المصطلح يجمع مئـات التفاسير ، وكل منهـا يعكس مرئياته الخاصة عن الوجود ، ويختصر مفاهيم أصحابه عن الحياة ، ولا غرو فى ذلك فمفهوم الحضارة هو مقيـــاس لمستوى الادراك ، وعنوان على معطيـــات الأمم والشعوب (٩) ٠

وقد أكثر المؤرخون والفلاسفة والمفكرون فى القـرون المتأخرة من الأبحاث الحضارية ، موضحين مفاهيمهم عنها توصلا الى رسم صورة أو أخرى للحضارة الأمثل التى يسعد الناس بها (١٠) ٠

فذهب فريق من العقلانيين وهم الفلاسفة الغربيون الذين مجـــدوا العقل فى عصور النهضة فى أوربا فى تفسيرهم للحضارة الى جعلها مرادفة للعقل نفسه ٠

أو فى أحسن الأحوال لثمرات العقـــل ٠ فلا حضـــارة الا للظواهر الانسانية المبنية على مقياس العقل وتقريراته ٠

ومنهم من ذهب الى أن الحضارة هى العـلم المبنى على مكتشـفات ساعدت الانسان على أن يحيـا حيـــاة أفضل مستفيدا من البيئـــة حوله

---

(٨) أنظر ياقوت : معجم البلدان ـ المجلد الثانى ص ٢٢١ ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ٠

(٩) محمد على ضناوى : بحث بعنوان « الحضارة الاسلامية بين التحدى والتعطيل » ص ٤٨١ ـ منشور ضمن بحوث الندوة العالمية للشباب الاسلامى بالرياض ـ المجلد الأول ـ ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ـ الطبعة الثانية ٠

(١٠) أنظر المرجع السابق ص ٤٨١ ـ ٤٨٣ ٠

ـ فلا عبرة ـ فى هـذا المفهوم ـ الا للتكنولوجيا ـ فهى الحضـارة بدءا أو نهاية ، والعلم والمخترعات هما اللذان يمنحان الحضارة حيويتها ورقيها وبالتالى مفاهيمها الصحيحة •

وجاء المشتغلون بمسائل الطاقة ، فحاولوا مجددا حصر « الحضارة بالطاقة وبأساليب التحكم بها » باعتبار أن الطـاقة هى مصدر الانتـاج والابداع ، والانسان الأول استخدم طاقته العضوية الكامنة فى جسده فكان الكائن العضوى أول مصادر الطاقة ثم تطورت •••

ومنهم من ذهب الى أن الحياة ترتكز على عناصر اقتصادية أساسية تتكون من نتيجتها الحضارة « فالحضارة هى الاقتصاد » حسب رأيهم •

اهم الاتجاهات فى مفهوم الحضارة :

••• وازاء جزئيـة كل من هـذه التعاريف ، ومجافاتها فى بعض جوانبها للواقع الحضارى ، وحتى لا يطول بنا استعراض الآراء المتعددة ، ووجهات النظر المختلفة ، نستطيع أن نحصر أهم الاتجاهات المختلفة فى مفهوم الحضارة بثلاثة اتجاهات :

الاتجاه الأول : هو الاتجاه الذى يركز على الجانب المادى للانسـان والحياة ، ويرى أن الحضـــارة : هى توفر أسباب الراحة والرفاهيـة ، والتانق فى المراكب والملابس والمبانى والفرش والأطعمة ••• الخ •

ولذا نجـد كثيرا من المؤرخين تدور أحاديثهم عن الحضارة حـول التقدم المادى ومظاهر العمران ، وما شيده الأقدمون من مبان أو أقاموه من أهرامات وما تحتوه من تماثيل وبرعوا فيه من نقوش وما الى ذلك •

وهؤلاء المؤرخون لا يلتفتون الا الى تلك المظاهر المادية دون سواها•

ويحلو لبعض المؤرخين (١١) أن يضع المؤرخ القدير عبد الرحمن ابن خلدون ضمن أصحاب هذا الاتجاه معتمدين في هذا على تعريفه للحضارة فى مقدمته عندما قال « والحضارة انما هى تفنن فى الترف ، واحكام الصنائع المستعملة فى وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمبانى والفرش والابنية وسائر عوائد المنزل وأحواله فلكل واحد منها صنائع فى استجادته والتانق فيه ... » (١٢) .

والحق أن الترف ليس قرينا حتميا للحضارة ، أو نتيجة حتمية لرقيها .

فالترف ليس حالة من حالات الحضارة ، وانما هو موقف من الحياة ، فقد يكون هناك من هو واسع الدخل لكنه منتظم الانفاق ، بينما قد يكون هناك من هو محدود الدخل لكنه مختل الانفاق .

وانما يكون الترف فى اختلال ترتيب الأولوية فى وجوه الانفاق ، وتحديد المناسب لكل وجه ، والاسراف والشطط خلل تفكيرى مزاجى ليس

---

(١١) انظر د. عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ص ٩ ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٧٨ م ـ الطبعة الرابعة .

(١٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٢ ـ دار القلم ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٩٨١ م ـ الطبعة الرابعة .

ولعل ابن خلدون كان يذكر عادات أهل الحضر ولا يقصد بهذا التعريف للحضارة بالمعنى الذى ذهب اليه المحدثون فيما بعد ـ ونظرة متأنية الى ما كتبه ابن خلدون فى مقدمته تؤكد أنه كان لا يعنى بتعريفه المذكور جوهر الحضارة الحقة حيث أنه حمل على الترف الذي يؤدي الى الفساد وقتل روح الجد في الانسان .

من نتائج الحضارة بل هو سمة لأفراد أو جماعة محدودة من الأفراد (١٣) .

وعلى كل حال فان تلك الاهتمامات الظاهرية للحضارة وجدت من يأخذ بهـا من العصر الحديث ، وعبروا عنها بالحضـارة ، وشغفوا بهـا وهاموا بها حبا ، وهذا مما دعى النـــاس فى كثير من أحوالهم الى أن يأخذوا بالقشور ويدعوا اللباب ، ويهتموا بالمظهر ويهملوا المخبر ، وان كان ذلك على حساب كثير من المبادىء والأخلاق والقيم ـ وهذا الاتجـاه يعد من الاتجاهات المادية للحضارة (١٤) .

بل لقد تغالى بعض هؤلاء الماديين تغاليا جعلهم ينحدرون انحدارا مؤسفا نحو المتعة والشهوة المادية دون اعتبار لدين أو خلق أو انسانية .

وهم يرون « أن الأخلاق ليست الا اختراع الضعفاء لكى يقيدوا بها سلطان الأقوياء ، فلنكن حربا على الأخلاق ، ويجب أن نحطم قيد العدل الظالم حسبما جاء فى القانون الوضعى .. يجب أن نترك العنان لطبيعتنا المطلقة ... » (١٥) .

وها نحن نرى الفكر الشيوعى الذى يقوم على الالحاد ، وأن المـادة هى أساس كل شيء ، ويعتبر الدين أفيون الشعوب ، وأن القوانين وجدت ليحكم بها الأقوياء الضعفاء ، والجنس كلأ مباح ، والشهوة متاع محبب ..

---

(١٣) أنظر د. حسين مؤنس : الحضارة ص ١٥٧ ، ١٥٨ ـ سلسلة عالم المعرفة ـ عدد رقم ١ ـ يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت ـ محرم ١٣٩٨ هـ / يناير ١٩٧٨ م .

(١٤) د. توفيق الواعى : الحضارة الاسلامية ص ٣٢ .

(١٥) أندريه كرسن : المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ص ٣٢ ترجمـة د. عبد الحليم محمود وآخرين ـ دار الاحياء العربية ـ القاهرة.

الى غير ذلك من الافكار الهدامة التى تخاطب غرائز الانسان وشهواته المنحطة ، وتجعله ينحدر من المكانة الراقية التى أرادها الله له (١٦) •

الاتجاه الثانى : هو الاتجاه الذى يركز على الجانب الروحى أو المعنوى للانسان •

أى أنه يبحث فى حضارة الانسان نفسه داخليا ـ عقليا ، وسلوكيا ، وخلقيا ـ فهو يقيم الانسان نفسه بصرف النظر عما يستعمل أو يسكن أو يصنع •

واذا نظر الى ما حوله فانما ينظر اليه بمقدار عطائه الانسانى ، ومدى ما يحققه للانسان من ارتقاء لفكره ، وروحه ، وخلقه ، وقيمه الرفيعة •

فالحضارة فى نظر هؤلاء : هى كل ما يثرى جانب الروح فى الانسان ، ويرفع الانسان الى المكانة اللائقة به من حيث كونه انسانا له قلب وضمير وخلق •

ولعل خير ما يعبر عن هذا الاتجاه هو ما قاله المفكر الهندى (راس ـ فيهارى ـ داس) أستاذ الفلسفة بجامعة سوجار بالهند عندما قال « الحضارة فى جوهرها تقوم على الكائن البشرى لا على الاشياء

---

(١٦) عن الشيوعية أنظر كتاب « السرطان الاحمر » للدكتور عبد الله عزام ، « حقائق الشيوعية » نهاد الغادرى ، « الشيوعية والشيوعيون فى ميزان الاسلام » للدكتور عبد الجليل شلبى ، « الاسلام فى وجه الزحف الأحمر » محمد الغزالى ، « أفيون الشعوب ـ المذاهب الهدامة » ، « الشيوعية والانسان » لعباس محمود العقاد •

المادية ، والناس هم متحضرون أو غير متحضرين وفقا لبعض مزاياهم الروحية (١٧) .

فالحضارة بالنسبة لأصحاب هذا الاتجاه (١٨) : ليست فى هذه الانجازات المادية الكثيرة التى تركهاالسابقون أو ابدعها المعاصرون ، والتى تتمثل فى العمارات الشاهقة ، والسيارات الفارهة ، والاختراعات العجيبة ، والأجهزة المتنوعة التى ملأت حياة الانسان بالترف والرفاهية ، أو التى جعلت من الانسان قوة مهيبة فرضت وجودها على كوكبنا الأرضى برا ، وبحرا ، وجوا .

فكل هذا فى نظرهم ليس هو الحضارة التى توفر للانسان ما ينشده من راحة ضمير ، وطمأنينة قلب ، واستقرار نفس ، وهدوء بال - بل ان كثيرا مما صنعه الانسان الآن ارتد اليه ، وأصبح وبالا عليه .

يؤكد ذلك ما تعانيه الانسانية اليوم من قلق نفسى ، وظمأ روحى ، ويكفى أن نعلم أنه بقدر ما أنجز الانسان من انجازات مادية نفعته ويسرت

---

(١٧) اللجنة الوطنية اللبنانية للتربية والعلم والثقافة (الرافد الوطنى لمنظمة اليونسكو العالمية) : الثقافة الانسانية وفلسفة التربية فى الشرق والغرب - مباحثة دولية نظمتها اليونسكو - تعريب أنطوان خورى - بيروت نقلا عن د. محمد فتحى عثمان : بحث القيم الحضارية فى رسالة الاسلام ص ٨١ منشور ضمن بحوث الندوة العالمية للشباب الاسلامي بالرياض - المجلد الأول - ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م - الطبعة الثانية .

(١٨) أنظر ما كتبه أصحاب هذا الاتجاه فى كتبهم التالية :
أبو الأعلى المودودى فى كتابه « الحضارة الاسلامية » ، مالك ابن نبى فى كتابه « شروط النهضة » ، تقى الدين النبهانى فى « نظام الاسلام » ، سيد قطب فى كتابه « المستقبل لهذا الدين » ، « معالم فى الطريق » ، وغوستاف لوبون فى كتابه « روح الجماعة » ترجمةعادل زعيتر ، ألكسيس كاريل فىكتابه « الانسان ذلك المجهول » ...

له الكثير - فانه انجز ايضا ما يضره وما يستطيع أن يدمر به الحياة على كوكبه الأرضي تدميرا شاملا .

ولذلك يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الحضارة هي التصورات ، والقيم ، والمبادىء التى تعصم الانسان من الزلل ، وتمنعه من الانحراف والخطأ .

الاتجاه الثالث : وهو الاتجاه الذي يجمع بين الجانب المادى والمعنوى للانسان والحياة - فمفهوم الحضارة بالنسبة لأصحاب هذا الاتجاه مفهوم هام يشتمل على مختلف مظاهر الحياة من معنوية ومادية : فالعقائد ، والتقاليد الخلقية ، والانتاج الفكرى ، والطابع السياسى ، والاقتصادى ، والاجتماعى ، والفنى ، وكذلك صور الانتاج المادى من العمائر والقناطر والطرق والمخترعات والآلات ... الى غير ذلك كلها مظاهر للحضارة .

وقد عبر الدكتور حسين مؤنس عن هذا الاتجاه تعبيرا دقيقا مستوعبا فقال عن الحضارة « هى ثمرة كل جهد يقوم به الانسان لتحسين ظروف حياته ، سواء أكان الجهد المبذول للوصول الى تلك الثمرة مقصودا أم غير مقصود ، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية » (١٩) .

ونحن نرى أن هذا الاتجاه هو الاتجاه الصحيح .

---

(١٩) أنظر كتاب الحضارة ص ١٣ ومن أصحاب هذا الاتجاه أيضا نذكر : د. محمد محمد حسين فى كتابه « الاسلام والحضارة الغربية » ، د. أحمد شلبى فى موسوعة الحضارة الاسلامية ج ١ ، يوسف الحورانى فى كتابه « الانسان والحضارة » ، وليم هاولز فى كتابه « ما وراء التاريخ » ، ول . ديورانت فى «نشأة الحضارة»، توينبى فى كتابه « الحضارة فى الميزان » ترجمة محمد بدران ، لارف لنتون فى كتابه « شجرة الحضارة » ، جورج باستيد فى كتابه « المدنية » ترجمة عادل العوا ، البرت سفيتسر فى كتابه « فلسفة الحضارة » ترجمة د. عبد الرحمن بدوي .

فالحضارة الصحيحة حقا : هى تلك الحضارة التى تلبى مطالب الانسان المادية والروحية ، وتقيم بينهما توازنا يتمشى مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وان فطرة الانسان كما برأها الخالق جل وعلا مادة ، وروح فلابد من حضارة تنهض بهما معا وتلائم بينهما ملاءمة دقيقة .

اما أن تطغى المادة على الروح فتلك هى الحيوانية الفاجرة ، واذا ما طغت الروح على المادة فتلك هى الرهبانية الخانقة التى تفر من الحياة وتاخذ منها موقفا سلبيا ، وما بهذا أمر الله .

ولذلك كانت الحضارة الاسلامية كما سنعرف حضارة مثالية لأنها قامت على مبادىء الاسلام وتعاليمه ، وهى مبادىء وتعاليم نهضت بفطرة الانسان مادة وروحا ، دينا ودنيا ، عقلا وبطنا وقلبا وضميرا وروحا ... وكل هذا فى توازن فذ ، واتساق لا نظير له .

معنى المدنية وارتباطها بالحضارة :

كلمة « المدنية » تشير فى استعمالاتها عند بعض الباحثين (٢٠) الى معنى مرادف للحضارة - فيقال « المدنية الاسلامية » أى « الحضارة الاسلامية » ويجعلوهما كلمتين مترادفتين - وهذا الاطلاق يتفق مع المدلول اللغوى للكلمة لان « المدنية » نسبة الى « المدينة » وهى تعنى « الحضارة واتساع العمران » يقال رجل « مدنى » أى منسوب الى المدينة ، كما يقال

---

(٢٠) من هؤلاء جرجي زيدان فى كتابه « تاريخ التمدن الاسلامى » بخمسة أجزاء - تحقيق د. حسين مؤنس - دار الهلال - القاهرة .

« تحضرى » أى منسوب الى الحاضرة ، و « تمدن » عاش عيشة أهـل المدن واخذ باسباب الحضارة (٢١) .

واتفاق « الحضارة » و « المدنية » أمر طبيعى ، اذ أن الحضـارة من الحضور ، والحضور مقصود به الحضور الى « المدينة » التى تنسب اليها « المدنية » والتى تعتبر مجتمعا للمهارات والخبرات ، وللعـــلوم والفنون ، ولذلك كانت الحضارة والمدنية تعنيان إيضا « العمران » .

وهـذا العمران يعنى ارتفاع مستوى الحياة ، وهـذا الارتفاع فى مستوى الحياة لابد أن ينعكس على السلوكيات والاخلاق تتكون أرقى ، ولذلك كان المتحضر او المتمدن Civilised أيضا : هو الانسان « المهذب ».

وكان « التحضر » أو « التمدين » To Civilise معناه « التغيير من حالة البداوة ، وتعليم الاخـــلاق والسلوكيات والعـــادات والقوانين الطيبة ، وكذا تعليم العلوم والفنون » و « نقل الانسان من حالة البربرية أو البدائية أو التخلف الى التنوير » (٢٢) .

وهناك من خصص « المدنية » بالجانب المادى للحضارة كتشـــييد المدارس ، واقامة المؤسسات ، والحدائق ، والاسلحة ... وكل المبتكرات

---

(٢١) انظر ابن منظور : لسان العرب ـ مادة مدن ـ ج ٦ ص ٤١٦١ ، المعجم الوسيط ج ٢ ص ٨٦٥ ـ مجمع اللغـة العربيـة بالقاهرة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م .

(٢٢) انظر د. عبد الغنى عبود : الحضارة الاسلامية والحضارة المعاصرة ص ٢٢ ، ٢٣ ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ ١٩٨١ م ـ الطبعة الأولى .

المادية الملموسة للحضارة فهذا الجانب هو « المدنية » كما استقر عليه رأى الكثيرين (٢٣) .

معنى الثقافة وصلتها بالحضارة :

الثقافة فى اللغة هى « التهذيب ، والصقل ، والحذق » .

يقال : ثَقِفَ الشيء ثَقْفاً ـ وثقافاً ـ وثُقُوفة « حَذَقَه » ـ ورجل ثَقْفٌ ، ثَقِفٌ ، ثَقُفٌ : « حاذق فَهِم » .

ويقال : ثقف الرمح « أى قومه وسواه » ـ وثقفته : بالتثقيف « أقمت المعوج منه » و « ثقف العلم والصناعة » أى حذقهما وصارت « الثقافة » تعنى : « العلوم والمعارف والفنون التى يطلب الحذق فيهما » .

وهكذا تطلق « الثقافة » فى اللغة العربية على معانى التقويم ، والحذق ، والتكيف ، والتهذيب (٢٤) .

ويرى بعض المفكرين : أن « الثقافة » و « الحضارة » بمعنى واحد (٢٥) .

---

(٢٣) أنظر د. سليمان حزين : بحث مقومات الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٩ من كتاب التوجيه الاجتماعى فى الاسلام ـ من بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الاسلامية بالقاهرة ـ أصدره عام ١٣٩١هـ/ ١٩٧١ م ، محمد خلف الله أحمد : بحث أثر الحضارة الاسلامية فى رقى البشرية وسعادتها ـ نفس الكتاب السابق ص ٣٣ ، ٣٤ ، توفيق محمد سبع : قيم حضارية فى القرآن الكريم ج ١ ص ٣٩ ، ٤٢ .

(٢٤) أنظر الجوهرى : الصحاح ـ مادة ثقف ـ ج ٤ ص ١٣٣٤ ، ابن منظور : لسان العرب ج ١ ص ٤٩٢ ، ٤٩٣ ؛ المعجم الوسيط ج ١ ص ٩٨ .

(٢٥) ول ديورانت : قصة الحضارة ج ١ « نشأة الحضارة » ص ٩ ـ ترجمة د. زكى نجيب محمود ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٤٩ م .

بينما يرى الآخرون : أن « الثقافة » تشمل الجانب الروحى أو المعنوى فقط من الحضارة ـ أى أنها تشمل كل ما يتصل بالروح ، والفكر ، والعقل ، والذوق ، والمشاعر ، والعواطف ... ـ فهى حصيلة الانسانية فى هذه المجالات كلها .

أى أنها تشمل انماط الحياة الانسانية وأسلوبها فى المعرفة روحيا ، وفكريا ، ولغويا ، وأدبيا .

وعلى هذا تتلاقى شعوب وأمم على تراث فكرى وروحى وفنى واحد فتكون بينها « وحدة ثقافة » .

وقد تنفرد أمة عن أخرى فى نمط ثقافتها ومعرفتها وفلسفتها وفنها (٢٦) .

وبمعنى آخر نقول : الثقافة بالنسبة للفرد مرادفة (للشخصية) .

والثقافة بالنسبة للمجتمع مرادفة (للشخصية القومية) التى يتميز بها هذا المجتمع عن غيره من المجتمعات (٢٧) .

فثقافة شعب هى طريقته الخاصة به فى الحياة ، بكل ما تضمه حياة الشعب من تفاصيل تتصل بالطعام ، والشراب ، والمسكن ، والأثاث ، والفرش ، والأقاصيص والأمثال والحكم ، وتنظيم الأسرة ، وعلاقة

---

(٢٦) أنظر د. سليمان حزين : بحث مقومات الحضارة الاسلامية من « كتاب التوجيه الاجتماعى فى الاسلام » ج ١ ص ١٩ ، محمد خلف الله أحمد : بحث أثر الحضارة الاسلامية نفس الجزء السابق ص ٣٣ ، ٣٤ ، توفيق محمد سبع ، قيم حضارية فى القرآن الكريم ج ١ ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٢٧) أنظر د. عبد الغنى عبود : الحضارة الاسلامية ص ٢١ .

أفرادها بعضهم ببعض أو علاقتهم بالمجموع ... فكل هذا يمكن أن نسميه أسلوب الشعب فى الحياة (٢٨) .

أى أن الثقـافة : هى ذلك النسيج الكلى المعقـد من الأفكـار ، والمعتقدات ، والعادات ، والتقاليد ، والاتجاهات ، والقيم ، وأساليب التفكير ، والعمل وانماط السلوك (٢٩) .

وهذه الثقافة تتكون للشعب على مر الأجيال ، وهى تنبع من طبيعته الخاصة به ، وظروف البيئة ، وتجاربه فى الحياة ، وعلاقاته مع غيـره من الأمم ، وهكذا فالشعب لا يصنع ثقافته واعيا ، وانما هى تصنع وتتكون من تلقاء نفسها اثناء تجارب الشعب الطويلة فى الحياة (٣٠) .

وهذا الرأى الذى يفرق بين « الثقافة » و « الحضارة » مال اليـه الباحثون العرب .

حيث اطلقوا « الثقافة » على الجانب الفكرى من الحضارة ، وفرقوا فى استعمال الكلمة الأوربية المترجمة لكل من الحضارة والثقافة .

فاطلقوا كلمة Culture على الثقافة .

وكلمـة civilisation على الحضارة .

فكلمة « الثقافة » بذلك تقابل كلمة « المدنية » التى تعنى الجانب المادى من الحضارة كمـا ذكرنا من قبل .

وفى ضوء ما مضى نستطيع أن نقـول باختصـار ان المدنيـة ، الثقافة معا هما جناحا الحضارة ، فنحن نريد من كلمـة « حضـارة »

---

(٢٨) د. حسين مؤنس : الحضارة ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ .
(٢٩) د. الدمرداش سرحان ، د. منير كامل : المناهج ص ٤٨ ، ٤٩ - دار العلوم للطباعة - القاهرة - ١٩٧٢ م .
(٣٠) د. حسين مؤنس : الحضارة ص ٣٧٧ .

الحصيلة الشاملة للمدينة والثقافة ، وهى مجموع الحيـاة فى صورتيها المادية والمعنوية •

فاذا قلنا ان هذا المجتمع متحضر فمعناه : أنه قـد حذق الوانا من المعارف ــ ثم ترجمها بالعمل الى واقع ملموس •

فالمعرفة النظرية « الاكاديمية » هى الثقافة ، وترجمة هــذه المعرفة الى واقع ملموس فى الحياة هى المدنية •

وقد تنحرف الحضارة عن الطريق السوى فلا تاخذ سمت التكامل ــ فتكون ذات طابع مادى ــ أو ذات طابع نظرى ــ وكلتاهما صورة مشوهة للحضارة الصحيحة التى يجب أن تعبر عن فطرة الانسان مادة وروحا كما خلقه الله (٣١) •

عنـاصر صنع الحضـارة :

هناك عناصر (٣٢) لابدمن توافرها لكى توجـــد « الحضارة » ، وابرز هذه العناصر ما يلى :

١ ــ الانسان هو محور اى حضارة : وهو صاحب التفاعل بما يملك من أنشطة ، وقدرات عقلية جسـدية وروحية توجهـا مجموعة المفاهيم والتصورات عن الحياة •

والناس سواء فى صنع الحضارة ، ومن ثم فلا صــحة للنظرية التى

---

(٣١) أنظر توفيق محمد سبع : قيم حضـارية ج ١ ص ٤٣ ، ٤٤ ، د• سليمان حزين : مقومات الحضارة الاسـلامية من كتاب التوجيـه الاجتماعى فى الاسلام ج ١ ص ١٩ ، محمد خلف الله أحمد : أثر الحضارة الاسلامية الكتاب السابق ص ٣٤ ، ٣٥ •

(٣٢) أنظر محمد على ضناوى : الحضارة الاسلامية بين التحدى والتعطيل ص ٤٨٩ ، د• حسين مؤنس : الحضارة ص ١٧ •

تقول بتفوق جنس على آخر ، وان الجنس هو الدافع الحضارى ، وان بعض أجناس البشر تصعد وتتقدم بسبب أن جنسها مهيأ للتقدم ، بينما لا تتمتع أجناس أخرى بمواهب كافية للتقدم فتبقى عند حالات البدائية او الركود ٠

ان نظرية الاجناس هذه شائعة عند معظم الامم فى الاعصر القديمة والوسطى ولاتزال قائمة عند أوربا التى تقول بتفوق الجنس الآرى ٠

كذلك نعرف أن اليهود يعتبرون أنفسهم « جنس الله المختار » ، وان أرواح اليهود جزء من الله ، وان الفرق بين درجة الانسان والحيوان هو بمقدار الفرق بين اليهودى وغير اليهودى (٣٣) ٠

كما أنه لا صحة لمقولة تفوق اللون الابيض وركود اللون الاسود وعدم قدرته على التقدم ٠

٢ - الحضارة تظهر مع الجماعة الانسانية : أى أن الفرد وحده لايوجد حضارة ، والتجمع الذى ينشأ عنه التعاون والتآزر وتبادل الافكار والمعلومات بين الجماعة هو الشرط لايجاد الحضارة ٠

٣ - المكان والبيئة : التى يجرى فيها التفاعل بين الانسان وهذه البيئة لكى يستفيد الانسان من خيراتها ٠

---

(٣٣) أنظر الموسوعة الميسرة فى الاديان والمذاهب المعاصرة ص ٥٧١ ، ٥٧٢ - أصدرتها الندوة العالمية للشباب الاسلامي بالرياض - الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م - ولمزيد من التعرف على اليهود ومعتقداتهم وأفكارهم أنظر كتاب « خطر اليهودية العالمية على الاسلام والمسيحية » لعبد الله التل ، وكتاب « تاريخ بنى اسرائيل من أسفارهم » لمحمد عزه دروزة ، كتاب « اليهودية » للدكتور أحمد شلبى ، كتاب « اليهود فى تاريخ الحضارات الاولى » لغوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر ٠

٤ ـ **الزمن** : عنصر اساسى فى حساب تفـاعل الأنشطة وتحسن الوجود الحضارى : فالثمرات الحضارية تحتاج الى زمن لكى تطلع ، وكما ان ثمر المزروع والاشجار لا يطلع الا بفعل الزمن اذ لا يمـكن أن تزرع وتحصد ثمرة ما فى نفس الوقت ـ فان ثمار الحضارة لا تظهر الا باضافة الزمن الى جهد الانسان (٣٤) •

عوامل قيـام الحضـارة :

ان نقطة البـدء فى قيام اى حضارة هو الانسان •

فهو الذى وقف ـ ويقف ـ وراء اية حضارة اذ أنه هو « الذى يبدع الحضـارة ، ويكتشف أسرار الطبيعة ، وخـواص العنـاصر ، ويصمم الآلات ، ويصنع الأجهزة ••• وبغير الانسان لا تعدو الأجهزة العصرية أن تكون آلات صماء » (٣٥) •

يضاف الى ذلك أن « الحضـارة ليست ذلك الكرسى الـذى نجلس عليه ، والقلم الذى نكتب به ، والاناء الذى نشرب فيه المـاء ، انما هى (الشخص) الذى يستعمل هذا وذاك لغرض خاص ، وعاطفة خاصة ، وروح لا تنفك عنه لأى لحظة من اللحظات » (٣٦) •

ومن ثم فمولد (الحضارة) فى أى مجتمع من المجتمعات يبدأ بمولد (انسان) ذلك المجتمع ـ ومعنى مولـد انسان ذلك المجتمـع هو أن

---

(٣٤) د• حسين مؤنس : الحضارة ص ١٣ •
(٣٥) د• عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) : الشخصية الاسلامية ـ دراسة قرآنية ص ١١ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٩٧٧ م ـ الطبعة الثانية •
(٣٦) محمد الحسنى : الاسـلام الممتحن ص ١٠٩ ـ المختـار الاسلامى للطباعة والنشر والتوزيع ـ ١٩٧٧ م ـ الطبعة الأولى •

(تتغير) الظروف من حول هذا الانسان بحيث تخلق في أعمـــاقه تلك (الايجابية) التى تدفعه الى (البناء) فتكون الحضارة (٣٧) .

وتبدأ خطوات الانسان نحو الحضارة عنـــدما تتهيأ امامه الأجواء الملائمة التى تحرر نفسه من الاضطراب والخوف والقلق ، وتشيع فى حياته جو الأمن والطمانينة ، ومن ثم تنطلق طاقاته ، وتتفجر مواهبه ، وتندفع فيه روح الخلق والابداع ، والانجاز والعطاء الحضارى .

وهناك عوامل بلا شك تساعد الانسان على قيام الحضـــارة وتؤدى الى ازدهارها ، ومن أهم هذه العوامل (٣٨) ما يلى :

١ ـ العوامل الجيولوجيـة :

وهى ذات أثر كبير يعتد به فى الحضارة ، فقد تزدهر الحضارة فى اقليم من الاقاليم ، وفيما هو كذلك ينعم بمتع الحياة اذا به يفاجأ بزلزال شديد يقضى على كل ما فيه ، ولذلك فالمناطق التى تتعرض كثيرا للزلازل أو البراكين هى مناطق لا تصلح لقيام حضارة لأنها تصبح مهددة بالدمار والخراب بين لحظة وأخرى .

ومن هنـــا يتبين أثر العوامل الجيولوجيـة فى قيـــام الحضـــارة واستمرارها .

---

(٣٧) د. عبد الغنى عبود : الحضـارة الاسلامية والحضـــارة المعاصرة ص ٤٣ .
(٣٨) أنظر ول ديورانت : قصة الحضارة ج ١ ص ٣ ـ ٧ .

٢ - العوامل الجغرافيــة :

تؤثر العوامل الجغرافية بلا شك فى قيام الحضارة أو عدم قيامها ؛ فحرارة المناطق الاستوائية وما يجتاح تلك المناطق من طفيليات لا حصر لها لا تهيئ للحضارة اسبابها ، وكذلك وجود الماء أو عدمه فى منطقة من المناطق لأن الماء وسيلة الحياة ، وتربة الاقليم التى تجود بالطعام او المعادن ، وموقع الاقليم وسطحه ... الى غير ذلك من مميزات يتصف بها اقليم من الاقاليم مما يكون سببا من أسباب ازدهار الحضارة وتقدمهــا فى هذا الاقليم .

٣ - العوامل الاقتصــادية :

هذا العامل ضرورى أيضا لقيام الحضارة ، فالأمم التى تتوفر فيها الاقتصاديات المرتفعة هى أمم يتاح لها التقدم الحضارى ، فقد تكون قبيلة من قبائل البدو على درجة مرتفعة من الذكاء والاستعداد الحضارى ، ولكن عدم وجود موارد اقتصادية تطمئن أفراد القبيلة على مصادر القوت والماء يجعلهم يبددون طاقاتهم فى مخــاطر الصــيد وشن الغارات ... بحيث لا يبقى شىء لاستغلاله فى تحصيل الحضارة .

٤ - العوامل النفسـية :

ولابد لازدهار الحضارة من عوامل نفسية ، فيجب أن يسود النــاس نظام سياسى يشعر الناس فى ظله بالأمن والأمان ، ويبعدهم عن جو القلق والفوضى والاضطراب والخوف ، والا فلا يستطيع مجتمع أن يأخذ باسباب الحضارة وهو يعيش فى حالة من القلق والخوف .

٥ - العوامل الثقـافية :

ومن العوامل التي تؤثر في الحضارة وجود وحـدة لغوية مشتركة تكون وسيلة لتبادل الافكار والمعلومات والاراء ، كما تكون سببا فى وحدة مشاعر الامة وفكرها .

٦ - العوامل الدينيـة :

ومن الضرورى كذلك ان يكون بين الناس بعض الاتفاق فى العقائد الرئيسية ، وجانب من الايمان بما هو كائن وراء الطبيعة ، اذ ان ذلك يرفع الاخلاق من مرحلة توازن فيها بين نفع العمل وضرره ، الى مرحلة الاخلاص للعمل ذاته .

ولا شك ان لوحدة الدين اثرها فى حيـاة الشعب ووحدته ، فاذا اتحدت عقيدة شعب من الشعوب كان ذلك سببا فى وحدته ، وقوة الرابطة التى تجمع بين افراده ، اما اذا تعددت الاديان فى شعب فان ذلك يكـون سببا فى تمزقه وتفـرقه وتعصب كل فريق لدينه لاسـيما اذا تناقضت عقيدتان .

فمثلا لا يمكننا ان نعتقد بوحـدة شعب دولة ينقسم افـرادها الى قسمين :

قسم يعتنق دين الاسلام الذى يبيح ذبح البقر وأكله .

وقسم يعتنق مبادىء الهندوسية التى تحرم ذبح البقرة وتقدسها .

وكيف يمكن ان يكون بين الفريقين صيغة وفاق والتناقض بينهمـا يصل الى هذا الحد ؟ وهذا بلا شك يكون له أثر في مسيرة الحضارة ويعوق تقدمها للامام .

٧ ـ العوامل الأخـــلاقية :

كذلك لابد من قانون خلقى يسود الجماعة ، ويربط بينها حتى تكون هناك قواعد يرعاها المجتمع ، ويعترف بها حتى الخارجين عليها ، وبهذا يطرد سلوك الناس بعض الشىء وينتظم ويتخذ له هدفا وحافزا .

٨ ـ العوامل التربوية :

ولابد من تربية ـ أى نظام للتعليم ـ لكى تنتقل الثقافة والمعرفة على مر الأجيال من جيل الى جيل لأن هذا التراث هو الاداة التى تنتقل بها الحضارة من طور الى آخر .

عوامل انهيـــار الحضــارة :

لانهيار الحضــــارة عوامل هى عكس تلك العوامل التى تؤدى الى اطرادها وتطورها .

فاذا كانت الحضارة تولد حيث يولد الانسان متفائلا محبا للحياة متمسكا بها كما ذكرنا ، فأن الحضارة تنتهى حيث « ينتهى » ذلك الانسان بحلول التشاؤ م فى حياته محل التفاؤل ، ويضيقه بالحياة ضيقا يتمثـل فى ذلك (الانحلال) ، و (التحلل) من كل القيم الانسانية التى يحرص عليها أولئك الذين يحبون الحياة حقا (٣٩) .

وكذلك مما يساعد على انهيار الحضــارة وتقويض أساسها انقــلاب جيولوجى خطير ، أو تغير مفاجىء شديد فى المناخ ، أو وباء يفلت من الناس زمامه ، أو زوال الخصوبة من الارض ، أو استنفاد الموارد الطبيعية فى الوقود والمواد الخام ، أو ينشأ عن انتشار تعاليم بين الناس تجعلهم

---

(٣٩) د. عبود : الحضارة الإسلامية ص ٤٨ .

يتشاءمون أو يفقدون حماسهم للكفاح والعمل أو فقدان الموجهين الأكفاء والزعماء المخلصين ، أو تركز الثروة تركـزا ينتهى بالنـــاس الى حرب الطبقات والثروات الهدامة ، ... أو ما شاكل ذلك مما يؤدى الى انهيار الحضارة وفنائها .



الفصل الثانى

الحضارة الاسلامية وارتباطها بالاسلام

تعريف الحضارة الاسلامية :

الحضارة الاسلامية : هى كل انتاج روحى أو مادى ينسب الى الشعوب التى دخلت فى الاسلام ، وتشربت الحياة الاسلامية (١) .

فهى حضارة قامت على أساس رسالة سماوية هى الاسلام ، ومن هنا كانت أسس تعاليمها الكبرى مأخوذة من القرآن الكريم ، ومن أقوال الرسول وأعماله . انها حضارة الهية فى منهجها ، وفى وجهتها ، وفى تصورها ، وفى خط سيرها .

يأخذ الانسان المسلم منهج ربه ، ويمضى بانيا للحياة ، مشيدا لعمرانها ، متفاعلا مع الكون ، ماضيا معه فى رحلة ميمونة مباركة قوامها الاستطلاع والاستكشاف والبناء ، بالجهد والعرق ، واستثمار المعرفة ، وصداقة عناصر الوجود ، وبذلك يؤدى المسلم رسالته فى الحياة ، ويكون خليفة الله فى أرضه(٢) .

---

(١) د. حسن أحمد محمود : مقال نظرات فى تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٣٠ ـ مجلة منبر الاسلام ـ يصدرها المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة ـ عدد جمادى الثانية ١٣٨٠ هـ / نوفمبر ١٩٦٠ م .

(٢) انظر محمد خلف الله أحمد : اثر الحضارة الاسلامية ص ٣٥ ، د. سليمان حزين : مقومات الحضارة الاسلامية ص ١٩ ، ٢٠ ، توفيق سبع : قيم حضارية ج ١ ص ٣١ ، ٣٢ .

الى أى مدى امتدت الحضارة الاسلامية ؟

الحضارة الاسلامية من أوسع الحضارات انتشارا ، لأنها توغلت مع الاسلام فى كل فج انتهى اليه :

فهى تمتد شرقاالى بلاد أندونيسيا ، والملايو والصين ، وشمالا الى بلاد القوقاز ، ثم هى تخترق الصحراء الكبرى منتشرة فى غرب افريقية ، ثم تزحف شرقا الى السودان والحبشة وشرق افريقية لتوغل جنوبا حتى زنجبار بل وتتجاوزها الى مدغشقر(٣) ؛

ومن المعلوم أن المسلمين فى صراعهم الطويل خسروا مواطن كانت لهم فيها صولات وجولات ، وأرضا كانت لهم فيها حضارات وذكريات . فقد خسروا الأندلس ، وصقلية ، ومعظم جزائر البحر المتوسط (٤).

الحضارة الاسلامية حضارة فريدة فى التاريخ :

اننا لا نبالغ ولا نتجاوز الحقيقة اذا ما قلنا ان الحضارة الاسلامية حضارة فريدة ومتميزة فى التاريخ الانسانى ، وانها حضارة اقتربت من المثالية والكمال .

وذلك لأنها حضارة شاملة مستوعبة ، شملت الانسان مادة وروحا ، كما استوعبت عالم الدنيا وعالم الآخرة .

وهذه الحقيقة تظهر وتتأكد عندما نشير الى ابرز الحضارات التى ظهرت فى التاريخ لنرى ان هذه الحضارات انحرفت دائما ، فهى مرة تنحرف الى جانب الروح لتهمل عالم الحس والمادة - ومرة تنحرف الى

---

(٣) د. حسن محمود : المرجع السابق نفس الصفحة .
(٤) انظر د. حسين مؤنس : الاسلام الفاتح ص ٣ سلسلة دعوة الحق - تصدرها رابطة العالم الاسلامي - مكة المكرمة - عدد رقم ٤ رجب ١٤٠١ هـ ؛

جانب المادة والحس لتهمل جانب الروح ، وهذه لمحات سريعة تشير الى ذلك :

حضـارة مصر القديمـة :

تميزت حضارة المصريين القدماء بطابع عقيدتها فى خلود الروح ، والايمان بحياة أخـرى بعد الموت ، فيها جزاء النعيم للاخيار ، وجـزاء العذاب والخزى للاشرار .

وقد اثرت هذه العقيدة تاثيرا واضحا فى مظاهر الحضارة المصرية جميعا سواء فى مظاهر الحضارة المادية والعمرانيـة ، او فى مظاهرها الاجتماعية (٥) .

حضـارة العـراق القديمـة :

وكانت حضارة العراق القديمة تتميز بانهـا واقعيـة ، جذورها فى الأرض وليس للروح فيها نصيب واضح ، كانت حضارة قائمة على تبادل المنافع فى داخل البلاد ومع الامم الاخرى .

وكان اقتناص الفائدة أو المتعة هو القصد من الحياة التى لا حياة بعدها فى الآخرة .

وقد اثرت هـذه العقائد فى حضارتهم فكانت واقعيـة فى تفكيرها واتجاهاتها فابدعت فى ميادين التشريع والرياضة والفلك وسائر ما يخدم الناس فى حياتهم الواقعية (٦) .

---

(٥) انظر محمد فريد أبو حديد : أمتنا العربية ص ١٧٠ ، ١٧١ ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ م .

(٦) انظر محمد فريد أبو حديد : نفس المرجع ص ١٧١ .

حضارات الشرق الأقصى :

أما حضارات الشرق الأقصى فى الهند والصين - فقد قامت على أساس ديانتين كبيرتين انتشرتا فى معظم أجزاء الهند والصين وهما البوذية ، والهندوكية .

وكلاهما تتميز بالاتجاه الروحى المعارض أشد المعارضة للاتجاه المادى ، فالانسان فى مفهوم الديانتين ينطوى على عنصرين فى حياته وهما عنصر الجسد وعنصر الروح .

فالروح هو الجوهر الخالد ، والجسد عرض فان لا يستحق العناية ولا الرعاية ، ولا يمكن أن ترقى الروح الا اذا تجردت من قيود البدن والحواس والميول .

فاذا استطاع الانسان أن يتحكم فى جسده فيخمد حواسه ، ويكبت ميوله الى أن يقضى عليها ، أمكن لروحه أن تصل الى عالم السعادة الأبدى وهو عالم فناء روح الفرد فى الروح العالمى الشامل .

وأما اذا لم يتمكن الانسان من ذلك فان روحه لن تستطيع الرقى الى مرتبة الاتصال بروح الوجود الشامل (٧) .

ومن هنا كانت هذه الحضارات تسعى الى تطهير الروح بتعذيب الجسد وايلامه واحتقار مطالبه ، وقد وصلت عن طريق ذلك الى درجات عالية من الشفافية الروحية تصنع أحيانا ما يشبه المعجزات ، ولكنها فى الوقت ذاته أهملت واقع الحس القريب وأهملت التقدم المادى .

---

(٧) محمد فريد أبو حديد : أمتنا العربية ص ١٧٢ .

وغرق القسم الأكبر من الشعب في ظلمات الجهل والفقر والتاخر المادي والعقلي والصحي والاجتماعي (٨) .

وليس في هذا غرابة فان هذه العقائد والديانات على ما فيها من قواعد اخلاقية ، وروح انسانية وسلمية ، لم تقم ولا يمكن أن تقوم على اساسها حضارة انسانية متقدمة من الناحية المادية (٩) .

حضـارة اليـونان :

وكانت الحضارة اليونانية القديمة تقدس العقل وتقدس الجسد على حساب الروح .

واذا أردنا أن نتعرف على طبيعة الحضـارة اليونانيـة وخصائصها فسوف نجد أن ابرز هذه الخصائص يتمثل فيما يلي (١٠) :

١ ـ الايمان بالمحسوس وقلة التقدير لما لا يقع تحت الحس .

٢ ـ قلة الدين والخشوع .

٣ ـ شدة الاعتداد بالحياة الدنيا والاهتمام الزائد بمنافعها ولذائذها .

٤ ـ النزعة الوطنية .

ومما يؤكد الاتجاه المادي في تلك الحضارة ، أنهم لم يستطيعوا أن يتصوروا صفات الله وقدرته الا على شكل آلهة شتى نحتوا لها تماثيل ، وبنوا لها معابد وهياكل ، فللرزق اله ، وللرحمة اله ، وللقهر اله ...

---

(٨) محمد قطب : المجتمع الاسلامي المثالي وخط الانحراف والغزو الفكري في البلاد الاسلامية . ص ٥١ بحث ضمن كتاب « الثقافة الاسلامية » أصدرته جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة ـ ١٣٩٦ هـ .

(٩) محمد المبارك : المجتمع الاسلامي المعاصر وواقع انحرافاته والمؤثرات التي أثرت فيه . ص ٩٦ ـ بحث ضمن الكتاب السابق .

(١٠) أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٧٦ ـ دار الانصار ـ القاهرة ـ ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ـ الطبعة العاشرة.

ثم نسبوا اليها كل ما يختص بالجسم المادى ، ونسجوا حولها نسائج من أساطير وخرافات ، واعتبروا أن لهذه الآلهة خصائص البشر من تقلب الاهواء والكيد والتنافس ، ولهم درجات كالبشر بعضها فوق بعض ، والأرض هى مجالهم مع الانسان والحياة الفانية هى حظ الناس من الوجود .

وأما الحياة الأخرى فهى الحياة التحتانية ، الغامضة التى يسودها النسيان ، فالحياة الدنيوية عند اليونان هى مجال القوة والجمال ، وفرصة الحب والسعادة ، والآلهة تشاطر الناس مباهج الاعياد ، وتطلق لنفسها العنان مع الناس ليصيبوا ما يتهيأ لهم من المتعة واظهار القوة .

وكان المثل الكامل عند اليونانيين هو الجسم الجميل المتناسب وليس هذا الا اعتدادا بالمحسوسات اعتدادا كبيرا .

كما كانت عنايتهم بالرياضة البدنية ، والالعاب الرياضية والرقص وغيره (١١) .

وقد لاحظ كثير من العلماء الاوربيين رقة الدين فى اليونان ، وقلة الخشوع والجد فى أعمالهم ، وكثرة اللهو والطرب فى حياتهم ، حتى لقد عبر أحد الغربيين (١٢) عن هذا المعنى بقوله « ان المصريين كانوا يعظمون آلهتهم بالتضرع والبكاء ، وكان اليونانيون يعظمون آلهتهم بالرقص والغناء » .

ثم يقول « ولا نعلم دينا من الأديان يزاحم دين اليونان وتقاليده

---

(١١) انظر الندوى : ماذا خسر العالم ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، محمد أبو حديد: أمتنا العربية ص ٧١ ، ٧٢ .
(١٢) ليكى فى كتابه « تاريخ أخلاق أوربا » ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥ نقلا عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٧٨ .

فى كثرة الأفراح والأعياد والألعاب وفى قلة الخشية والخشوع » .

وهكذا لم يكن فى عقائدهم ما يحجر على الناس أو يقيد حرياتهم ، وكان لهذا كله أثر واضح فى حضارة اليونان المادية ، كما كان له أثر فى فنونهم ومذاهبهم الفلسفية ...

حضـارة الرومـان :

وكانت الحضارة الرومانية تعنى عناية فائقة بواقع الحس القريب ، فانشات حضارة مادية رائعة .

فهناك مدن عظيمة ، وشوارع نظيفة مستقيمة ، وبيوت يراعى فيها جمال العمارة ، وتيسير الحياة من ماء جار ، وبالوعات ، وطرق للنقل عبر الامبراطورية ، وهناك تنظيمات تنظم مرافق الحياة كلها ...

وكل ذلك جميل ولكنه على حساب الروح فليس فى هذه الحضارات اتجاهات روحية توازن المتاع الجسدى وترفع الانسان من الانحصار فى واقع الحس القريب (١٣) .

لقد تاثر الرومان بالاغريق فى الأخـلاق والســجايا والعشرة وفى العواطف والنزعات ، وفى كل ناحية من نواحى الحياة العامة .

وهكذا انتقلت الفلسفة اليونانية ، والثقافة اليونانية ، بل النفسـية اليونانية الى الروم ، وجرت منهم مجرى الروح والدم ، ولم يكن الروم ـ بطبيعتهم الأوربيــة ـ يختلفون عن اليونان فى الخصائص الفطـرية كثيرا .

بل هناك شبه عظيم بين الأمتين ـ ايمان بالمحسوس ، وغلو فى تقدير

---

(١٣) محمد قطب : المجتمع الاسلامى المثالى ص ٥١ ، ٥٢ .

الحياة ، وشك في دين ، وضعف في يقين ، واضطراب في العقيدة ، واستخفاف بالنظام الديني وطقوسه ، واعتزاز بالقومية وتعصب لها ، وحب مفرط للوطن ، زد الى ذلك كله اعتدادا بالقوة واحتراما زائدا لها يبلغ العبادة والتقديس (١٤) .

ويؤكد التاريخ انه لم يكن للرومان ايمان راسخ في دينهم ، حتى لقد عبر عن ذلك أحد الغربيين « ان الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم في المعابد ، ويهزأون بهم في دور التمثيل » (١٥) .

والظاهرة التي يمتاز بها الروم من بين امم الارض المعاصرة بل بعدها ، والتي أصبحت لها دينا تدين به وشعارا تعرف به هي روح الاستعمار ، والنظر المادي البحت الى الحياة .

وحتى عندما تنصر الروم واعتنق قسطنطين النصرانية ، لم يحدث تغير يذكر في أخلاق الرومان ومعتقداتهم وأفكارهم ، وذلك لان الوثنية الرومية مسخت دين المسيح ، ومسخه أهله ، بل وكان اكثر مسخا له وتحريفا هو قسطنطين نفسه حامي ذمار النصرانية ورافع لوائها .

ولم تستطع هذه النصرانية الملحقة بالوثنية المشوهة التي فقدت روحها وجمالها أن تغير من سيرة الروم المنحطة ، وأن تبعث فيهم حياة جديدة ، حياة دينية نقية طاهرة ، وأن تفتح عهدا زاهرا في تاريخ الروم .

بل انها ابتدعت رهبانية لعلها كانت شرا على الانسانية والمدنية من بهيمية روما الوثنية ، وقد جن جنون هذه الرهبانية في العالم النصراني ، وتخطى حدود القياس (١٦) .

---

(١٤) أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم ص ١٨١ .
(١٥) انظر الندوي : المرجع السابق ص١٨٢ .
(١٦) انظر الندوي : ماذا خسر العالم ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

وهكذا أمست الحضارة الرومانيـة بين مادية جامحة ، ورهبـانية عاتية ، وكان ماكان من التنافس الحاد والعنيف بين البابوية والإمبراطورية بعد ذلك ، وقد انتصرت فيه البابوية أولا - وكان ما كان من جناية رجال الدين على كتبهم الدينية المقدسة ، ودس معلومات بشرية على أنها حقائق دينية مقدسة ، وما ترتب على ذلك من اضطهاد الكنيسة للعلم ، والصراع بين الدين والعلم ، وما تمخض عن هذا الصراع فى نهاية الأمر بأن أصبح كل منهما يسير فى اتجاه مختلف عن اتجاه الآخر مما كرس اتجاه الغرب الى المادية ، وسيطرة هذه النزعة عليها فى كل مسلك من مسالكها (١٧)٠

الحضـارة الحديثـة المعـاصرة :

اذا ما تركنا الحضارات القديمة التى ظهرت قبل الاسلام بعـد أن أشرنا اليها اشارات سريعة تعرفنا من خلالهـا على أهم خصائصهـا التى تمثلت فى جنوح بعضها الى جانب الروح واهمال المادة ، وجنوح البعض الآخر الى المادة واهمال الروح ٠

وحاولنا أن نشير الى الحضارة الحديثة المعاصرة لنتعرف أيضا فى عجالة سريعة على أهم خصائصها فسوف ندرك أيضا أن الحضارة الحديثة المعاصرة اهتمت هى الأخرى بجانب واحد فقط هو جانب المادة - دون أن تهتم الاهتمام نفسه بجانب الروح ٠

---

(١٧) انظر الندوى : المرجع السابق ص ١٨٦ - ١٩٨ وعن هذا الموضوع انظر أيضـا سفر بن عبـد الرحمن الحوالى : العلمـانية نشأتها وتطورها وآثارها فى الحيـاة الاسلامية المعاصرة - البـاب الأول والثانى - دار مكة - أصدرته جامعـة أم القـرى - مركز البحث العلمى واحياء التراث الاسلامى - ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م - الطبعة الأولى ٠

فلسفة الحضـارة المعاصرة :

ان الحضارة الأوربية المعاصرة هى فى الواقع امتـداد لفكر وفلسفة كل من الحضارة اليونانية والرومانية القديمة ...

فالحضارة المعاصرة حضـارة مادية ، ارتقت بالآلات وبالجـوانب المادية من الحياة ، حتى أن العقل فيهـا ليس الا أداة لاكتشاف العـالم المادى ، ثم للانتاج الصناعى ، والرقى الآلى .

وليست غاية الحياة فى هذه الحضارة الا اللذة المادية ، والرفاهية ، واشباع الشهوات ـ سواء تمتع بهذا أفراد أو طبقة فى النظام الرأسمالى أو الجمهورى ، أو الشعب ـ حسب زعمهم ـ فى النظام الاشتراكى .

أما الجانب الانسانى والخلقى والروحى فليس له اعتبار فى الحضارة المعاصرة ، ولذلك يقى الانسان فى الحضارة المعاصرة متدنيا ومنحطا من ناحية العواطف الانسانية والضمير الخلقى (١٨) .

ان الحضارة المعاصرة أمست جاهلية مـادية ، تجردت من كل مـا خلفته النبوة من تعاليم روحيـة ، وفضائل خلقية ، ومبادىء انسانية ، وأصبحت لا تؤمن فى الحياة الشخصية الا باللذة والمنفعة المادية ، وفى الحياة السياسية الا بالقوة والغلبة ، وفى الحياة الاجتماعية الا بالوطنية المعتدية ، والقومية الغاشمة .

لقـد ثارت على الطبيعة الانسانية ، والمبـادىء الخلقية ، وشغلت بالآلات ، واستهانت بالغايات ، ونسيت مقصد الحياة(١٩) .

---

(١٨) أنظر محمد المبارك : المجتمع الاسلامى المعاصر ص ٩٧ .
(١٩) الندوى : ماذا خسر العالم ص ٢٧٩ .

يؤكد هذا ما نراه من اباحية وتحلل خلقى ، وأثرة وانانية ، وتكالب على الحياة الدنيا وزخرفها ، وتسخير العلم والمؤسسات العلمية لهذه الغايات .

ويؤكد هذا ما يفعله الساسة فى أوربا ، وأمريكا ، والاتحاد السوفيتى ... فيما يتعلق بمصالحهم المادية ، ومنافعهم السياسية ، وما يمكن أن يفعلوه بالآخرين من قتل ، واضطهاد ، وظلم ، واذلال فى سبيل تحقيق هذه الأهداف .

ان هذا موضوع يطول فيه الحديث لو فتحنا صفحاته ، وحاولنا قراءة هذه الصفحات فتاريخ الاستعمار الأوربى فى العالم الجديد ، وفى آسيا ، وفى افريقيا فى العصور الحديثة ، بل وما يحدث الآن فى كل مكان من ديار الاسلام فى فلسطين ، وفى أفغانستان ، وفى كشمير ، وفى اريتريا ... وكيف أن هذه الأحداث فى معظم أحوالها تحركها أيادى الساسة الكبار من أدعياء الحرية ومتشدقى الشعارات فى أوربا وأمريكا وروسيا ...

حقا انه لحديث ذو شجون ، وانها لصفحات سوداء ، تحكى من المظالم والمغارم ، ومن البلايا والرزايا ، ما يسود له وجه الحضارة المعاصرة خزيا وعارا وسوف يكون التوسع فى هذا الحديث موضوع دراسة اخرى قريبة ان شاء الله ...

تفرد الحضارة الاسلامية وتميزها :

وسط كل الحضارات القديمة والحديثة التى أشرنا اليها ... تبدو الحضارة الاسلامية حضارة فريدة ومتميزة فى التاريخ .

وذلك لانها جاءت حضارة شاملة متوازنة - تأخذ فى حسابها عالم

المادة ؛ وعالم الروح ـ عالم الدنيا وعالم الآخرة ـ عالم المحسوس وعالم ما وراء الحس القريب .

أجل تلك هى الحضارة الاسلامية التى سنتحدث عنها ، ونتعرف على حقائقها فى هذه الدراسة وهنا نتساءل ....

ما الذى ميز الحضارة الاسلامية واعطاها خصائصها المتميزة فى التاريخ ؟

والاجابة على هذا السؤال هى أن الحضارة الاسلامية قامت على أساس دين الهى ـ هو الدين الاسلامى ـ وعلى أساس منهج ربانى مفصل فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

وهو منهج شامل لكل مناحى الحياة ، ومتوازن فى ذات الوقت ، يعطى كل جوانب الحياة حقها من الرعاية ، ويعطيها القدر المناسب لها فلا يطغى منها جانب على جانب ، ولا يهمل منها جانب على حساب جانب آخر .

وقد حقق هذا المنهج الربانى العظيم ـ عندما تمسك به المسلمون ـ حضارة فريدة متميزة لا نظير لها فى دنيا الحضارات قديما وحديثا .

أجل ان الذى ميز الحضارة الاسلامية وأعطاها خصائصها الفريدة فى التاريخ ـ أن الأساس الذى قامت عليه هذه الحضارة هو الاسلام ... فالاسلام هو الأصل الأصيل ، والركن المتين الذى قامت عليه هذه الحضارة فى مفاهيمها ، وفلسفتها ، وسلوكياتها ، وقيمها ...

ولا شك أن الاسلام قد استوعب الحياة طولا وعرضا وعمقا ، وجاء ليكون دين الله الصالح لكل زمان ومكان .

ولكى نزيد الأمر وضوحا نلقى الضوء على الدين الإسلامى باعتباره هو الأساس المتين والأصل المكين للحضارة الاسلامية ٠

الدين الاسلامى هو أساس الحضارة الاسلامية :

لقد قامت الحضارة الاسلامية على أساس الدين الاسلامى ٠

ولم يكن الاسلام أبدا مجرد عقيدة وطقوس تؤدى بالمعنى الضيق للمصطلح ، وانما هو أسلوب للحياة بكل معانى الكلمة ، ولذلك فقد صبغ الحياة الاسلامية كلها بصبغة واضحة ، متميزة ، وقد جاء الاسلام وافيا بحاجات البشر ، فالله هو مبدعه ، وهو أعلم بمن خلق ٠

لقد جاء النظام الاسلامى كاملا صالحا لكل زمان ومكان ؛ فصانعه هو صانع الزمان والمكان ، وهو خالق البشر فى كل الأجيال ، ولذلك جاء الاسلام مستوعبا لكل قضايا الانسان ، مشتملا على كل ناحية من نواحى الحياة ٠

ونظرة سريعة الى ملامح هذا الدين تؤكد لنا هذه الحقيقة ، فقد اشتمل الإسلام على كثير من الأصول ، والتشريعات ، والأحكام التى تناولت شتى نواحى الانسان ، ومجالات الحياة ويمكن تلخيصها فيما يلى :

١ ـ العقائد :

وتتمثل فى الايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقضاء والقدر خيره وشره ، حلوه ومره (٢٠) ٠

---

(٢٠) عن هذا الجانب أنظر : محمد عبده فى كتابه « رسالة التوحيد » ، محمد الغزالى « عقيدة المسلم » ، سيد سابق « العقائد الاسلامية » ، عبد الكريم الخطيب « القضاء والقدر بين الفلسفة والدين » ، د٠ محمد أبو زهرة « العقيدة الاسلامية » ٠

٢ - العبادات :

وهى ما شرعه الله تعالى لتنظيم علاقته بخلقه وتشمل الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ... الخ (٢١) .

٣ - المعاملات :

وهى الاحكام التى تنظم علاقات الناس ببعضهم ، وتقيم الروابط بينهم على العدل والرحمة والتعاون والمحبة ، ورفع أسباب الضرر والعدوان ، واجتلاب الخير والمنفعة للناس جميعا ويدخل فى ذلك نوعان :

المعاملات المدنية : من بيع ، واجارة ، ورهن ، وشركة . الخ (٢٢).

الاحوال الشخصية : من زواج ، وطلاق ، وعدة . الخ (٢٣) .

٤ - الاخلاق :

ان العنصر الاخلاقى عميق فى بناء المجتمع الاسلامى ، وقد دعا

---

(٢١) عن جانب العبادات انظر : محمد اسماعيل عبده « العبادات فى الاسلام » ، د. أحمد الغندور « العبادات فى القرآن والسنة » ، سيد سابق « فقه السنة » المجلد الاول ، مجموعة من العلماء « الفقه على المذاهب الاربعة - قسم العبادات » - أصدرته وزارة الاوقاف المصرية .

(٢٢) لمزيد من التفصيل انظر : أحمد أبو الفتح : « المعاملات فى الشريعة الاسلامية » ، د. يوسف موسى « الفقه الاسلامى - مدخل لنظام المعاملات » ، أحمد عبد الحميد المغربى « المعاملات فى الاسلام » ، د. عز الدين فراج « المعاملات بين الناس فى الاسلام » .

(٢٣) عن هذا الموضوع انظر : د. يوسف موسى « أحكام الاحوال الشخصية فى الفقه الاسلامى » ، د. عبد العزيز عامر « الاحوال الشخصية فى الشريعة الاسلامية » ، د. محمد أبو زهرة « الاحوال الشخصية - الزواج » ، د. أحمد سلامة « الاحوال الشخصية » ، محمد محيى الدين عبد الحميد « الاحوال الشخصية فى الشريعة الاسلامية » ، زكريا البرديسي « الاحوال الشخصية للمسلمين » ،

الاسلام الى كل خلق طيب ، ونهى عن كل خلق مذموم ، يقول الرسول ﷺ « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » - وقد وصفه ربه فى معرض الثناء عليه بقوله « وانك لعلى خلق عظيم »(٢٤) .

وهناك أخلاق حسنة حض الاسلام عليها مثل الصدق ، والأمانة ، والصبر ، والحلم ، والشكر ، والاخلاص ، والتوكل ... الخ .

وهناك أخلاق مذمومة نهى الاسلام عنها مثل الكذب ، والخيانة ، والغضب ، والحسد ، والرياء ، والنفاق ، والبخل ... الخ (٢٥) .

٥ - العقوبات :

ان الاسلام لم يقم نظامه على العقوبات(٢٦) ، بل قام فى حقيقة الأمر على تهذيب النفس ، وتطهير القلب ، ولا تأتى العقوبات الا فى المقام الأخير لأنها انما وضعت لشواذ الناس الذين لا تردعهم الموعظة الحسنة تأديبا لهم ، وزجرا لغيرهم عن ارتكاب الجرائم ، وذلك حفظا لحياة الناس ، وأعراضهم ، وأموالهم .

وهناك حدود حددها الاسلام ووضحها مثل حد الزنا ، وحد القتل ، والسرقة ، وقطع الطريق ، والقذف ...

ووراء الحدود القليلة التى نص عليها الكتاب الكريم ، وبينتها السنة النبوية ، باب واسع لنظام العقوبة فى الاسلام اسمه « **التعزير** » .

---

(٢٤) سورة القلم : آية ٤ .
(٢٥) عن هذا الموضوع أنظر : الامام الغزالى « احياء علوم الدين » ، محمود على قراعة « الأخلاق فى الاسلام » ، محمد الغزالى « خلق المسلم » ...
(٢٦) عن هذا الموضوع انظر : د. محمد أبو زهرة « العقوبة فى الفقه الاسلامى » ، « الجريمة فى الفقه الاسلامى » ، على قراعة « العقوبات الشرعية وأسبابها » ، عبد العظيم شرف الدين « العقوبة المقدرة لمصلحة المجتمع الاسلامى » ، د. عبد العزيز عامر « التعزير فى الشريعة الاسلامية » ...

تفاضت فيه بحوث فقهاء الاســـلام ، وبلغت حدا كبيرا من الدقة .

٦ ـ عـــلاقات :

لقد حدد الاسلام ووضح العلاقة التى تربط الانسان بربه ، وبالحياة ، والاحياء ...

● فهنـاك احكام نظمت عـــلاقات المسلمين بعضهم مع بعض ، ووضحت ذلك بالتفصيل مثل علاقة الرجل بالمراة ، وعلاقة الزوج بزوجته ، وعلاقة الولد بوالده ، وعلاقة المسلم بالجار ، وعلاقته بذوى القــربى ، وبالاصدقاء ... الخ (٢٧) .

● وهناك احكام نظمت العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وبينت حقوق ولى الامر على الرعية ، وحقوق الرعية على ولى الامر الخ (٢٨) .

---

(٢٧) انظر على سبيل المثال : د. على عبــد الواحــد وافى « الاسرة والمجتمع » ، د. محمد أبو زهرة « تنظيم الاسلام للمجتمع » ، محمد عزه دروزه « الدستور القـــرآنى فى شئون الحيـــاة » ، عبد الله ناصح علوان « تربية الاولاد فى الاسلام » ، محمد سلام مدكور « أحكام الاسرة فى الاسلام » ، أحمد عيسى عاشور « بر الوالدين وحقوق الابنـاء والارحـام » وطه عبد الله العفيفى فى كتبه « حق الله على العباد وحق العباد على الله » ، « حق المسلم على المســلم » ، « حق الزوج على زوجتـه وحق الزوجة على زوجها » ، « حق الاباء على الابناء وحق الابناء على الاباء » ، « حق الجار » ...

(٢٨) انظر الماوردى « الاحكام السلطانية » ، وابن تيمية « السـياسة الشرعية » ، وابن جماعة « تحـــرير الاحكام فى تدابير أهــل الاسلام » ، د. محمد ضياء الدين الريس « النظريات السياسية الاسلامية » ، د. محمـد عفيفى « المجتمع الاســـلامى وأصول الحكم » ، محمد الغزالى « الاسلام والاستبداد السياسى » .

● وهناك احكام نظمت عـلاقات المسلمين بغير المسلمين ، وهى الأحكام التى تناولت احترام الأديان الأخرى ، وحرية اهلها فى عقائدهم ، وعصمة أرواحهم وأعراضهم وأموالهم الا بالحق ... الخ .

● كما أن هناك أحكاما شرعت للحرب والقتال ... وما يترتب على ذلك من الغنائم ومعاملة الأسرى ... الخ (٢٩) .

دين جـامع شـامل :

لقد جمع الاسلام بحق خلاصة الأديان كلها ، ولم يترك صغيرةولا كبيرة فى بناء الفرد والأمة الا عالجها ، تارة بالتفصيل ، وتارة بالاجمال تاركا لها أن تمضى فى التفصيل مع ما تقتضيه مصالحها ، ولا تتعـارض مع الأصول التى وضعها .

لقد استوعب الاسلام الحياة كلها ، بحيث نستطيع أن نقول بحق انه ما من موقف من مواقف الحيـاة ، ولا قضية من قضـــايا الانسان الا وللاسلام فيها حكم ورأى وتوجيه .

لقد وضع الاسلام الحنيف نظاما كاملا ينظم ملكات الفرد ، وحيـاة الأسرة ، وطبقات الأمة ، ومقومات الدولة ، وعوامل الوحدة ، وسـياسة العالم ، ثم هو يرد ذلك كله الى قواعد نفسية حكيمة ، تمتزج فيها المثالية السامية بالواقعية الملموسة التى تتصل بدنيا البشر اتصالا وثيقا ، حتى انه ليحول كثيرا من هذه القواعد النظرية الى أعمال يومية تتكرر كـل يوم من غير حرج أو ارهاق ، بل فى غاية السهولة واليسر « **ما يريد الله ليجعل عليـكم من حرج ولـكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعـلكم تشكرون** » (٣٠) .

---

(٢٩) انظر : د. محمد أبو زهرة « العلاقات الدولية فى ظل الاسلام » ؛ على قراعة « العلاقة الدولية في الحروب الاسلامية » ؛
(٣٠) سورة المائدة آية ٦ .

ان عظمة الاسلام أنه يمزج مزجا تاما بين مصالح الانسان فى دنيـاه وفى أخراه ، كما يمزج مزجا تاما بين مصالح الانسان البدنية والروحية .

ذلك أن الانسان فى نظر الاسلام كل لا يتجزأ ، وأن كماله المنشود يتحقق فى ارتقائه ماديا ومعنويا ، وأن حياته الصحيحة على ظهر هـذه الأرض أساس لخلوده الكريم فيما بعد ، فاذا انهار الأساس تصدع البنـاء كله « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا »(٣١) .

ليس فى الاسلام خصام بين الروح والجسد بل ان هذا التقسيم مفتعل للنيل من حقيقة الانسان الواحدة ، وكل كلام فى معاداة الجسد بالرهبانية أو معاداة الحياة بالزهادة فهو كذب على الله ورسوله والاسلام منه برىء .

ان الاسلام يوازن فى تشريعاته بين عنصرى المـادة والروح اللـذين تتكون منهما حقيقة الانسان ، ولذلك وجدنا فى تعاليم الاسلام ثروة طائلة من النصوص تقوم على عنصر الجسد من تنظيفه ، وحمايته ، والسـمو به ، واشباع نهمه ، وتوفير راحته .

وكذلك هناك ثروة أخرى تهتم بالجوانب المادية فى الانسان تتحدث عن الطعام والشراب والجنس والاقتصاد ... الى غير ذلك مما يختص بالجسد أو المادة المحيطة بالانسان .

كذلك هناك ثروة أخـرى من النصـوص تقوم على عنصر الروح ، وتزكيتها بالأخلاق ، والمعانى ، والقيم الفاضلة .

وكذلك هناك ثروة تهتم بالجوانب الروحية فى الانسان فتتحدث عن الايمان والعقائد والأخلاقيـات والعلم ... الى غير ذلك ممـــا يختص بالروح وعالمها .

---

(٣١) سورة الاسراء آية ٧٢ .

حقا لقد جاء الاسلام دينا متكاملا ، شاملا لكل مناحى الحياة ، فهو يوازن بين الروح والجسد ، والدنيـا والآخرة ، « ويجمع بين العقيـدة والعمل ، وبين القيادة والعبـادة ، بين المجتمع والمسـجد ، بين العلم والدين ، بين الأخلاق والسلوك ... بين النظرية والتطبيق ، بين الحرب والسلم ، كما يعنى تكاملا فى الحياة من حيث الفهم السياسى ، والوعى الاجتماعى ، والعلاقات الدولية ، وعلاقات الافراد ببعضها على صـعيد المجتمع وفى رحاب الأسرة ، ويوضح علاقة الانسان بربه وبنفسه وبالكون من حوله .

كل ذلك ينسجم ويتناسق ويتلاقى فى كتاب كريم لا يكلفنا أكثر من التأمل فيه ، والاستمداد منه ، والمعايشة له ، والعمل به ، والثقة التـامة فيه ... »(٣٢) .

ان هذا الدين العظيم يتناول حيـاة الانسان فى الصغير منهـا والكبير ، وينظم سلوكه الاخلاقى باوسع ما تتضمنه كلمة أخلاق منذ أن يصبح الى أن يمسى ، ومنذ ميلاده الى أن تنتهى به الحياة ، ثم ينظم شئون ميراثه ـ ان كان له ميراث ـ بعد حياته .

انه ينظم سلوكه مع نفسه ويشرح له من ذلك ما خفى وما ظهر .

وينظم سلوكه مع الله فيبين له ما ينبغى أن يتحلى به حتى يصير ربانيا .

وينظم سلوكه مع اخوانه فى المجتمعسلبا وايجابا ، قولا وفعلا .
لقد جاء الاسلام ليكون قانون الحياة بالنسبة للمسلم .

---

(٣٢) توفيق محمد سبع : قيم حضارية ج ٢ ص ١٨١ ، ١٨٢ .

انه القانون الذى يبين أنواع السلوك من حيث كونه جـائزا ، أو واجبا ، أو مستحبا ، ومن حيث كونه حراما أو مكروها ، وذلك فى ميادين الحياة كلها (٣٣) .

لهذا كله وجد المسلمون فى التشريع الاسلامى المفصل لنواحى الحياة دستورا مهيئا ساروا عليه ، واصطبغت به حياتهم ، وتميزت به حضارتهم .

فالاسلام بلا شك دين حضارة ورقى وازدهار ، وقد ساعد ذلك على سرعة ازدهار الحضارة الاسلامية بصورة منقطعة النظير ، ولا سيما أن هذه التشريعات الاسـلامية سدت النقص الذى اعترى الفكر الانسانى فى المراحل السابقة ، وأعطت قواعـد صالحة لكل زمان ومكان سعى اليهـا فكر الانسان على مراحل تاريخه (٣٤) .

اننا نؤكد أن حياة الأمة الاسلامية ارتبطت ارتباطا أساسيا وكاملا بالاسلام كمنهج وطريقة فى الحياة .

ومن ثم فان أى دراسة « للحضارة الاسـلامية » لابد أن تضـع فى اعتبارها أن الاسلام ، بنظمه ، وأحكامه ، وتشريعاته ، وأخلاقياته ... هو المحور الأساسى الذى تدور حوله حياة الأمة الاسلامية طوال فترات التاريخ الاسـلامى ، وحتى بداية العصر الحديث عنـدما حلت كثير من القوانين الوضعية محل التشريعات الاسلامية .

ولهـذه الحقائق كلهـا نستطيع القول بأن الأصل الأصيل والأساس المتين للحضارة الاسلامية هو الاسلام .

---

(٣٣) انظر د. عبد الحليم محمود : أسرار العبادات فى الاسلام ص ٣ ، ٤ ، ٩ سلسلة المكتبة الثقافية ـ أصدرتهـا الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ يناير ١٩٦٦ م .

(٣٤) د. محمد عبد الستار عثمان : المدينة الاسلامية ص ٦ سلسلة عالم المعرفة ـ عدد رقم ١٢٨ يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت ـ أغسطس ١٩٨٨ م .

وهذا هو السبب فى ثراء الحضارة الاسلامية ورحابتها ، وانفرادها وتميزها عن غيرها من الحضارات الأخرى .

نعم لقد كانت الحضـــارة الاسلامية بحق هى حصيلة توجيهـــات الاسلام وتنظيماته وتشريعاته ومن ثم جاءت شاملة للنشاط البشرى كله ـ روحية ومادية على السواء .

لقد انطلقت فى كل مناحى الحيـــاة تنشىء وتبنى وتعمـــر فى عالم الحس دون أن تهمل من الحياة جانبهـــا الروحى متمثلا فى عقيدة ومثـــل عليا ومشاعر انسانية رفيعة ووجدانات خيرة .

وفى عصور ازدهار الحضـــارة الاسلامية كانت كل نواحى القـــوة متمثلة فى الدولة الاسلامية .

القوة العسكرية ، والقوة السياسية ، والقوة الاقتصادية ، وحـــركة التجارة العالمية ، والقوة العلمية ومنتجات الحضارة المادية ...

ولـــكن ذلك كله لم ينس المسلمين عقيـــدتهم فى الله واليوم الآخر ولا أخلاقهم الاسلامية .

كما لم ينسهم أن للحياة البشرية أهدافا أخرى بجانب المتاع الحسى هى أعظم وأرفع من المتاع الحسى دون اهمـــال لذلك المتاع ومتطلبـــاته الدنيوية العلمية والتطبيقية اتباعا لتوجيهات القرآن (٣٥) « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** » (١) .

ان الاسلام لا يفرق بين نشاطات الحيـــاة المختلفة فيجعل بعضهـــا جسديا خالصا وبعضها روحيا خالصا ، أو بعضها سياسيا خالصا ، وبعضها

---

(٣٥) محمد قطب : المجتمع الاسلامى ص ٥٢ .
(٣٦) سورة القصص آية ٧٧ .

أقتصاديا خالصا ، وبعضها اخلاقيـــا خالصا ـ فالحيـاة البشرية متصلة الجوانب ، والعنصر الاخلاقى أو الروحى أو العقيدى سار فيها جميعا بلا اختلاف ٠

واذ يجمع الاسلام طاقة الروح وطاقة الجسد فى كيان ، ويجمع الدنيا والآخرة فى طريق ، ويجمع السياسة والاقتصاد والاجتماع والاخلاق فى نظام ، ويوجه ذلك كله وجهة واحدة ـ الى الله ـ فانه يوحـــد طاقات الكائن البشرى بدلا من أن يفرقها ويؤلف بينها بدلا من أن ينشىء بينهـا التضارب والصراع ٠

ومن ثم تنطلق طاقات الانسان فى جميع الميادين فى وقت واحد ، وتنطلق الى اقصى غاياتها ، لا يعوقها شىء وتنشىء وتبنى وتعمر على اسس مهتدية راشدة وذلك ما كان من امر الحضارة الاسلامية فى أوجهـا وذلك ما تفردت به الحضارة الاسلامية بين حضارات التاريخ ٠

ان الانتاج المادى والانتاج العلمى لهذه الحضارة الاسلامية هائل فى ذاته وعظيم ، ولكن أعظم منه انه قام كله فى ظل العقيدة الربانية غير منفصل عنها ولا متصارع معها ، وتلك مزية لا نقدرها حق قدرها الا اذا أمعنـا النظر اليوم فى حضارتنا المعاصرة ، وكيف انتهت بالانسان الى أن يصبح عبدا للمادة ، وعبدا للآلة ، وعبدا للشهوات(٣٧) ٠

اننا يمكننا فى معـادلة بسيطة أن نوضـح الفـارق الجوهـرى بين الحضارة الاسلامية وغيرها من الحضارات التى أشرنا اليها على النحـو التـالى :

---

(٣٧) محمد قطب : المرجع السابق ص ٥٣ ٠

انسان + طبيعة (مادة) + ايمان = حضارة اسلامية
انسان + طبيعة (مادة) = انتاج مادى اى حضارة تبتعد عن منهج الاسلام .

كما يمكن توضيح الفارق بين انسانية « المسلم » وغيره كما يلى :

انسان يعيش لفكرة علوية (عبادة الله) = مسلم : الله غايته .
انسان يعيش لفكرة ذاتية = غير مسلم : الرفاهية المادية والاستمتاع الدنيوى غايته .

ان عظمة الدين الاسلامى انعكست بحق على تلك الحضارة التى قامت على أسسه وتعاليمه ، واعتمدت على روحه ومنهجه ، وامتدت معه فى دنيا المسلمين طولا وعرضا وعمقا ـ لتتناول كل جانب من جوانب حياة المسلمين ، وكل ناحية من نواحيها .

ان الحضارة الاسلامية بحق حضارة مثالية متميزة ، ليس لها نظير فى دنيا الحضارات ، فهى حضارة جمعت بين الدنيا والآخرة ، وبين مطالب الروح ومطالب الجسد ، وبين عالم المحسوس وعالم ما وراء الحس القريب ، وهى تشمل العلم والعمل ، والسلم والحرب ...

انها حضارة توازن بين جوانب الانسان من حيث عقله وروحه ، وقلبه وجسده ، وغرائزه وعواطفه ... كما توازن بين مطالب الفرد ، ومطالب الجماعة .

ان هذه الحضارة الاسلامية بحق قد تميزت « **بسمات وخصائص كثيرة** » .

ويسرنى الآن أن اعرض بعض هذه السمات وتلك الخصائص التى تميزت بها الحضارة الاسلامية ـ فى عصور ازدهارها ـ وهى فترة امتدت فى عمر الزمن ، ودنيا الناس قرابة الف عام ، كان المسلمون فيها يمسكون

بزمام الأمور ، ويوجهون دفة الأحداث ، ويقدمون عطاءهم الحضـارى فى كل اتجاه ·

ونحن لا ندعى أن الأمور سارت طوال هـذه القرون على وتيـرة واحدة ، وأن المسلمين ظلوا طوال هـذه القرون على درجة لا تتغير من حسن الفهم واتقان العمل ، بل تقلبت بهم الأحوال مدا وجزرا ، وصوابا وخطأ ، ورخاء وشدة ، ونصرا وهزيمة ·

ولكننا نجزم بأن المسلمين برغم كل ما انتابهم من متغيرات ، ومـا تسلل الى حياتهم من أخطاء ــ بل وخطـايا أحيانا ــ ظلوا طوال عشرة قرون تقريبا أكبر قوة سياسية فى عالمهم ، وكان الجسد الاسلامى القوى يتحمل العلل التى تكتنفه ، والأمراض التى تعاوده من وقت لآخر ، وظلت الحضارة الاسلامية طوال هذه القرون هى الحضارة الوحيدة التى تسود الدنيا ، وتترك أثرها وتأثيرها فى كل مكان من أرض الله الواسعة ·

وحتى عندما بدأت موازين القوى تتغير ، وظهرت بواكير النهضة فى أوربا ، كانت أشعة الحضـــارة الاسلامية التى تتسرب الى أوربا هى التى تبدد ظلام جهلها وتخلفها وتضع نهاية لعصور تأخرها وانحطاطها ·

وسوف يؤكد لنا الحديث عن بعض سمات وخصائص هذه الحضارة الاسلامية العظيمة أنها كانت بحق حضارة مثالية فذة ، ونبدأ بالحديث عن أولى خصائص وسمات تلك الحضـارة وهى أنها « حضارة تتسم بالروح الدينية القوية » ·



الفصل الثالث

حضارة تتسم بالروح الدينية القوية :

نستطيع القول بان من سمات الحضارة الاسلامية وخصائصها انها « تتسم بالروح الدينية القوية » .

« فروح التدين » تظهر وتتاكد فى كثير مما تركه المسلمون منمظاهر الحضارة ، والشخصية المسلمة ظلت على امتداد التاريخ شخصية متدينة يحتل الدين أهمية كبيرة فى معتقداتها ، وتشريعاتها ، وأخلاقياتها ، وعاداتها وتقاليدها ... وكل نواحى حياتها .

وهذه حقيقة تتجلى وتتضح لكل باحث فى تاريخ الحضارة الاسلامية ، وها هى بعض المظاهر التى تؤكد هذه الحقيقة من خلال تاريخ الأمة الاسلامية :

١ ـ تخطيط المدينة الاسلامية :

تتضح الروح الدينية فى تخطيط المدينة الاسلامية ، حيث كان للمدينة الاسلامية شخصيتها او طابعها الخاص باعتبارها اسلامية فى المحل الأول .

وأن هذه الشخصية تظهر فى كل المدن الاسلامية ، وتكشف عن وجود « روح » عامة ثابتة ومستمرة خلال التاريخ الاسلامى كله (١) .

---

(١) انظر د. احمد أبو زيد : تمهيد عن المدينة الاسلامية ص ٩ ـ مقال فى مجلة عالم الفكر ـ تصدرها وزارة الاعلام فى الكويت ـ المجلد الحادى عشر ـ العدد الأول ـ ١٩٨٠ م .

لقد كان « تخطيط المدينة الاسلامية » يقوم على أسس معينة من قيم الدين الاسلامى تفى بحاجات مجتمعه المادية والروحية ، الفردية والجماعية .

وتتضح جوانب التخطيط الاسلامى للمدن ، ابتداء من اختيار الموقع .... ثم تخطيط الموضع تخطيطا يحقق غايات المجتمع الاسلامى انطلاقا من قيمه ومبادئه الاسلامية (٢) .

ونضرب نموذجا لذلك بتطبيق المبدأ الاسلامى العظيم الذى ورد فى حديث رسول الله ﷺ وهو « لا ضرر ولا ضرار » (٣) .

فقد كان لتطبيق هذا المبدأ الاسلامى أثر كبير فى « التخطيط المادى للمدينة الاسلامية » ، حيث أن الفقهاء المسلمين حددوا مظاهر الضرر المادى الناتج من تفاعل النشاطات داخل التكوينات المعمارية للمدينة الاسلامية بثلاث مظاهر هى :

- الدخان الضار .
- والرائحة الكريهة .
- والصوت المزعج .

فهذه الثلاثة تسبب الضرر للآخرين اذا زادت عن الحد المحتمل الذى قدرته الأحكام الفقهية ، وتطبيقا لمنع هذا الضرر فى تخطيط المدينة

---

(٢) أنظر د. محمد عبد الستار عثمان : المدينة الاسلامية ص ١٢٦ ـ ١٢٩ ولمزيد من التفاصيل عن « تخطيط المدينة الاسلامية » انظر ما كتبه د. محمد عثمان فى الفصل الثانى من كتابه تحت هذا العنوان .

(٣) ابن ماجه (أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى السنن ج ٢ ص ٧٨٤ ـ كتاب الأحكام ـ باب من بنى فى حقه ما يضر بجاره ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ـ دار الفكر ـ القاهرة ـ ١٩٥٤ م والمعنى ليس لأحد أن يضر صاحبه بوجه .

الناشئة أبعدت المنشآت التى تتسبب فى ذلك ـ كأفران الفخار ، والجير ، والمدابغ ، والصناعات التى تصدر صوتا مزعجا ـ عن الوحدات السكنية التى كانت تشغل القطاع الاكبر من حيز المدينة .

كما حكمت هذه القاعدة أيضا تصنيف الاسواق فى المدينة الاسلامية ، ذلك التصنيف الذى كانت الحكمة الاسلامية منه دفع الضرر الذى ربما يحدث اذا ما تجاورت سلع وحرف متضادة تفسد العرض والسلعة ، وتتسبب أيضا فى أذى رواد هذه الاسواق (٤) .

وبذلك نستطيع القول بان المسلمين حاربوا « تلوث البيئة » الذى نسمع عنه اليوم وسبقوا عصرهم بأربعة عشر قرنا من الزمان كاملة .

٢ ـ الاهتمام بالمساجد :

وتتجلى قوة الروح الدينية عند المسلمين فى الاهتمام بالمساجد اذ احتل المسجد مكانة مهمة عند المسلمين ، حيث كان أهم المنشئات العامة فى اى مدينة اسلامية ، لما له من دور كبير وأساسى فى حياة المجتمع ، فبالاضافة الى مهمته الدينية كانت له مهام اخرى تربوية ، وعلمية ، وسياسية ، واجتماعية (٥) .

ولذلك كان المسجد أول ما يختط عند انشاء المسلمين لمدينة من

---

(٤) محمد عثمان : المدينة الاسلامية ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ .

(٥) عن رسالة المسجد فى الاسلام انظر : د. على عبد الحليم محمود : « المسجد وأثره فى المجتمع الاسلامى » ، د. أحمد الشرباصى « رسالة المسجد فى نشر الثقافة والحضارة » المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ـ القاهرة ـ ١٩٦٦ م .

المدن (٦) ، ومن حوله كانت تختط خطط المدينة ، وتنتهى اليه شوارعها وسككها وازقتها (٧) .

وكانت مدينة رسول الله ﷺ المثال الأول على ذلك ، فقد كان مسجد الرسول ﷺ أول شيء اختط فى وسط المدينة ، ومن حوله اختطت خطط المهاجرين التى كانت فى معظمها قطائع وخططا تنازل عنها الأنصار للمهاجرين من كل فضل كان فى خططهم ـ أو كانت فى عفا من الأرض ليست لأحد فاقطعها الرسول أصحابه (٨) .

وقد سارت « مدن الأمصار » الناشئة على هذا المنهج فى اختيار موضع متوسط فى المدينة لاقامة المسجد الجامع ، ومن أمثلة ذلك البصرة ، والكوفة ، والفسطاط ، والقيروان وأصبح هذا الاتجاه قاعدة تقليدية فى المدن الاسلامية بعد ذلك كما فى واسط ، وبغداد ، وفاس .. وغيرها (٩).

ولم يكن يقام أكثر من خطبة فى البلدة الواحدة حرصا على تجمع المسلمين وتوحيدهم حتى اتسعت المدن وأفتى الفقهاء بجواز اقامة أكثر من صلاة جامعة فى المدينة فتعددت الخطبة ، وكثرت المساجد الجامعة كثرة واضحة (١٠) .

ففى القرن الرابع الهجرى كثرت المساجد فى بلاد الاسلام كثرة واضحة لدرجة انها بلغت فى بغداد ثلاثين الفا (١١) .

---

(٦) انظر المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية) ج ٢ ص ٢٤٦ ـ مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة .
(٧) د. محمد عثمان : المدينة الاسلامية ص ٢٣٤ .
(٨) انظر السمهودى : وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ج ٢ ص ٧١٨ ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ بيروت ـ ١٩٧١ م .
(٩) د. محمد عبد الستار عثمان : المدينة الاسلامية ص ٢٣٥ .
(١٠) د. محمد عثمان : نفس المرجع ص ١١٣ .
(١١) انظر د. عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة ص ٩٨ .

وفى مصر - الفسطاط - وحدها ستة وثلاثين الفا (١٢) ٠

وفى الاسكندرية فى أواخر القرن السادس « اثنا عشر الف مسجد » أو « ثمانية آلاف مسجد » (١٣) ٠ وذكر القلقشندى أن مساجد قرطبة بلغت الفا وستمائة مسجد (١٤) ٠

وفى بلرم (بالرمو - بصقلية) أكثر من ثلاثمائة مسجد (١٥) ٠

وكانت الدول الاسلامية ، كما كان أفراد الشعب ينشئون المساجد ، ويشرفون على صيانتها ، وينفقون على موظفيها ، ويوقفون على ذلك الأوقاف الكثيرة (١٦) ٠

٣ - كثرة المؤسسات الدينية فى المجتمع الاسلامى :

ومما يؤكد الاهتمام الدينى فى الحضارة الاسلامية أيضا « كثرة المؤسسات الدينية فى المجتمع الاسلامى » ٠

---

(١٢) أنظر المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٣٣٠ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٢٦٦ ٠

(١٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ١٢ - مطبعة السعادة - القاهرة - ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م ، الطبعة الأولى ٠

(١٤) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ج ٥ ص ٢٢٦ - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - القاهرة ٠

(١٥) صقلية : بثلاث كسرات وتشديد اللام والياء أيضا ٠ من جزائر البحر المتوسط فى مقابلة افريقية (تونس) وهى جزيرة خصبة كثيرة البلدان والقرى والامصار ٠٠ فتحت فى أيام بنى الأغلب على يد القاضى أسد بن الفرات ، وبلرم هى قصبة صقلية ٠٠ وبها من المساجد نيف وثلاثمائة مسجد أنظر ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٤١٦ - ٤١٩ - وهى تتبع الآن دولة ايطاليا ٠

(١٦) انظر على سبيل المثال حجج الوقف المتعددة الموجودة بدار الوثائق القومية ، وأرشيف وزارة الأوقاف فى مصر والتى يعود معظمها الى عصر المماليك وعن هذا الموضوع بالتفصيل انظر : محمد محمد أمين على : تاريخ الأوقاف فى مصر فى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧ م) رسالة دكتوراة من كلية الآداب - جامعة القاهرة - ١٩٧٢ م ٠

فقد تعددت هذه المنشئات وتنوعت ، فبالاضافة الى المساجد الكثيرة التى كثرت فى كل مدينة وقرية على امتداد العالم الاسلامى كما ذكرنا ، كانت هناك مؤسسات أخرى انشاها المسلمون ، كان الغرض الدينى بلا شك من أهم دوافع انشائها ومن أهم هذه المؤسسات نذكر ما يلى :

أ ـ المدارس :

عندما سيطر الفاطميون على مصر والشام ، بلغ الفكر الشيعى والتشيع اعظم درجات قوته فى العالم الاسلامى ، وازداد الأمر خطورة عندما تمكن الثائر البساسيرى من دخول بغداد ، واقامة الخطبة فيها للخليفة المستنصر بالله الفاطمى سنة ٤٥٠ هـ ، واضافة الصيغة الشيعية للآذان لكى يعلن سيادة الخلفاء الفاطميين على العراق .

ولقد كان لذلك أثره فى نفوس جمهرة المسلمين من أهل السنة ، لذلك ما كادت تنحسر موجة المذهب الشيعى عن هذه البلاد ، وتمكن « طغرل بك » من قتل « البساسيرى » ، ودخول بغداد سنة ٤٥١ هـ (١٧) ، واستطاعة ابن أخيه « ألب أرسلان » أن ينتزع من الدولة الفاطمية ما بايديها من البلاد حتى دمشق ، الا وبدأ رد الفعل القوى فى العمل على تقوية المذهب السنى وتدعيمه بانشاء المدارس ، وتدريس المذهب السنى .

---

(١٧) كان أبو الحارث البساسيرى من القواد الاتراك لبنى بويه ـ وقد زاد نفوذه حتى أصبح الخليفة العباسى والسلطان البويهى معه مسلوبى السلطة ضعيفى الجانب ، ثم حدث عداء بين البساسيرى وبين الخليفة العباسى القائم بامر الله (٤٢٢ ـ ٤٦٧ هـ / ١٠٣١ ـ ١٠٧٥ م) ودخل البساسيرى بغداد فى شهر ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ وخلع الطاعة ، وكاتب الفاطميين فى مصر ... وكان ذلك من اسباب استنجاد الخليفة العباسى بالسلاجقة وازالة سلطان بنى بويه ... انظر ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٨٢ ـ ٨٧ ـ دار الفكر بيروت ـ ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م ، د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٧٠ ، ص ٤١٠ ـ ٤١٧ ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٨١ م ـ الطبعة الرابعة .

ومن هنا يظهر اهتمام المدارس بتدريس العلوم الدينية بصفة خاصة دون سواها .

ومن أبرز المدارس التى ظهرت فى العالم الاسلامى لتدعيم المذهب السنى ، ومقاومة الدعوة الشيعية « المدرسة النظامية » التى انشأها الوزير السلجوقى نظام الملك فى بغداد ، وقد بدأ عمارتها سنة ٤٥٧ هـ - ١٠٦٤ م وانتهى من بنائها فى ذى القعدة سنة ٤٥٩ هـ - ١٠٦٦ م (١٨) .

ومن العراق انتقل نظام المدرسة الى الشام فى عهد الزنكيين الـذين نشأوا فى ظل السلطنة السلجوقية .

وقـد بنى نور الدين الكثيـر من المدارس للحنفية ، والشافعية فى معظم البلاد الشامية مثل دمشق ، وحماه ، وحلب ، وحمص ، وبعلبـك ... وغيرها (١٩) .

وفى مصر كان العصر الايوبى هو بداية عصر ازدهار المدرسة ، فمـنا ان تولى صلاح الدين الايوبى الحكم فى مصر حتى وجد انه لكى يقضى على الفكر الشيعى الذى خلفه الفاطميون الذين حكموا مصر أكثر من قرنين من الزمان (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١١٧١ م) فانه لابد ان يقابل هذا الفكر بنفس السلاح ، وهو سلاح العلم ،

فكان انشاء المدارس السنية لمناهضة المذهب الشيعى (٢٠) .

---

(١٨) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٦٣ .

(١٩) انظر المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٦٣ وعن هذه المدارس بالتفصيل انظر كتاب « الدارس فيما في دمشق من المـدارس » للنعيمي ، كتاب « الأنس الجليل » لمجير الدين ، وكتاب «الدر المنتخب فى تاريخ حلب » لابن الشحنة .

(٢٠) عن هذه المدارس فى العصر الايوبى انظر المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٦٣ وما بعدها ، ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٩٣ وما بعدها - مطبعة بولاق - القاهرة - ١٨٩٢ م ، د. أحمد فكرى : مساجد القـاهر قومدارسها ج ٢ - دار المعارف - القاهرة .

وسار خلفاء صلاح الدين من سلاطين الدولة الأيوبية على سيرته فى انشاء المدارس ٠

واستمر ازدهار المدارس فى مصر طوال العصور التالية بعد ذلك ، حتى لقد ذكر الرحالة « ابن بطوطة » الذى زار مصر فى القرن الثامن الهجرى أن « المدارس بمصر لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها » (٢١) ٠

وقد كان للحركة المدرسية فى الشرق صداها القوى فى بلاد المغرب اذ شهدت انشاء حركتين مدرستيين كبيرتين حمل لواءهما الحفصيون (٦٢٥ ـ ٩٨١ هـ / ١٢٢٨ ـ ١٥٧٤ م) فى تونس ، والمرينيون (٥٩١ ـ ٨٧٥ هـ / ١١٩٥ ـ ١٤٧٠ م) فى المغرب الأقصى والى هاتين الدولتين يرجع الفضل فى انشاء المدارس ونشرها فى الشمال الافريقى (٢٢) ٠

ويطول بنا الحديث لو أردنا أن نذكر هذه المدارس الكثيرة التى انتشرت عبر العالم الاسلامى كله ٠

ب ـ الخوانق :

الخانقاه ـ وجمعها خوانق ـ كلمة فارسية معناها بيت ، وقيل أصلها خونقاه أى الموضع الذى يأكل فيه الملك ـ ثم أصبحت تطلق على البيت أو الدار التى يختلى الصوفية فيها لعبادة الله تعالى ٠

وقد حدثت الخوانق فى الاسلام فى حدود الأربعمائة من سنى الهجرة (٢٣) ٠

---

(٢١) أنظر ابن بطوطة : تحفةالنظار فى غرائب الامصار (رحلة ابن بطوطة) ص ٥٦ ـ علق عليه طلال حرب ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٨٧ ٠

(٢٢) محمد عبد الرحمن غنيمة : مقدمة لتاريخ التعليم الجامعى فى الاسلام ص ٥٩ ـ رسالة ماجستير ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ مكتبة الجامعة رقم ١٠٨ ٠

(٢٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤١٤ ـ ويكتبها المقريزى « خانكاه » بالكاف ؛

« ففى هذا الوقت تقريبا ظهرت فرق الصوفية أشبه ما تكون بالأحزاب ، ولكل فرقة مبادؤها وأصولها وشيخها واتباعها ، وكان كل فرد يأتمر بأوامر شيخه ومرشده ، وبذلك أصبح التصوف جماعيا ومنظما بعد أن كان فرديا ، وكثر عدد الصوفية تبعا لذلك ، وأصبحوا يكونون طبقة هامة فى المجتمع الاسلامى لها تقاليدها ونظمها وخصائصها ، ومن ثم كانت لهم مراكزهم الخاصة التى عرفت بالخوانق (٢٤) .

وكان لانتشار التصوف واشتداد تياره بعد القرن الرابع الهجري ، أن كثرت الخوانق فى أنحاء العالم الاسلامى ، وحرص منشئوها على ضمان بقائها فحبسوا على الخوانق الأوقاف (٢٥) .

جـ - الزوايا :

« الزاوية » مأخوذة من الفعل انزوى - ينزوى . بمعنى اتخذ ركنا من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد .

ثم تطورت الزوايا فيما بعد الى أبنية صغيرة منفصلة فى جهات مختلفة من المدينة ليقيم بها المتعبدون والغرباء من العلماء والطلبة ، كما يعقد فيها مشايخ الطرق الصوفية حلقات الذكر (٢٦) .

---

(٢٤) دولت عبد الله عبد الكريم : الخوانق في مصر فى العصر الأيوبى والمملوكي ص ١٤ - رسالة دكتوراه مقدمة الى كلية الآداب - جامعة القاهرة - مكتبة الجامعة - رقم ١٩٧٨ تاريخ .

(٢٥) كان أول من أنشأ الخانقاه فى مصر هو صلاح الدين الأيوبى اذ حول دار سعيد السعداء قنبر - ويقال عنه عتيق الخليفة المستنصر الفاطمى - الى خانقاه ووقفها على الصوفية سنة ٥٦٩ هـ ، ورتب لهم كل يوم طعاما ولحما وخبزا فكانت هذه هي أولي خانقاة أنشئت بمصر انظر المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤١٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ج ٣ ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٢٦) د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٤ ض ٤٢٣ - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الأولي - ١٩٦٧ م .

ويمكننا أن نتصور كثرة هذه الزوايا فى العالم الاسلامى بعد انتشار التصوف ، حيث كانت الزاوية دارا من دور المتصوفة التى مارسوا فيها شعائرهم وأورادهم وأذكارهم •

وقد ذكر المقريزى عددا من الزوايا الموجودة فى العاصمة (٢٧) •

د ـ الربط :

الرباط فى الأصل : نوع من التكنات العسكرية التى تبنى على الحدود الاسلامية ، وقرب الثغور ، يقيم فيها « المرابطون » الذين رابطوا فى هذه الأمكنة للدفاع عن دار الاسلام ضد الأعداء (٢٨) •

ومع مرور الزمن تطور معنى هذه اللفظة واتسع مفهومها من جهاد الأعداء فقط الى جهاد النفس أيضا •

وبعد أن كان الرباط هو البناء المحصن الذى يقام قرب الحدود لجهاد الأعداء جهادا حربيا ـ أصبح يطلق أيضا على المكان الذى يسكنه المتقشفون ، والصوفية أهل طريق الله ، ووجدنا المقريزى يقول : « الرباط هو بيت الصوفية ومنزلهم ، ولكل قوم دار ، والرباط دارهم » (٢٩) •

ومع اشتداد تيار التصوف فى العالم الاسلامى ، فسر الصوفية قوله تعالى : « وصابروا ورابطوا » أى « واظبوا على مواقيت الصلاة ، وقيل إن المقيم فى الرباط على طاعة الله يدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلاد ،

---

(٢٧) انظر الخطط ج ٢ ص ٤٣٠ ـ ٤٣٦ حيث ذكر خمسا وعشرين زاوية فى العاصمة المصرية وحدها •

(٢٨) د• محمد أسعد طلس : التربية والتعليم فى الاسلام ص ١١٢ ـ دار العلم ـ بيروت ـ ١٩٥٧ م •

(٢٩) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٢٧ ؛

فاعتكاف الصوفى بالرباط على طاعة الله انما يكون مرابطا فى انتظار الصلاة بعد الصلاة » (٣٠) .

وبهذا المعنى فان الرباط كان هو الآخر دارا من دور الصوفية كالزاوية ، والخانقاه ، بل ان بعض الربط فى حقيقة امرها ملحقات تابعة للخانقاه ، اقيمت ليلازمها الصوفية للعبادة والعكوف والتهجد والاعتزال والانطلاق الروحى وفق تعاليم شيخ الخانقاه (٣١) .

وقد كثرت الربط كذلك فى العالم الاسلامى مع انتشار التصوف وكثرة معتنقيه حتى لقد ذكر المقريزى فى كتابه الخططاثنى عشر رباطا فى العاصمة المصرية وحدها (٣٢) . .

هـ - المشاهد والقباب :

مع انتشار التصوف ، وكثرة المشايخ والأولياء ، أصبح من العادات المالوفة فى العالم الاسلامى خلال هذه العصور زيارة قبور الأولياء والأئمة والصالحين - تبركا بهم وطمعا فى الأجر والثواب .

ولذا وجدنا ان - قرافة مصر مثلا - وهى مكان دفن موتى المصريين بالعاصمة فى عصر المماليك (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م) مكانا زاخرا بالحركة ، تبنى فيه المدارس والزوايا والمشاهد والقباب ، ويقصدها الناس كثيرا لزيارة موتاهم وزيارة قبور الصالحين والعلماء .

وابن بطوطة الرحالة المؤرخ الذى زار مصر فى عصر المماليك البحرية (٦٤٨ - ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ - ١٣٨٢ م) يحدثنا عن قرافة مصر

---

(٣٠) المرجع السابق . نفس الصفحة .
(٣١) دولت عبد الله : الخوانق ص ٢٤ .
(٣٢) انظر ج ٢ ص ٤٢٧ - ٤٣٠ .

ومزاراتها فيقول « وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة ، ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور ويبنون بها البيوت ، ويرتبون القراء يقرءون ليلا ونهارا بالأصوات الحسان ، ومنهم من يبنى الزاوية والمدرسة الى جانب التربة (المقبرة) ويخرجون كل ليلة جمعة الى البيت بأولادهم ونسائهم ويطوفون على الاسواق بصنوف المآكل » (٣٣) .

ثم ذكـــر ابن بطوطة من المزارات الشريفة مشـــهد الامام الحسين رضى الله عنه (٣٤) ، وتربة السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور رضى الله عنها ، وتربة الامام أبى عبد الله محمد بن ادريس الشافعى ، ثم ذكر أن بقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين ما لا يضـبطه الحصر وبها عدد جم من الصحابة وصدور السلف والخلف رضى الله تعالى عنهم (٣٥) .

ولذلك وجدنا من يؤلفون كتبا خاصة يوضـحون فيها خط المسير ، وكيفية السير لمن يقصد زيارة الاولياء والصالحين وأضرحتهم المنتشرة فى العاصمة المصرية من هؤلاء ابن الزيات (شمس الدين ت ٨١٤ هـ) الـذى

---

(٣٣) ابن بطوطة : تحفة النظار ص ٥٧ .

(٣٤) نسبة الى الحسين بن على رضى الله عنهما وقد اختلف المؤرخون فقال بعضهم ان رأس الحسين بالمدينة المنورة ، وقال بعضهم كانت بعسـقلان (وهى مدينة بالشـام من أعمـال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين) فخشى الصـــالح طلائع بن رزيك عليها من الفرنج الذين احتلوها سنة ٥٤٨ هـ فبنى جامعه خارج باب زويلة وقصــد نقــل الرأس اليه فغلبه الفائز على ذلك وأمـر بابتناء هذا المشهد ونقل الرأس اليه فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٤٧ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ١٢٢ ، السخاوى : تحفة الاحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمـزارات والتراجم والبقـاع المبـاركات ص ٩٤ ـ القاهرة ـ ١٩٣٧ م .

(٣٥) أنظر ابن بطوطة : تحفة النظار ص ٥٧ ، ٥٨ وقد أضاف المقريزى الى ما ذكره ابن بطوطة . مشهد زين العابدين ، ومشهد السـيدة كلثوم بنت القاسم بن محمد بن جعفر الصادق أنظر الخطط ج ٢ ص ٤٣٦ ـ ٤٤٢ .

ألف كتابا بعنوان « الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة فى القرافتين الكبرى والصغرى » (٣٦) ـ كما الف أبو الحسن نور الدين على بن أحمد ابن عمر السخاوى هو الآخر كتابا بعنوان « تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات » .

ومن المشاهد أيضا فى العالم الاسلامى مشهد الامام على بالنجف ، وقد زاره ابن بطوطة سنة ٧٢٦ هـ ، ودخل من الباب الرئيسى المعروف بباب الحضرة ، وهو يؤدى الى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة .

وكان الرسم فيهــا أن لكل وارد عليهــا ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين فى اليوم ، ومن المدرسة كان الدخول الى باب القبة حيث الروضة المقدسة ، وعلى الباب كان يقف الحجاب والنقباء والطواشية ، وهم على أهبة الاستعداد لارشاد الزائر ، فعندما يصل الزائر يقوم اليــه أحدهم أو جميعهم وذلك على قــدر الزائر فيقفون معـــه على العتبــة ويستأذنون له ويقـــولون : « عن أمركم يا أمير المؤمنين ، هـــذا العبد الضعيف يستأذن على دخوله الروضة العلية فان أذنتم والا رجع ، وان لم يكن أهلا لذلك فانتم أهل المكارم والستر ، ثم يأمرونه بتقبيل العتبــة ، وهى من فضة ، وكذلك العضادتان ثم يدخل القبة ... » (٣٧) .

ومن المشاهد أيضا مشهد أحمد بن موسى أخى على الرضا بن موسى

---

(٣٦) طبعته المطبعة الأميرية سنة ١٩٧٠ م .
(٣٧) ابن بطوطة : تحفة النظار ص ١٩٣ .

ابن جعفر ... يمتد نسبه الى على بن أبى طالب ، وهو مشهد معظم عند أهل شيراز (٣٨) يتبركون به (٣٩) .

وهناك مشاهد أخرى فى شيراز ذكرها ابن بطوطة فى رحلته (٤٠) ، كما ذكر مشهد الحسين بن على رضى الله عنهما فى مدينة كربلاء (٤١) . الى غير ذلك من مشاهد انتشرت فى العالم الاسلامى ...

وكانت هناك طقوس وشعائر خاطئة تمارس فى هذه المشاهد والآثار المقدسة التى انتشرت على طول البلاد الاسلامية ... « مثل الطواف أو اللمس أو الاستلام — أى التقبيل — هذا الى جانب تقديم الهدايا والنذور مع طلب الشفاعة أو الشفاء من المرض أو فك الكروب وأمثالها ... » (٤٢) .

ويمكننا أن نضيف الى المؤسسات الدينية فى المجتمع الاسلامى كذلك :

و — مصلى العيد : الذى كان المسلمون يحددون مكانه فى كل بلدة لاقامة صلاة « العيدين » تمشيا مع سنة رسول الله ﷺ (٤٣) .

---

(٣٨) شيراز : بلد عظيم مشهور يعتبر قصبة بلاد فارس ، يقع فى وسطها ، وهى مما استجد عمارتها واختطاطها فى الاسلام ، وقد نسب الى شيراز جماعة كثيرة من العلماء فى كل فن . أنظر ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٣٨٠ — ٣٨١ .
(٣٩) أنظر ابن بطوطة : تحفة النظار ص ٢٢٥ .
(٤٠) أنظر ابن بطوطة : نفس المرجع ص ٢٢٥ — ٢٢٨ .
(٤١) أنظر ابن بطوطة : نفس المرجع ص ٢٣٣ .
(٤٢) انظر د. سعد زغلول عبد الحميد : بحث عن « الحياة الدينية فى المدينة الاسلامية » ص ٨٠ — مجلة عالم الفكر — تصدرها وزارة الاعلام فى الكويت — المجلد الحادى عشر — العدد الأول — ١٩٨٠ م
(٤٣) انظر ما ذكره المقريزى تحت عنوان « ذكر المصليات والمحاريب التى بالقرافة » ج ٢ ص ٤٥٤ ، ٤٥٥ .

كما يمكننا اعتبار مؤسسات أخرى من المؤسسات الدينية اذا نظرنا الى غرض من أغراضها ٠

ز ـ فمثلا « الكتاتيب » كان من ضمن أغراضهـا تحفيظ أبنـاء المسلمين القرآن الكريم وهو غرض دينى ٠

ح ـ « الحمامات العامة » : كان من ضمن أغراض انشائها تحقيق النظافة والتطهر ـ حيث ان النظافة فى الاسلام ليست اختيارية أو كمالية ، ولكنها الزامية لها فروضها وشروطها وأحكامها ٠

وفى كتب الفقه الاسلامى يوجد باب واسع من أبوابه هو « باب الطهارة » حيث تحدث عن الطهـارة من الحدث والخبث ، وكيف أن المسلم وهو فى الصلاة لابد أن يتحقق له طهـارة البـدن ، والثوب ، والمكان ٠٠٠ ، لهذا كله اهتم المسلمون بامور الطهارة ، وقد ذكر المقريزى عن القضاعى انه كان فى مصر الفسطاط الف ومائة وسبعون حماما ٠٠٠ واقل ما كانت الحمامات ببغداد فى أيام الخليفة الناصر احمد بن المستنصر نحو الالفى حمام (٤٤) ٠

وخلاصة القول أن المؤسسات الدينية كثرت فى المجتمع الاسلامى كثرة تؤكد الروح الدينية عند المسلمين ٠

٤ ـ الأثر الدينى فى نوع الطعام والشراب :

وتتضح الروح الدينية عنـد المسلمين كذلك فى نوع وطـرق أكلهم وشربهم حيث كانت أنواع الماكولات التى يتناولها المسلمون تتحدد حسب موقف الشريعة الاسلامية منها ٠

---

(٤٤) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٨٠ ٠

فقد أحل الاسلام الطيبات ، وحرم الخبائث .

قال تعالى : « كلوا من طيبات ما رزقناكم » (٤٥) .

وقال تعالى : «يسألونك ماذا أحل لهم قل احل لكم الطيبات» (٤٦)

وقال : « اليوم احل لكم الطيبات » (٤٧) .

وكان المبدأ السائد فى الامة الاسلامية أن يأكل الناس ما جرت العادة بأكله فى بلدهم دون الخروج على الحدود الشرعية الخاصة بالممنوع من الطعام والشراب .

فالخبز هو سيد الاقوات ، واللحم هو سيد الادام لا يشاركه فى ذلك الا الملح ، روى عن الرسول ﷺ قوله « سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم » (٤٨) ، وقوله « سيد ادامكم الملح » (٤٩) .

وكان للماكولات المذكورة فى القرآن والتى يتردد اسمها كثيرا على الاسماع ، مكانة خاصة بلا شك مثل ما ورد فى قوله تعالى « واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها » (٥٠) او ما ورد فى قوله تعالى « ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا » (٥١) وكذلك ما ورد فى شكل القسم كقوله تعالى « والتين والزيتون ... » (٥٢) .

---

(٤٥) سورة طه آية ٨١ .
(٤٦) سورة المائدة آية ٤ .
(٤٧) سورة المائدة آية ٥ .
(٤٨) ابن ماجة : السنن ج ٢ ص ١٠٩٩ ـ كتاب الأطعمة ـ باب اللحم .
(٤٩) ابن ماجه : السنن ج ٢ ص ١١٠٢ ـ كتاب الأطعمة ـ باب الملح .
(٥٠) سورة البقرة آية ٦١ .
(٥١) سورة النحل آية ٦٧ .
(٥٢) سورة التين آية ١ .

وقـد قسم فقهاء المسلمين الطعام الى قسمين :

منه ما هو جمـاد ، ومنه ما هو حيوان .

فالجمـاد كله حلال ماعدا النجس (مثل الـدم) والمتنجس (أي المختلط بالنجاسة) ، والضار (من السموم وغيرها) ، والمسكر (مثـل الخمر وغيرها من المخدرات) ، وما تعلق به حق الغير (مثل المسروق والمغصوب ...) .

فانه لا يحل شيء من ذلك كله (٥٣) .

والحيوان منه ما هو بحرى ، ومنه ما هو برى :

فأما الحيوان البحرى : فهو حلال كله ، ولا يحرم منه الا ما فيـه سم للضرر (٥٤) .

واما الحيـوان البرى :

فمنه ما هو حلال مثل بهيمة الانعام وهى الابل ، والبقر ، ومنـه الجاموس ، والغنم ويشمل الضأن والمعز ويلحق بها بقر الوحش وابل الوحش والظباء فهذه كلها حلال بالاجماع .

وثبت فى السنة الترخيص فى الدجاج ومثله الاوز والبط والرومى ... الخ (٥٥) .

واختلف المسلمون فى بعض المأكولات مثل لحوم الخيل .

فكأن يأكلها البعض ، ويعافها البعض تبعا للاقليم الذى يعيش فيه ،

---

(٥٣) انظر السيد سابق : فقه السنة — المجلد الثالث ص ٢٦٧ — ٢٦٩ — ادارة احياء التراث الاسلامى — قطر — ١٤٠٥ هـ — ١٩٨٥ م .

(٥٤) المرجع السابق ص ٢٧٠ .

(٥٥) المرجع السابق ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

والمذهب الدينى الذى يأخذ به ـ فقد روى الامام البخارى ما يبيحها ، وقال الامام مالك وأبو حنيفة انها مكروهة لأن الله تعالى ذكرها وبين أنها معدة للركوب والزينة ولم يذكر الأكل (٥٦) .

وقد إمتنع المسلمون عن أكل ما حرمه الله ـ مثـل ما ورد فى قوله تعالى (٥٧) : « حرمت عليكم الميتة (٥٨) والدم (٥٩) ولحم الخنزير(٦٠) وما اهل لغير الله به(٦١) والمنخنقة(٦٢) والموقوذة(٦٣) والمتردية (٦٤) والنطيحة (٦٥) وما أكل السبع (٦٦) الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب » (٦٧) .

ومثل ما رواه أبو داود عن ابن عباس قال « نهى رسول الله ﷺ ، عن أكل كل ذى ناب من السبع ، وعن كل ذى مخلب من الطير » (٦٨) .

---

(٥٦) المرجع السابق ص ٢٧٣ .
(٥٧) سورة المائدة آية ٣ .
(٥٨) الميتة : ما مات حتف أنفه وقد حرم الله الميتة لضررها .
(٥٩) الدم : أى الدم المسفوح وحرم الدم لضرره .
(٦٠) لحم الخنزير : حرمه الله لما ينشأ عنه من ضرر صحى أكده الطب الحديث .
(٦١) ما أهل لغير الله به : أى ذكر اسم غير الله عند ذبحه .
(٦٢) المنخنقة : أى التى تخنق فتموت .
(٦٣) الموقوذة : أى التى ضربت بعصى فقتلت .
(٦٤) المتردية : هى التى تتردى من مكان عال فتموت .
(٦٥) النطيحة : هى التى تنطحها أخرى فتقتلها .
(٦٦) وما أكل السبع الا ما ذكيتم : أى وما جرحه الحيوان المفترس الا اذا أدركتموه وفيه حياة فذبحتموه فانه يحل حينئذ .
(٦٧) وما ذبح على النصب : أى ما ذبح وقصد به تعظيم الطاغوت . والطاغوت : كل ما عبد من دون الله ..
(٦٨) أبو داود (سليمان بن الاشعث السجستانى) : السنن ج ٣ ص ٣٥٥ ـ كتاب الأطعمة ـ باب النهى عن أكل السباع ـ مراجعة محمد محيى الدين ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة .

والسباع : جمع سبع وهو المفترس من الحيوان ، والمراد بذي الناب : ما يعدو بنابه على الناس وأموالهم مثل الذئب والأسد والكلب والفهد والهر فهذه كلها محرمة عند جمهور العلماء .

وأما ذو المخلب من الطير : فالمقصود به الطيور التى تعدو بمخالبها مثل الصقر والشاهين والعقاب والنسر والباشق ونحو ذلك فهى محرمة عند جمهور العلماء (٦٩) .

كما كره المسلمون أكل البصل والثوم بالنسبة للمقبل على الصلاة بسبب رائحتهما الكريهة لما روى عن رسول الله ﷺ « من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا أو ليعتزل مسجدنا وليقعد فى بيته » (٧٠) .

ولأن تذكية الحيوان البرى واجبة فقد حرص المسلمون على ذبح الحيوانات التى يأكلونها حسب تعاليم الشريعة من حيث أن يكون الذابح عاقلا ، وأن تكون الآلة التى يذبح بها محددة ، وقطع الحلقوم والمرىء ، والتسمية والتكبير أثناء الذبح ... (٧١) .

أما الحيوان البحرى فلا يحتاج الى تذكية والأصل فى ذلك قول الله تعالى : « أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة » (٧٢) .

وقول الرسول ﷺ « أحل لنا ميتتان ودمان : أما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان : فالكبد والطحال » (٧٣) .

---

(٦٩) السيد سابق : فقه السنة مج ٣ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .
(٧٠) مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى) : صحيح مسلم ج ١ ص ٣٩٤ كتاب المساجد ومواضع الصلاة « باب نهى من أكل ثوما أو بصلا أو كراثا أو نحوهما » ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ـ دار احياء التراث العربى ـ بيروت .
(٧١) انظر السيد سابق : فقه السنة مج ٣ ص ٢٩٨ ـ ٣٠٢ .
(٧٢) سورة المائدة آية ٩٦ .
(٧٣) سنن ابن ماجة ـ ج ٢ ص ١١٠٢ ـ كتاب الأطعمة ـ باب الكبد والطحال .

وقد ظل بعض المسلمين فى المشرق ، وخاصة ممن كانوا من أصل تركى محتفظين بعاداتهم القديمة التى كانت لا تسمح باراقة الدم ، فكانت تقتل الحيوان بالضرب على الرأس أو تخنقه خنقا حتى يحتفظ اللحم برطوبته أى بكل قيمته الغذائية حسب اعتقادهم ، وكان ذلك ضمن التهم الموجهة الى « الافشين » قائد المعتصم الخليفة العباسى والتى بسببها أدين بالزندقة (٧٤) .

آداب الطعـــام :

التزم المسلمون غالبا ببعض السنن النبوية فى تناول الطعام ـ عرفت بآداب الطعام وكلها كانت نابعة من آداب الاسلام ومن أهمها :

نظافة الأيدى قبل الأكل وبعده : روى أبو داود عن سلمان الفارسى رضى الله عنـــه قال : قال رسول الله ﷺ « بركة الطعـــام الوضوء قبـله والوضوء بعده » (٧٥) .

وبدء الطعام بالبسملة : قال الرسول ﷺ « اذا اكل احدكم طعـاما فليقل باسم الله فان نسى ان يقول باسم الله فى أوله فليقل : باسم الله فى أوله وآخره » (٧٦) .

والانتهاء من الطعام بحمد الله : روى ابن ماجة وغيره أن النبى ﷺ

---

(٧٤) سعد زغلول عبد الحميد : موضوع الحيـــاة الدينية فى المدينـــة الاسلامية ص ٤٦ .

(٧٥) أبو داود : السنن ج ٣ ص ٣٤٦ ـ كتاب الأطعمة ـ باب فى غسل اليد قبل الطعام .

(٧٦) سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٠٨٧ ـ كتاب الأطعمة ـ باب التسمية عند الطعام .

كان اذا أكل وشرب قال : « الحمــد لله الذى أطعمنــا وسقانا وجعلنـا مسلمين » (٧٧) .

والأكل باليد اليمنى : روى البخارى عن عمر بن أبى سلمة رضى الله عنهما قال : كنت غلاما فى حجر رسول الله ﷺ ، وكانت يدى تطيش فى الصفحة (تتحرك فى الاناء) فقال رسول الله ﷺ : يا غلام سم الله ، وكل بيمينك وكل مما يليك » فمازالت تلك طعمتى بعد (٧٨) .

وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال « ليأكل أحدكم بيمينه ، وليشرب بيمينه ، وليأخذ بيمينه ، وليعط بيمينه ، فان الشيطان يأكل بشماله ، ويشرب بشماله ، ويعطى بشماله ، ويأخذ بشماله » (٧٩) .

والا يعيب طعاما قدم اليه : روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « ما عاب النبى ﷺ طعاما قط : ان اشتهاه أكله ، وان كرهه تركه » (٨٠) .

وكذلك من الآداب تصغير اللقمة ، وحسن المضغ ، وعدم الأكل فى الطرقات العامة أو الأسواق .

وعدم الأكل فى آنية الذهب والفضة لنهى الرسول عن ذلك ... الخ
هذه الآداب الرفيعة التى تؤكد سلوك المسلمين الراقى فى كل تصرفاتهم .

---

(٧٧) سنن ابن ماجـة ـ ج ٢ ص ١٠٩٢ ـ باب « ما يقـال اذا فرغ من الطعام » .
(٧٨) البخـارى . صحيح البخـارى ج ٦ ص ١٩٦ باب « التسمية على الطعام والأكل باليمين » ـ المكتبة الاسلامية ـ استانبول (تركيا) ـ ١٩٨١ م .
(٧٩) سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٠٨٧ ـ كتـاب الأطعمـة ـ باب الأكـل باليمين .
(٨٠) صحيح البخارى ج ٦ ص ٢٠٤ باب « ما عاب النبى ﷺ طعاما ».

وبالنسبة للشراب :

فقد امتنع المسلمون عن شرب الخمر - لان الاسلام نهى عن شربها واجتنابها واعتبارها رجسا ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » (٨١) .

وعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال « الخمر أم الخبائث » ، وكما جعلها الرسول ﷺ أم الخبائث ، أكد حرمتها ، ولعن متعاطيها وكل من له بها صلة ، واعتبره خارجا عن الايمان .

فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال « لعنت الخمر على عشرة أوجه ، بعينها ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وحاملها ، والمحمولة اليه ، وآكل ثمنها ، وشاربها ، وساقيها »(٨٢) .

وقد سميت خمرا لانها تخمر العقل وتستره : أى تغطيه وتفسد ادراكه ، وكل ما من شأنه إن يسكر يعتبر خمرا . عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال « كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام » (٨٣) وقال أيضا « كل مسكر حرام ، وما أسكر كثيره فقليله حرام » (٨٤) .

وقد بلغ التشديد في شربها الى حد تحريم التداوى بها روى الامام مسلم عن طارق بن سويد الجعفى أنه سأل رسول الله ﷺ عن الخمر فنهاه

---

(٨١) سورة المائدة آية ٩٠ .
(٨٢) سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١١٢٢ - كتاب الأشربة - باب لعنت الخمر على عشرة أوجه .
(٨٣) سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١١٢٤ - كتاب الأشربة - باب كل مسكر حرام .
(٨٤) سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١١٢٤ - كتاب الأشربة - باب ما أسكر كثيره فقليله حرام .

عنهـا فقال : انمـا أصنعها للـدواء فقـال : « انه ليس بدواء ، ولـكنه داء » (٨٥) .

وروى أبو داود عن أبى الدرداء ان النبى ﷺ قال : « ان الله أنزل الداء والدواء ، فجعل لكل داء دواء ، فتداووا ولا تتداووا بحرام » (٨٦).

وقد اختلف الفقهاء فى شرب النبيذ : وهو ما يعمل من الأشربة من التمر والزبيب والعسل والحنطة والشعير وغير ذلك .

فقال جمهور فقهاء الحجـاز ، وجمهور المحدثين : قليـل الانبـذة وكثيرها المسكرة حرام .

وقال العراقيون ... وغيرهم : ان المحرم من سائر الأنبذة المسكرة هو السكر نفسه ـ لا العين .

وسبب اختلافهم تعارض الآثار والأقيسة فى هذا الباب (٨٧) .

وفى هذا الأمر يقول ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد « فانا نجد النبيذ قد أجازه قوم صالحون ، وكرهه قوم صالحون » (٨٨) .

وهناك من شرب الخمر من المسلمين بلا شك ولكن هؤلاء يمثلون قلة فى أوساط المسلمين كما نعتقد ، وما يذكر فى كتب الأدب من ظاهرة شرب الخمر الذى أصبحت له قواعده ، وأصوله فى المجالس ، فذلك من خيـال الأدباء ، وتلاعبهم بالألفاظ ولا يعكس واقعا لأكثرية المسلمين .

---

(٨٥) صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥٧٣ ـ كتاب الأشربة ـ باب تحريم التداوى بالخمر .

(٨٦) سنن أبى داود ج ٤ ص ٧ ـ كتـاب الطـب ـ باب فى الأدوية المكروهة .

(٨٧) انظر هـذا الاختلاف فى فقه السنة ـ المجلد الثـانى ص ٣٧٦ ـ ٣٨٢ .

(٨٨) انظر د. سعد زغلول : الحياة الدينية ص ٤١ .

آداب الشراب :

وهناك آداب فى تناول الشراب التزم بها كثير من المسلمين أيضا وهى مأخوذة من سنن النبى ﷺ ومن أهمها :

استحباب التسمية والحمد والشرب ثلاثا :

لما رواه الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « لا تشربوا واحدا كشرب البعير ، ولكن اشربوا مثنى وثلاث ، وسموا اذا أنتم شربتم ، واحمدوا ان انتم رفعتم » (٨٩) .

أى انتهيتم من الشرب .

كراهية الشرب من فم السقاء :

لما روى عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : « نهى النبى ﷺ أن يشرب من فى السقاء » (٩٠) .

كراهية النفخ فى الشراب :

لما رواه الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن النبى ﷺ نهى أن يتنفس فى الاناء أو ينفخ فيه » (٩١) .

---

(٨٩) الترمذى (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة) : الجامع الصحيح (سنن الترمذى) ج ٤ ص ٣٠٢ ـ كتاب الأشربة ـ باب ما جاء فى التنفس فى الاناء ـ تحقيق ابراهيم عطوة عوض ـ دار احياء التراث العربى ـ بيروت .

(٩٠) صحيح البخارى ج ٦ ص ٢٥٠ « باب الشرب من فم السقاء » ، سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١١٣٢ .

(٩١) سنن الترمذى ج ٤ ص ٣٠٤ ـ كتاب الأشربة ـ باب ما جاء في كراهية النفخ في الشراب .

النهى عن الشرب من آنية الذهب والفضة :

روى مسلم عن رسول الله ﷺ « من شرب فى اناء من ذهب أو فضة فانمــا يجرجر فى بطنه نارا من جهنم » (٩٢) .

النهى عن امتلاء المعدة فى الاكل والشرب :

فعن رسول الله ﷺ أنه قال « ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فان كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » (٩٣) .

٥ - الأثر الدينى فى الملابس والزينة والمظهر :

والأثر الدينى واضح ايضا عند المسلمين فى طريقة الكساء كمــا هو الحال فى الطعام والشراب .

ولقد انتشرت الملابس العربيــة حتى صارت منــذ وقت مبكر هى الملابس الدارجة فى عالم الاسلام .

وموقف الاسلام من الثيــاب هو موقف الوسط - أى الاعتدال دون تطرف ، وفى ذلك يقول الله تعالى « يا بنى آدم قد انزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشــا ولباس التقوى ذلك خيــر ... »(٩٤) . وتقول الآية القرآنية « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعبــاده والطيبــات من الرزق » (٩٥)

---

(٩٢) صحيح مسلم ج ٣ ص ١٦٣٥ - كتاب اللباس والزينة « باب تحريم استعمال أوانى الذهب والفضة فى الشرب وغيره على الرجــال والنساء » .

(٩٣) سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٩٠ - كتاب الزهد - باب ما جاء فى كراهية كثرة الأكل .

(٩٤) سورة الأعراف آية ٢٦ .

(٩٥) سورة الأعراف آية ٣٢ .

كما يقول الحديث الشريف « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير اسراف ولا مخيلة » (٩٦) .

وعن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ... فقال له رجل : انه يعجبنى أن يكون ثوبى حسنا ونعلى حسنة : قال : ان الله يحب الجمال ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس » (٩٧) .

وروى الترمذى أن الرسول ﷺ قال : « إن الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فنظفوا افنيتكم ولا تتشبهوا باليهود » (ج ٥ ص ١١٢) .

وقد امتنع الرجال عن لبس الحرير واتخاذه فراشا ، وكذلك التختم بالذهب . لأن الاسلام حرم ذلك على الرجال ، بينما أباح الاسلام للنساء لبس الحرير والذهب .

روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال : أخذ رسول الله ﷺ حريرا بشماله ، وذهبا بيمينه ، ثم رفع بهما يديه فقال « ان هذين حرام على ذكور أمتى حل لاناثهم » (٩٨) .

وروى البخارى عن حذيفة رضى الله عنه قال « نهانا النبى ﷺ فقال « لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ، ولا تلبسوا الحرير والديباج ، فانها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة » (٩٩) .

---

(٩٦) صحيح البخارى ج ٧ ص ٣٣ « كتاب اللباس ـ باب قول الله تعالى ـ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده » .
(٩٧) سنن الترمذى ج ٤ ص ٣٦١ ـ كتاب البر والصلة ـ باب ما جاء فى الكبر ـ ومعنى غمص : غمصه ـ أى استصغره ولم يره شيئا .
(٩٨) سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١١٨٩ ـ كتاب اللباس ـ باب لبس الحرير والذهب للنساء .
(٩٩) صحيح البخارى ج ٦ ص ٢٥١ « باب آنية الفضة » .

كما امتنع المسلمون عن صنع الثياب من شعر الخنزير لانه نجس نجاسة عين فلا يجوز استخدامه فى صنع ثياب المسلم لانه لا يتطهر بالغسل .

اما عن قص الثياب وخياطتها وتطريزها الى غير ذلك مما يدخل فى فن الحياكة فقد كانت محكومة بالسنن النبوية ، ومتطلبات فرائض الاسلام (١٠٠) .

ففريضة الحج مثلا كانت تتطلب ذلك الزى المعروف بزى الاحرام وهو من الثياب غير المخيطة ، والتى تتفق مع بساطة الأسلام وسماحته .

وكذلك كان الحجاج لا يلبسون الثياب الملونة ، بل يلبسون الملابس البيضاء النقية الصافية وذلك اتباعا للسنة التى تنهى عن « أن يلبس المحرم ثوبا مصبوغا بورس أو بزعفران » (١٠١) .

واذا تركنا ملابس الاحرام فاننا لا نجد ملابس يمكن أن يطلق عليها اسلامية أو غير اسلامية بل نجد أمامنا مجموعة من التوجيهات بما ينبغى ان تكون عليه ملابس المسلم .

فقد قضت السنة بعدم التبرج فى الملابس ، بل طالبت بلبس الثياب الوقورة المحتشمة التى لا تلهى المصلى فى صلاته مثلا ، ولذلك ترك الرسول ﷺ الثوب المزوق بالاعلام الملونة والذى كان يعرف « بالخميصة » لانه كان يلهى فى الصلاة فاستبدل به غيره عن عائشة قالت صلى رسول الله

---

(١٠٠) انظر د. سعد زغلول : الحياة الدينية ص ٥٢ ، ص ٥٤ .
(١٠١) انظر صحيح البخارى ج ٧ ص ٤٨ « باب الثوب المزعفر » .

ﷺ فى خميصة لها أعلام فقال « شغلتنى أعلام هذه، اذهبوا بها الى أبى جهم ، وائتونى بانبجانيته »(١٠٢) .

وعن الترغيب فى لبس الثوب الابيض قال رسول الله ﷺ « خير ثيابكم البياض فالبسوها ، وكفنوا فيها موتاكم » (١٠٣) .

كما دعت السنة الى أن يكون طول الثوب معتدلا ولا بأس بأن يكون مشمرا اى قصير الطول نوعا ما .

ولذلك كان اطلاق الثوب الى ما بعد الكعبين وجره على الارض مما يدخل فى باب الخيلاء المذمومة بل المنهى عنها وفى ذلك تشير السنة الى ان ما كان أسفل من الكعبين من الازرار أو القميص فهو فى النار ، وأن الله لا ينظر الى من جر ثوبه خيلاء (١٠٤) .

٦ - الاثر الدينى فى نظام المسكن :

وكذلك نلمس الاثر الدينى عند المسلمين واضحا فيما يتصل بمساكنهم وما تعارفوا عليه من آداب فيها .

ويبدو تأثير المسجد واضحا عند المسلمين فى بناء مساكنهم .

فقد كان للمسجد الجامع من الطراز العربى ، وهو طراز مسجد النبى ﷺ فى المدينة اثره الذى لا ينكر فى تصميم الدار فى مدن الاسلام بشكل عام .

---

(١٠٢) سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١١٧٦ - كتاب اللباس - باب لباس رسول الله ﷺ .

(١٠٣) سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١١٨١ - كتاب اللباس - باب البياض من الثياب .

(١٠٤) انظر صحيح البخارى ج ٧ ص ٣٤ - كتاب اللباس - « باب التشمير فى الثياب » ، « باب ما أسفل من الكعبين فهو فى النار » ، « باب من جر ثوبه من الخيلاء » والخيلاء : هو الكبر والبطر .

فقد أصبحت الدار بناء مربع الشكل ـ يتوسطة فناء أشبه ما يكون بصحن الجامع ، وعلى هذا الفناء تفتح أبواب الحجرات ، فكان صحن الدار هو المتنفس لأهلها فهو يمدهم بالشمس ، والضوء ، والهواء ، وهم في داخل حرمهم بعيدا عن أعين الغرباء .

وربما غرس الصحن في الدار الكبيرة بأشجار الفاكهة أو الرياحين حتى يصبح جنة القاطنين فيها تماما كما كان صحن المسجد وخاصة في بلاد الأندلس (١٠٥) .

كما انعكست الروح الدينية عنـــد المسلمين على هندسة المنـــازل وتصميمها في العالم الاسلامي ـ تجـاوبا مع أخلاق الإسـلام وآدابه في حفظ الحرمات وصون الأعراض .

فلم يتسامح فقهـاء المسلمين في كشف حرمات المنـازل بالنظر من أبوابها ، أو أثناء المرور في الشارع ، أو بجرحها من خلال الإطلاع على المنازل المجاورة من الأسطح والكوى التي تكشف بيوت الآخرين .

فبالنسبة لارتفاعات المباني : لم تكن الحرية في الارتفاع بالبناء مطلقة ولكنها مشروطة بعدم الاضرار بالجار أو المار ، فاذا تسبب الارتفاع في مثل هذا الأذى منع ، وان لم يتسبب سمح بالارتفاع .

وكان التصريح بالارتفاع بالبناء يتم بعد موافقة السلطات القضائية المختصة بذلك في المدينة (١٠٦) .

وامتد حكم الفقهاء ليمنع المؤذن من صعود المئذنة التي ترتفع عن البيوت المجاورة ، ويكشف المؤذن من خلالها عورات البيوت ، فقد سئل

---

(١٠٥) د. سعد زغلول عبد الحميد : الحياة الدينية ص ٦١ ، ٦٢ .
(١٠٦) انظر الامام مالك : المدونة ج ٥ ص ٢٣٥ ـ دار صادر ـ بيروت .

« سحنون » عن مؤذن ينظـر من مئـــذنة جامع على عورات البيـوت المجاورة : هل يحق لسكان هذه البيوت التى يفصلها عن الجامع شارع أن يمنعوا المؤذن من صعود المئذنة ؟ فكانت اجابته بمنع المؤذن من الصعود مادام صعوده يتسبب فى الضرر (١٠٧) .

ووصل الأمر فى بعض المدن مثل الكوفة - أن المحتسب كان يتشدد ، فلا يسمح للمؤذن بصعود المئذنة الا اذا كان كفيفا ، حتى لا يؤذى البيوت المجاورة (١٠٨) .

وكان نظام النوافذ فى المنازل يسمح بانشاء النوافذ للضوء ، والهواء دون الاطلال على بيوت الجيران (١٠٩) .

ولحماية اهل المنزل من عيون المارة فيها .. خططت مداخل المنازل بطريقة تمنع هذا الكشف ، وتمثل تخطيطها فى هيئة دهليز او ممر ملتو او منكسر يؤدى اليه الباب المطل على الشارع ، ويوجد فى أحد جـانبى الممر أو الدهليز باب ثان يؤدى الى الصحن أو فناء المنزل ، وبهذه الحيلة التى تجنب بها المعمار أن يكون البابان على محور واحد .

وبوجود هذا الممر الملتوى توفرت الحماية لمن بفناء المنزل من أن يراه المارة بالشارع ، أو الواقف بأحد أبواب البيوت المقابلة .

وكذلك قل عدد النوافذ التى بالطابق الأرضى وضـاقت قياساتها ، وخصصت حجرات هذا الطابق غالبـا لأغراض التخزين لملاءمته لهـــذا الغرض ، ولتعلو الطوابق الرئيسية المستخدمة فى الأغراض المعيشية عن

---

(١٠٧) د. محمد عثمان : المدينة الاسلامية ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ نقلا عن ابن الرامى « الاعلان بأحكام البنيان » .
(١٠٨) انظر د. محمد عثمان : المدينـة الاسـلامية ص ٣٣٤ نقـلا عن السقطى « كتاب فى أدب الحسبة » ص ٧ - باريس - ١٩٣١ م .
(١٠٩) د. محمد عثمان : المدينة الاسلامية ص ٣٣٥ .

مستوى أرضية الشارع لحمايتها من فضول المارة ولتوفير نسبة أكبر من الضوء والهواء والهدوء (١١٠) .

كما استخدم المسلمون سواتر خشبية فى نوافذهم مصنوعة من خشب انخرط على هيئة سواتر أو مشربيات ، تمكن من خلفها من رؤية الشارع ، ولا تمكن من فى الشارع من رؤية من خلفها ، وهو ما يؤكد مدى الحرص على صون الحرمات داخل منازل المسلمين .

وكذلك صممت قاعات الاستقبال فى المنازل تصميما خاصا حيث وضعت غالبا بعيدا عن غرف المعيشة ، والنوم .

وفى المنازل التى كانت قاعات الاستقبال من وحدات تكويناتها كان التوصل اليها من سلالم وممرات خاصة غير تلك التى تؤدى الى بقية وحدات المنزل ، حتى لا يكشف الصاعد اليها أهل المنزل .

وزودت القاعات أحيانا بما يسمى « دولاب المناولة » الذى يسهل على نساء المنزل خدمة من بالقاعة وتزويدهم بالشراب والطعام دون أن يراهن أحد ، وهو دولاب عبارة عن أرفف يدور على محور خشبى ، وتوضع على الأرفف المشروبات والمأكولات ، ثم يدار الدولاب من خارج القاعة فى اتجاه داخل القاعة ليقدم صاحب المنزل لضيوفه ما وضع على رفوفه (١١١) .

ويمثل المنزل فى المدينة الاسلامية أهم أوعية النشاط والحياة الاجتماعية ، ولا سيما أن التعاليم الاسلامية وجهت الى حجب النساء ؛ وتفرغهن للعمل فى بيوتهن لتربية الأولاد ، وخدمة الأزواج ، والقيام

---

(١١٠) د. محمد عثمان : نفس المرجع ص ٣٤٢ .
(١١١) د. محمد عثمان : نفس المرجع ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

بأعباء الحياة الأسرية داخل المنزل ، ولم تحبذ خروجهن الا عند الضرورة .

واقتصرت المنشئات والمرافق العامة فى المدينة على كل ما هو ضرورى ومفيد فانعدم وجود المسارح ، والمنتديات الرياضية ، وغيرها من المنشآت التى ميزت غيرها من المدن كالمدينة اليونانية والمدينة الرومانية .

وحظرت التعاليم الاسلامية انشاء المراقص ، وحانات الخمور، ودور البغاء ، والملاهى ، وغيرها من المنشآت التى تفسد العقيدة وتتعارض مع القيم الاسلامية (١١٢) .

آداب الاستئذان :

وقد التزم المسلمون غالبا ببعض السنن النبوية فى بيوتهم عرفت بآداب الاستئذان وكان أهمها ما يلى :

الأمر بالسلام :

قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » (١١٣) .

ويقول « فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على انفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة » (١١٤) .

وأن تكون صيغة السلام هى « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » كما يستفاد من الاحاديث الصحيحة – روى الترمذى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ قال : « ليس منا من تشبه بغيرنا ، لا تشبهوا

---

(١١٢) د. محمد عثمان : المدينة الاسلامية ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ .
(١١٣) سورة النور آية ٢٧ .
(١١٤) سورة النور آية ٦١ .

باليهود ولا بالنصارى ، فان تسليم اليهود الاشـارة بالأصـابع ، وتسليم النصارى الاشارة بالأكف » (١١٥) ٠

الاستئذان فى الدخول :

قال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا ليستاذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ٠ واذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستاذنوا كمـا استاذن الذين من قبلهم » (١١٦) ٠

فقبل البلوغ شرع الاستئذان فى أوقات ثلاثة لما يخشى أن يكون الرجل أو المرأة فى حالة لا يجب ان يطلع عليها أحد من اولاده الصغار ٠

أما اذا بلغ الأطفال سن البلوغ والرشد فعليهم أن يستاذنوا فى هذه الأوقات الثلاثة وفى غيرها ٠

أن يعلن الطارق عن اسمه أو صفته أو كنيته :

ففى الصـحيحين عن أبى موسى ٠ لمـا جلس النبى ﷺ على بئـر البستان وجاء ابو بكر فاستاذن ، فقال ابو موسى من ؟ قال ابو بكر ثم جاء عمر فاستاذن فقال من ؟ قال عمر ثم عثمان كذلك ٠

وفى البخارى عن جابر رضى الله عنه قال : « أتيت النبى ﷺ فى

(١١٥) سنن الترمذى ج ٥ ص ٥٦ ، ٥٧ ـ كتاب الاستئذان ـ باب ما جاء فى كراهية أشارة اليد بالسلام ٠
(١١٦) سورة النور آية ٥٨ ، ٥٩ ٠

دين كان على أبى فدققت الباب فقال : من ذا ؟ فقلت أنا فقال عليه الصلاة والسلام : أنا أنا ؟ كأنه كرهها » (١١٧) .

ان يستاذن ثلاث مرات :

روى الامام مسلم عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « الاستئذان ثلاث ، فان أذن لك والا فارجع » (١١٨) .

ان لا يدق الباب بعنف :

فقد أخرج البخارى عن انس بن مالك رضى الله عنه « ان أبواب رسول الله ﷺ كانت تقرع بالاصابع » .

أن يتحول عن الباب عند الاستئذان :

وذلك مظنة وقوف امرأة أجنبية أثناء فتح الباب ، والاستئذان شرع من أجل النظر قال الرسول ﷺ « انما جعل الله الاذن من أجل البصر »(١١٩) .

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من اطلع فى بيت قوم فقد حل لهم أن يفقئوا عينه » (١٢٠) .

آداب المجلس :

فاذا ما اذن للطارق وضمه مجلس فقد كانت هناك آداب أخرى عرفها المسلمون من دينهم ، وسنة نبيهم وكان أهمها ما يلى :

---

(١١٧) صحيح البخارى ج ٧ ص ١٣١ ـ كتاب الاستئذان ـ باب اذا قال من ذا فقال أنا .
(١١٨) صحيح مسلم ج ٣ ص ١٦٩٤ ـ كتاب الآداب ـ « باب الاستئذان »
(١١٩) صحيح مسلم ج ٣ ص ١٦٩٨ ـ كتاب الآداب ـ « باب تحريم النظر فى بيت غيره » .
(١٢٠) صحيح مسلم ج ٣ ص ١٦٩٩ ـ نفس الكتاب والباب السابق .

أن يصافح من يلتقى بهم فى المجلس :

لما رواه ابن ماجة عن البراء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان الا غفر لهما قبل أن يتفرقا » (١٢١).

وفى الموطأ للامام مالك عن عطاء الخرسانى قال : « قال رسول الله ﷺ : تصافحوا يذهب الغل ـ الحقد ـ ، وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء » (١٢٢) .

أن يجلس فى المكان الذى يخصصه له رب المنزل :

ويتفق هذا مع قول الرسول ﷺ « ومن دخل دار قوم فليجلس حيث امروه فان القوم أعلم بعورة دارهم » .

أن لا يجلس بين اثنين الا باذنهما :

لما رواه أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال « لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين الا باذنهما » (١٢٣) .

أن يجلس القادم حيث ينتهى به المجلس :

لما روى أبو داود عن جابر بن سمرة رضى الله عنهما قال « كنا اذا اتينا النبى ﷺ جلس أحدنا حيث ينتهى » (١٢٤) .

---

(١٢١) سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٢٢٠ ـ كتاب الأدب ـ باب المصافحة .
(١٢٢) مالك بن أنس : المؤطأ ج ٢ ص ٩٠٨ ـ كتاب حسن الخلق ـ باب ما جاء فى المهاجرة ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ـ دار احياء التراث العربى ـ ١٩٥١ م .
(١٢٣) مالك بن انس : الموطأ ج ٢ ص ٩٠٨ ـ كتاب حسن الخلق ـ باب يجلس بين الرجلين بغير اذنهما .
(١٢٤) سنن أبى داود ج ٤ ص ٢٥٨ ـ كتاب الأدب ـ باب فى التحلق .

أن لا يتسار اثنان فى حضرة ثالث فى المجلس :

لما روى البخارى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس أجل أن يحزنه » (١٢٥) .

أن يستأذن قبل انصرافه من المجلس :

لقول الرسول « انما جعل الله الاذن من أجل البصر » (١٢٦) وكما قلنا ان الاستئذان للداخل يكون أيضا عند الانصراف .

أن يقرأ دعاء كفارة المجلس :

فعن أبى برزة رضى الله عنه قال كان رسول الله ﷺ اذا أراد أن يقوم من المجلس قال : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا اله الا أنت ، استغفرك وأتوب اليك » فقال رجل يا رسول الله انك لتقول قولا ما كنت تقوله فيما مضى ؟ قال « كفارة لما يكون فى المجلس » (١٢٧) .

ولا شك أن هذه الآداب الكثيرة التى تحدثنا عنها فيما يتصل بالطعام ، والشراب ، والمسكن ... هى آداب راقية ، جاءت حافلة بقواعد الأخلاق والسلوك الانسانى الرفيع ، والآداب الاسلامية العالية ، التى لا تقل عما يعرف الآن « بالاتيكيت » (١٢٨) فى أعظم الدول الراقية .

---

(١٢٥) صحيح البخارى ج ٧ ص ١٤٢ ـ كتاب الاستئذان « باب اذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارة والمناجاة » .

(١٢٦) صحيح مسلم ج ٣ ص ١٦٩٨ .

(١٢٧) سنن أبى داود ج ٤ ص ٢٦٥ ـ كتاب الأدب ـ باب فى كفارة المجلس .

(١٢٨) الاتيكيت « Etiquette » كلمة تعنى عند الأوربيين آداب المجتمع ، أى الأفعال الحميدة التى تصدر عن الانسان ، ويرضى عنها الناس باعتبارها افعالا تقوم على المنطق والتمييز والفهم والكياسة والذوق السليم .

لقد عرف المسلمون هذه الآداب ، وعملوا بها فور ظهور الاسلام فى القرن السابع للميلاد ، فى حين أن الأوربيين لم يبدأوا العمل بأصول « الاتيكيت » الا فى أواخر القرن السابع عشر فى بلاط لويس الرابع عشر ملك فرنسا أى أن المسلمين قد سبقوا الأوربيين فى هذا المضمار بمدة ألف عام تقريبا (١٢٩) .

الا ما أحوجنا اليوم الى أن نعود للتمسك بهذه الآداب ، وتلك الأخلاقيات التى وضع الاسلام أسسها منذ أربعة عشر قرنا ، لأنها بلغت حدا من الكمال والسمو يؤكد أن « أصول الاتيكيت » عند الغربيين انما هو فرع متواضع فى دوحة الآداب والأخلاق الاسلامية العظيمة .

٧ ـ الحسبة من الوظائف الدينية :

ومما يؤكد الروح الدينية عند المسلمين . أن « الحسبة » كانت من الوظائف الدينية ، يقول الماوردى « والحسبة من قواعد الأمور الدينية » (١٣٠) أى أنها كانت مثل امامة الصلاة ، والقضاء ، برغم ما نعرفه من أن مهام المحتسب فى جزء منها كانت تتصل بالنظم التى تسير دنيا الناس كما سنرى .

فالحسبة : هى الأمر بالمعروف اذا ظهر تركه ، والنهى عن المنكر اذا ظهر فعله وذلك فرض على القائم بأمور المسلمين يعين لذلك من يراه أهلا له (١٣١) .

---

(١٢٩) محمد جمال الدين رفعت : آداب المجتمع فى الاسلام ص ١٢ ـ ادارة احياء التراث الاسلامى ـ بدولة قطر ـ ١٩٨٢ م .

(١٣٠) انظر الماوردى : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ص ٢٩١ ـ المكتبة التوفيقية ـ القاهرة ، ابن الاخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ص ٥١ ـ تحقيق د. محمد محمود شعبان ، صديق أحمد عيسى المطيعى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٦ م .

(١٣١) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٢٧٠ .

قال تعالى : « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (١٣٢) . وقال « كنتم خير أمة اخرجت للنـــاس تامرون بالمعـــروف وتنهون عن المنـــكر وتؤمنـــون بالله »(١٣٣) .

وقال الرسول ﷺ « من رأى منكرا فلينكره بيده ، ومن لم يستطع فبلسانه ، ومن لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان » (١٣٤) .

وكان للمحتسب اختصاصات كثيرة (١٣٥) .

فهو ينظر فى إحكام الشرع ويعاقب من يعبث بالشريعة ، كما كـان يشرف على نظام الأسواق ، ويحول دون بروز الحوانيت مما يعوق المرور، واستيفاء الديون ، ويكشف على الموازين والمكاييل منعا للتطفيف ، كمـا كان يمنع التعـدى على حقوق الجيـران ، ويراقب السلع المعروضة فى الأسواق ..... الخ .

وعلى وجه الاجمال كان للمحتسب مهام تتعلق بالمجال الدينى ، ومهام تتعلق بالمجـال الاقتصادى والاجتماعى ، ومهام تتعلق بالمجـال الصحى .

---

(١٣٢) سورة آل عمران آية ١٠٤ .
(١٣٣) سورة آل عمران آية ١١٠ .
(١٣٤) سنن الترمذى ج ٤ ص ٤٧٠ ـ كتاب الفتن ـ باب ما جاء فى تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب .
(١٣٥) أنظـر المـاوردى : الاحـكام السلطانية ص ٢٧٣ ـ ٢٩٠ ، ابن الاخوة : معالم القربة أحكام الحسبة حيث وضح ذلك بالتفضيل عبر أبواب الكتاب ، سهام مصطفى أبو زيد : الحسبة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى الى نهاية العصر المملوكى ص ١٤١ ـ ٢١٤ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٨٦ م .

أى أن المحتسب كان يقوم ببعض مهام شرطة الآداب ، وموظفى البلدية ، ومفتشى التموين ، وشيوخ الحارة وغيرهم من موظفى الحكومات الحديثة .

وهكذا نرى المسلمين ينظرون الى الاعمال الدنيوية المحضة التى تتعلق بالدنيا والنظام دينا ، حيث انه لا انفصال فى الاسلام بين الدين والدنيا ، فكل مايصلح أمور الدنيا ، وأمور الناس هو دين يحرص عليه المسلمون ..
وهذا ما نلمحه فى نظرة المسلمين الى المحتسب .

٨ - رجال الدين يحتلون مكانة رفيعة فى المجتمع :

ومما يؤكد الروح الدينية عند المسلمين - احترام المسلمين لرجال الدين من العلماء والفقهاء ، واحلالهم مكانة رفيعة ومنزلة عالية فى مجتمعاتهم الاسلامية عبر العصور المتعاقبة ، ولو أردنا أن نتحدث عن مظاهر احترام الحكام والشعب لهؤلاء العلماء والفقهاء ، لوجدنا أمامنا صورا كثيرة تعبر عن هذا الاحترام وتلك المكانة التى كان عليها رجال الدين .

روى أبو معاوية الضرير قال : أكلت مع الخليفة هارون الرشيد يوما ، ثم صب على يدى رجل لا أعرفه ، ثم قال الرشيد : تدرى من يصب عليك ؟ قلت : لا .. قال : أنا اجلالا للعلم (١٣٦) .

كما روى أن الخليفة هارون الرشيد طلب الامام مالك بن أنس ليأتى اليه فأجابه « أن العلم يؤتى ولا يأتى» فسار الرشيد الى منزل مالك بن أنس (١٣٧) .

---

(١٣٦) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٤٥٤ - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - دار نهضة مصر - القاهرة .
(١٣٧) انظر ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ج ١ ص ٢٩٠ - ٢٩١ - دار الآفاق الحديثة - بيروت .

ولما مات الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) تبع أهـــل البصرة كلهم فلم يبق بالمسجد من يصلي العصر ... (١٣٨) .

واما الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ هـ فقد « كان السلطان لاجين (سلطان مصر) ينزل له عن سريره ويقبل يده » (١٣٩).

ولمـــا مات سلطان العلماء الشيخ عز الدين بن عبد السلام سنة ٦٦٠ هـ .وكان من كبار علماء عصره فى مصر ومرت « جنازته تحت القلعة ، وشاهد الملك الظاهر كثرة الخلق الذين معها قال لبعض خواصه اليوم استقر أمرى فى الملك ، لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس اخرجوا عليه لانتزع الملك مني » (١٤٠) .

ويطول بنا الحديث لو استعرضنا هذه الصور الكثيرة التى تعبر عن احترام المسلمين لعلمائهم الكبار الذين خدموا دينهم فوصلوا الى مكانة ليس بعدها مكانة .

٩ ـ الاحتفال بالأعياد الدينية الاسلامية :

ونلمس الروح الدينية عند المسلمين أيضا فى احتفالاتهم بالاعيـــاد والمناسبات الدينية . والذى وردت به الشريعة وجاءت به السنة عيدان : عيد الفطر ، وعيد الأضحى .

والسبب فى اتخاذهما ما رواه النسائى فى سننه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كان لأهل الجاهلية يومان فى كل سنة يلعبون فيهمـــا

---

(١٣٨) انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان ج ٢ ص ٧٢ تحقيق د. احسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت .

(١٣٩) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة ج ٤ ص ٩٤ ـ دائرة المعارف العثمانية ـ الهند ـ ١٣٤٨ هـ ـ ١٩٢٩ م.

(١٤٠) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ج ٥ ص ٨٤ ـ المطبعة الحسينية ـ القاهرة .

فلما قدم النبى ﷺ المدينة قال كان لكم يومان تلعبون فيهما وقد أبدلكم الله بهما خيرا منهما يوم الفطر ويوم الاضحى (١٤١) .

وابتدع الشيعة عيدا ثالثا وسموه عيد الغدير .

وسبب اتخاذهم له مؤاخاة النبى ﷺ لعلى كرم الله وجهه يوم غديرخم :- وهو غدير على ثلاثة أميال من الجحفة يسرة الطريق تصب فيه عين وحوله شجر كثير ، وهى الغيضة التى تسمى خما .

وذلك أن الرسول ﷺ لما رجع من حجة الوداع ، نزل بالغدير ، وآخى بين الصحابة ولم يؤاخ بين على وبين احد منهم ، فرأى النبى ﷺ منه انكسارا فضمه اليه وقال « اما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسي الا أنه لا نبي بعدي ، والتفت الى اصحابه وقال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » .

وكان ذلك فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة عشر من الهجرة .

والشيعة يحيون ليلة هذا العيد بالصلاة ويصلون فى صبيحتها ركعتين قبل الزوال وشعارهم فيه لبس الجديد ، وعتق العبيد ، وذبح الاغنام ، والحاق الاجانب بالاهل فى الاكرام (١٤٢) .

وقد أضاف المسلمون الى هذين العيدين مناسبات دينية أخرى احتفلوا بها (١٤٣) مثل المولد النبوى الشريف ، ورأس السنة الهجرية ،

---

(١٤١) النسائى (أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر النسائى) : سنن النسائى ج ٣ ص ١٧٩ ، ١٨٠ ـ كتاب صلاة العيدين ـ المكتبة العلمية ـ بيروت .

(١٤٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤١٦ ، ٤١٧ .

(١٤٣) انظر ما كتبه د . سعيد عاشور فى كتابه « المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك » عن هذه الاعياد ومظاهر احتفال المسلمين بها ص ١٧٦ ـ ١٩٢ ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ـ ١٩٦٢ م ـ الطبعة الأولي .

وخروج موكب الحج وعودته وليالى الوقود واهمها أول ليلة من شـهر رجب ، وليلة السابع والعشرين منه وهي ليلة المعراج - وليلة النصف من شعبان - والاحتفال بشهر رمضان ...

وفى هذه الاحتفالات - كان النـاس يتقربون الى الله بالطـاعات ، ويتصدقون بأنواع الصدقات ، كما كانوا يقيمون الزينات ، ويكثرون من الأضواء ، وعمل الولائم .

وكان الحكام والأغنياء يوسعون على العلماء ، ويوزعون الصدقات على الفقراء والمحتاجين .

١٠ - التوجه الدينى فى اختيار الأسماء :

ومما يؤكد الروح الدينية عند المسلمين - ما شاع فى اختيار أسمائهم ، وتعلقهم بالذكريات الاسلامية ، والألقاب المتصلة بالدين .

فهناك أسماء ارتبطت بذكريات الاسلام وأحداثه مثل بدر .

وهنـاك أسماء ارتبطت بأسماء الرسول ﷺ مثل محمـد ومحمود وأحمـد ....

أو بأسماء الأنبياء السابقين عليهم السلام مثل ابراهيم ، وموسى ...

وهناك أسماء ارتبطت بأسماء الصحابة كأبى بكر وعمر وعثمان ، ومثل خديجة ، وعائشة ، وفاطمة ...

وهناك أسماء ارتبطت بأماكن اسلامية عزيزة على نفوس المسلمين مثل حجازى ، مكى ...

وهناك أسماء ارتبطت بأصحاب أئمة المذاهب الفقهية مثل مالك ، والنعمان ، والشافعى ...

وأسـماء ارتبطت بأعـلام الطرق الصوفية مثل ، الجنيـدى ، والشاذلى ، والدسوقي ...

وهناك أسماء اضيفت الى اسم الجلالة مثل عبد الله ، وعبد المقصود.
أو اضيفت الى الدين مثل صلاح الدين ، شمس الدين .

وقد شاعت هذه الأسماء فى المجتمع الاسلامى قديمـــا ، وحرص المسلمون على تسمية أولادهم بهـذه الأسماء التى تعكس تعلقهم بالـدين ورموزه وذكرياته ، بعكس ما نراه اليـــوم من اســـماء تعددت وتنوعت وابتعدت عن تلك الأسماء القديمة التى امست وكان التسمية بها لون من الوان الرجعية أو نوع من التأخر لتمتلىء الساحة بكل غريب وعجيب فى دنيا الأسماء مما يعكس فقداننا للهوية ، ومسخا للشخصية ، وانجرافا نحو التقليد والتبعية .

١١ ـ الروح الدينية تصبغ الحياة اليومية للمسلم :

لقد كانت الروح الدينية تصبغ الحياة اليومية للمسلم فى كل حركاته وسكناته .

فأذان الفجر يمثل بداية اليوم بالنسبة للمسلم ـ فهو يصـحو على صوت المؤذن لأداء صلاة الصبح ، كذلك كان من الممكن لرب الدار أن يذهب الى الحمام القريب اذا أراد الغسل ، وذلك أن موعد افتتاح الحمام كـان يسبق صلاة الفجر بما يقرب من ساعتين .

ثم يتناول طعام الفطور ، وبعـد أن يتناول طعـــام الفطور تكون الشمس قد طلعت فيستعد للخروج الى عمله ـ الى الديوان مثلا ان كان من خاصة الأمير ، أو الى المسجد الجامع ان كان قاضيا ، أو فقيها عالما ، أو الى متجره ان كان تاجرا ، ويظل الرجل يصرف عمله الى وقت الظهيرة فيخرج لأداء الفريضة ثم يعود الى بيته لتناول الغذاء (١٤٤) .

---

(١٤٤) انظر د. سعد زغلول عبد الحميد : الحياة الدينية ص ٦٤ ، ٦٥.

الاذان وتنظيم الوقت عند المسلمين :

وكانت الصلوات الخمس التى يؤديها المسلم تخطى مزاتة فى اليوم ما بين الفجر والعشاء تجدد وتنظم الوقت للمسلمين ، حيث كانت أعمال المسلمين تبدأ وتنتهى ، واللقاءات تتم ، والحاجات تقضى تبعا لمواعيد الصلاة .

يؤكد هذا ما عثرنا عليه فى حجج الوقف التى كانت تحدد أوقات الدراسة فى معاهد التعليم المختلفة حيث كان التحديد يراعي دائما أوقات الصلاة .

فدرس الحديث مثلا فى مدرسة الأمير صرغتمش الناصرى حددته الحجة « فيما بين صلاة الظهر التى يصلونها بالجامع الطولوني والى صلاة العصر » (١٤٥) .

وفى حجة مغلطاى الجمالى حددت الحجة وقت الدروس بالخانقاه « بعد صلاة الصبح كل يوم إلى آذان الظهر » (١٤٦) .

... وهكذا كان المجتمع الاسلامى يهتم باوقات الصلاة ويرتب أعماله على أساس مواقيتها ، وليتنا نعود الى هذه الروح ونضع مواعيد الصلوات فى اعتبارنا ونحن ننظم مواعيد أعمالنا فى المصالح والمعاهد والجامعات .

أجل لقد كانت الروح الدينية تسيطر على المسلم فى كل تصرف من تصرفاته ، وفى كل عمل من اعماله طوال يومه ، فى عقيدته ، وعبادته ، وأحوال معاشه من المأكل ، والمشرب ، والملبس ، والمسكن ، وكذلك فى

---

(١٤٥) أنظر حجة صرغتمش الناصرى بارشيف وزارة الأوقاف — رقم ٣١٩٥ بتاريخ ٢٧ رمضان سنة ٧٥٧ هـ .

(١٤٦) انظر حجة مغلطاى الجمالى بأرشيف وزارة الأوقاف — رقم ١٦٦٦ رقم المحفظة ٦٦ بتاريخ ٢٩ ربيع الآخر سنة ٧٢٩ هـ .

المعاملات ، والعلاقات بين أفراد المجتمع ، وفى الأخلاق ، والسلوك ، والعادات والتقاليد ...

لقد كان اسم الله على الشفاه فى كل وقت وحين ، وكان التوجه اليه فى كل نية وعمل ، وكان طلب مرضاته فى كل فعل أو ترك .

حقا لقد كان الدين الاسلامى يتغلغل فى كل حركات المسلم وسكناته ، وينظم شئون الفرد والجماعة فى كل مجال من المجالات ، وفى كل ناحية من النواحى مادية أو معنوية .

فعلاقة المسلم بدينه تلازمه منذ ان يستيقظ والى أن ينام ، ومنذ أن يؤمر بالتكاليف والى أن يموت .

من أجل هذا قلنا ان أولى سمات وخصائص الحضارة الاسلامية أنها حضارة تبدو فيها « **قوة الروح الدينية** » بارزة واضحة .

وعندما نقول بهذه الحقيقة ، فقد يتصور البعض أن الاسلام يهتم بالآخرة دون الدنيا ، ولذلك نود ان نؤكد أن هذا التصور خاطىء تماما ، ولعل فيما ذكرناه من اهتمام الاسلام بشتى نواحى الانسان ، وشئون الحياة ، ما يبطل هذا التصور ، ولكننا نزيد الأمر وضوحا وتبيانا فنتحدث عن سمة أخرى من سمات الحضارة الاسلامية وهى انها « **حضارة تقوم على عمارة الدنيا والاقبال على الحياة** » ليتأكد لنا ان الحضارة الاسلامية جمعت بين العمل للدنيا والعمل للآخرة .

* * *

الفصل الرابع

حضارة تقوم على عمارة الدنيا والاقبال على الحياة

علاقة الاسلام بالدنيا :

ان من الخطأ أن يتصور أحد أن الاسلام يعمل للآخرة فقط ، ولا علاقة له بشئون الدنيا ، وأنه علاقة بين العبد وربه لا يتجاوزها الى واقع حياة الانسان .

فهذه الفكرة الخاطئة لا يرددها الا أعداء الاسلام الذين يشوهون حقائق الاسلام ، ولا يريدون للمسلمين ان يستحوذوا على دنياهم ويتملكوا زمامها .

فمن الحقائق التى ينبغى أن نعيها جيدا أن الدين الاسلامى لا يفرق بين الدنيا والآخرة لأنهما طريق واحد أوله فى الدنيا ، وآخره فى الآخرة ، وكل عمل يعمل فى الدنيا لا تنتهى نتائجه فى الدنيا وانما تترتب عليه نتائج أخرى فى الآخرة(١) .

قال تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »(٢) .

ليس من طبيعة الاسلام الانقطاع عن الدنيا وازدرائها واحتقارها ،

---

(١) محمد قطب : المجتمع الاسلامى المثالى وخط الانحراف عنه والغزو الفكرى فى البلاد الاسلامية ، ص ٥٢ .
(٢) سورة الزلزلة : الآيات ٧ ، ٨ .

والعكوف على الأوراد والتسابيح ، فقد حرم الاسلام الرهبانية ، فلا رهبانية فى الاسلام ، كما انه ليس من طبيعته عبادة الدنيا ، والالتفات الى البطون وترك العقول ، وايثـار المـادة ، وتزكية الحيوانية وبغض الروحانية ، وفصل الحياة عن القيم ، والالتفات الى العاجلة وترك الباقية .

وانما طبيعة هذا الدين اصلاح الدنيا للوصول بثوابها الى الآخـرة قال تعالى : « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليـك ولا تبغ الفسـاد فى الأرض ان الله لا يحب المفسـدين** »(٣) .

حث الاسلام على العمـل :

ان للعمل فى الاسـلام مكانة مرموقة ، وانه لعمـل يتسـع للحيـاة ويستجيب لمطـالبها ـ ويتجدد معها وبها ـ عمل يشـمل شئون الخدمات الانسانية كلها ، ووسائل الانتاج ، وتطوير أدواتها ، وهو فى الوقت نفسه ينظم طاقة الأمة ويوجهها نحو الهدف الكبير ، وهو يشمل الاعداد لملاقاة العدو ، وتطوير القوة وتصاعدها لتردع أعداء الله ، وبهذا كله يكون العمل فى خدمة الحياة وصناعة الحضارة .

ولابد للعمل فى حضارة الاسلام أن ينتظمه تخطيط دقيق ، وبهـذا يبرز الترابط بين الايمان والعمل والعلم(٤) .

أن العمل فى الاسلام قيمة أساسية من قيم المجتمع المسلم ، ومن ثم

---

(٣) سورة القصص : آية ٧٧ .

(٤) توفيق محمد سبع : قيم حضارية ، ج ٢ ص ٢١٤ .

كان العمل فى منهج الاسلام للذكر والانثى «فاستجاب لهم ربهم انى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض »(٥) .

ويحيط الاسلام العمل بقداسة ، ويمنح اليد العاملة توقيرا حتى ليقبل نبى الاسلام يدا ورمت من العمل ويقول «هذه يد يحبها الله ورسوله» وتتوارد أحاديثه تترى عن هذه القداسة « من امسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له » ، « ان الله يحب العبد المحترف » ، وعن أبى هريرة قال ؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهرة فيتصدق منه فيستغنى عن الناس ، خير له من أن يسأل رجلا ، أعطاه أو منعه ذلك ، فان اليد العليا افضل من اليد السفلى وابدأ بمن تعول(٦)

العمل أساس التفاضل بين الناس :

ويبين الاسلام أن الأعمال هى قوام المسلم ، وان التفاضل بين الناس يكون على اساس العمل ، وان الأعمال هى ميزان بها يصعد المسلم او يهوى ، وبها يسود فى الارض أو ينحدر ، وبها يحاسب عند ربه وينال الثواب والعقاب .

قال تعالى : « ولكل درجات مما عملوا »(٧) وقال « من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا »(٨) ، « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم

---

(٥) سورة آل عمران : آية ١٩٥ .
(٦) سنن الترمذى ج ٣ ص ٦٤ ، ٦٥ « باب ما جاء فى النهى عن المسألة » .
(٧) سورة الأحقاف : آية ١٩ .
(٨) سورة النساء : الآيات ١٢٣ ، ١٢٤ .

في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم »(٩) « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار »(١٠) .

العمل للدنيا عبادة :

وقد نبه الرسول ﷺ الى أن العمل للدنيا من الدين ، وأنه شيمة الأنبياء والمرسلين سواء كان هذا العمل زراعة أو صناعة أو تجارة أو حرفة أو وظيفة ، قال تعالى : « اعملوا آل داود شكرا »(١١) ، ويقول النبى ﷺ « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وان نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده »(١٢) ، وكان رسول الله ﷺ يقول لأصحابه « انى لا أحب أن أجلس وانتم تعملون » .

ان الاسلام يوجب على معتنقيه أن يجعلوا مجتمعهم أجدر بالحياة ، وأقدر على النجاح ، وكل ما يعين على ذلك فهو دين ، أو كما يقول علماء الاصول « ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب » .

كما ينظر الاسلام الى كل مسلك يجعل المجتمع الاسلامى أضعف من غيره خيانة وعصيانا يوجب غضب الله تعالى .

اننا عندما ننظر الى العبادات السماوية نجد اداءها فى اليوم والليلة لا يستغرق نصف ساعة ، ونجد تعاليمها تستغرق عدة صفحات ، ويبقى الزمان بعد ذلك واسعا ، والمجال رحبا لفهم الحياة ، واكتشاف طاقاتها وتسخيرها كلا وجزءا لخدمة الدين(١٣) .

---

(٩) سورة النور : آية ٥٥ .
(١٠) سورة ص : آية ٢٨ .
(١١) سورة سبأ : آية ١٣ .
(١٢) صحيح البخارى ج ٣ ص ٩ « باب كسب الرجل وعمله بيده » .
(١٣) محمد الغزالى : مشكلات فى طريق الحياة الاسلامية ، ص ٢٤ ـ كتاب الأمة ـ عدد رقم (١) ـ يصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية فى دولة قطر ـ جمادى الآخرة ١٤٠٢ هـ .

وكل جهد يبذل فى ذلك يسمى شرعا عملا صالحا ، وجهادا مبرورا لخدمة الدين يؤهل المرء لرضوان ربه «**فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون**»(١٤) •

ومن المستحيل اقامة مجتمع ناجح الرسالة اذا كان أصحابه جهالا بالدنيا ، عجزة فى الحياة ، والصالحات المطلوبة كما وردت فى الآية القرآنية تصنعها كما يقول الشيخ محمد الغزالى « فاس الفلاح ، وابرة الخياط ، وقلم الكاتب ، ومشرط الطبيب ، وقارورة الصيدلى ، ويصنعها الغواص فى البحر ، والطيار فى جوه ، والباحث فى معمله ، والمحاسب فى دفتره ، يصنعها المسلم صاحب الرسالة وهو يباشر كل شىء ويجعل منه أداة لنصرة ربه ، واعلاء كلمته »(١٥) •

ثم يوضح الشيخ الجليل أنه أمام حاجة المجتمع الاسلامى ، وأمام توزيع المسئوليات على أفراده يمكن أن يتحول فرض الكفاية ليصير فرض عين ، ولذا نراه يقول : « •• ان فرض الكفاية يأخذ هذه التسمية قبل أن يختار الشخص المناسب ويتحدد الجهد المطلوب ـ أما بعد الاختيار والتحديد فانه يتحول الى فرض عين ، وعلى من كلف به أن يستفرغ الوسع فى اتمامه »(١٦) •

ان العمل فى الاسلام واجب شرعى ، وعمارة الأرض مسئولية المسلم الذى ينبغى عليه أن يكون أمينا على تعاليم دينه ، منفذا لأوامر الاسلام وتوجيهاته •

---

(١٤) سورة الأنبياء : آية ٩٤ •
(١٥) محمد الغزالى : مشكلات فى طريق الحياة الاسلامية ص ٢٤ ، ٢٥
(١٦) محمد الغزالى : المرجع السابق ، ص ٢٩ •

وعبادة الله فى الاسلام شاملة لكل فكر مخلص ، وكل عمل مخلص ، والعلم بالكون تسبيح للصانع الذى أتقن كل شىء ، وتجلية لبديع صنعه ، وهكذا يخشى الله من عباده العلماء ،

أن التدين الصحيح لا يرتضى بحال أن تصرف شعائر العبادة عن طلب الرزق ، وقد أعفى الله سبحانه وتعالى جمهور المؤمنين من قيام الليل وطول القراءة فيه اذا كانوا يعانون من الجهاد فى سبيل الله ، أو طلب الرزق من هنا وهناك « والله يقدر الليل والنهار علم ان لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرءوا ما تيسر منه »(١٧) ٠

فانظر كيف وضع الاسلام السعى فى الأرض ابتغاء الرزق فى مرتبة الجهاد ؟؟ ٠٠٠

كما وضح الاسلام أن كل عمل يعود اثره الطيب على الناس حتى ولو كان يسيرا يقول الرسول ﷺ « الايمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول لا اله الا الله ، وادناها اماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الايمان »(١٨) ٠

ويقول ﷺ « كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها

---

(١٧) سورة المزمل : آية ٢٠ ٠
(١٨) صحيح مسلم ج ١ ص ٦٣ « باب بيان عدد شعب الايمان وأفضلها وأدناها ٠٠ » ٠

أو ترفع عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة تمشيها الى الصلاة صدقة وتميط الأذى عن الطريق صدقة »(١٩) .

وهكذا يظاهر الايمان كل عمل صالح فى مختلف مجالات الخير « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »(٢٠) .

ولقد أكدت تعاليم الاسلام أن التوكل على الله ليس تواكلا ، بل هو قرين للجد فى العمل يباركه ويزكيه . ويقى العامل من التوقف عن ابتغاء فضل الله وطلب رزقه بطرا أو قنوطا .

وان الزهد هو أن يزهد المؤمن فيما ملكه من طيبات الدنيا بكده وكسبه الحلال فيهبه لصالح جماعة المسلمين ، أو للفقراء والمساكين . وليس الزهد أن يزهد المرء فيما لم تصل اليه يده ولم يدخل فى ملكه .

الاسلام عدو التبطل باسم الدين :

ان الاسلام يجعل العمل سمة المسلم ، ومظهر تجاوبه مع رسالة الوجود ، وانقياده لأمر الله ، وفقهه لطبيعة الدنيا وحقيقة الدين .

ولهذا كان « العمل أس المقاصد » ، وفضله الاسلام على الانقطاع

---

(١٩) صحيح مسلم : ج ٢ ، ص ٦٩٩ « باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف » .
(٢٠) سورة البقرة : آية ١٧٧ .

للعبادة ، وأمر بالجد والاتقان ، ولم يجعل جـزاء العمل مقصورا على هذه الحياة بل وعد به فى الآخرة (٢١) ٠

ومن اجل العمل كان الاسـلام عدو التبطل باسم العبادة والتدين ، فشعائر الاسلام موقوتة محدودة ، ثم يأتى الحث على العمل ، والابتغـاء من فضل الله بعد اداء العبادات متتابعا قويا لا يعطى ذريعـة للمتعطلين أو المتماوتين باسم الدين ، قال تعالى : « **فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله**»(٢٢) وقال عن الحج انه أيام معدودات تعقبه العودة الى العمل والسعى فى الحياة « **ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات** »(٢٣) ٠

ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول « انى لأرى الرجل فيعجبنى ٠ فأسأل اله عمل ؟ فان قالوا : لا سقط من نظرى » ٠

الاسلام ينادى بإتقان العمـل :

وطالب الاسلام أن يكون العمل متقنا بحيث يبذل فيه اقصى الجهـد حتى يستحق صـاحبه الأجر الجـزيل من رب العـالمين ، قال تعـالى : « **انا لا نضيع اجر من احسن عملا** »(٢٤) ، وقال : « **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** »(٢٥) ٠

---

(٢١) عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة ص ٥٠ ــ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ــ ١٣٦٥ هـ ــ ١٩٤٦ م ، الطبعة الاولى ٠
(٢٢) سورة الجمعة : الآية ١٠ ٠
(٢٣) سورة الحج : آية ٢٨ ٠
(٢٤) سورة الكهف : آية ٣٠ ٠
(٢٥) سـوة التوبة : آية ١٠٥ ٠

ويقول الرسول ﷺ « ان الله يحب اذا عمل احدكم عملا أن يتقنه » ويقول « من غش فليس منا »(٢٦) .

وبهذه المفاهيم الواضحة انطلق بناة حضارتنا فى الحياة ، يخططون بالعلم ، وينفذون بالعمل ، ويراقبون الله بالضمير الوازع ، والخلق الزكى.

وقد كافحوا البطالة فى مجتمعهم فكانت كل الايدى للبناء والتعمير ، وتنوعت أعمالهم فبنوا المجد ، وحاربوا العدو ، وانشاوا المعامل ، وحفروا الخنادق ، وعبدوا الله .

ولم يكونوا يحتقرون العمل ، بل كانوا يعدونه شرفا وكرامة ، ولهذا ازدهرت حضارتهم ، وآتت أكلها باذن ربها فى كل ميادين العمل من زراعة ، وصناعة ، وتجارة ...

ونشير الآن اشارة سريعة الى اهتمام المسلمين بكل ناحية من هذه النواحى .

* * *

---

(٢٦) سنن الترمذى : ج ٣ ، ص ٦٠٦ ـ « باب ما جاء في كراهية الغش في البيوع » .

اهتمام المسلمين بالزراعة

لقد جاءت تعاليم الاسلام تدعوا المسلمين الى عمارة الأرض والاهتمام بزراعتها ، ولهذا وجدنا أحاديث رسول الله ﷺ تدعو الى «احياء الموات» ، ومعناه : اعداد الارض الميتة التى لم يسبق تعميرها وتهيئتها وجعلها صالحة للانتفاع بها فى السكنى والزرع ونحو ذلك(٢٧) .

والاسلام يحب أن يتوسع الناس فى العمران ، وينتشروا فى الأرض ، ويحيوا مواتها ، ويستثمروا خيراتها ، وينتفعوا ببركاتها ، قال رسول الله ﷺ « من أعمر ارضا ليست لأحد فهو أحق »(٢٨) .

وقال عروة : ان الأرض أرض الله والعباد عباد الله ، ومن أحيا مواتا فهو أحق بها ، جاءنا بهذا عن النبى ﷺ ، الذين جاءوا بالصلوات عنه .

وقال ﷺ : « من أحيا أرضا ميتة فله فيها أجر ، وما أكله العوافى (الطير والسباع) فهو له صدقة » ، وعن أسمر بن مضرس قال : « أتيت النبى ﷺ فبايعته فقال : « من سبق الى ما لم يسبقه اليه مسلم فهو له » فخرج الناس يتعادون يتخاطون (أى يحيطون ما أحرزوه بما يفيد احرازهم له)(٢٩) .

ولجدية التعمير والاستصلاح فقد نزعت الأرض ممن لم يعمرها ـ روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لبلال بن الحارث المزنى ـ الذى كان قد طلب أرضا من الرسول ﷺ فمنحه مساحة كبيرة ـ « يا بلال انك استقطعت رسول الله أرضا طويلة عريضة فاقطعها لك ، وان رسول الله

---

(٢٧) السيد سابق : فقه السنة ، مج ٣ ، ص ١٦٨ .
(٢٨) صحيح البخارى : ج ٣ ، ص ٧٠ ـ باب من أحيا أرضا مواتا .
(٢٩) السيد سابق : فقه السنة ، مج ٣ ، ص ١٦٩ .

لم يكن يمنع شيئا يسأله ، وانت لا تطيق ما فى يدك فانظر ما قويت عليه منها فامسكه وما لم تطق ولم تقو عليه فادفعه الينا نقسمه على المسلمين ، فاخذ منه ما عجز عن عمارته فقسمه بين المسلمين »(٣٠) .

وعن عمرو بن شعيب عن ابيه أن رسول الله ﷺ اقطع لاناس من مزينة أو جهينة أرضا فلم يعمروها ، فجاء قوم فعمروها ، فخاصمهم الجهنيون أو المزينيون الى عمر بن الخطاب فقال : لو كنت منى أو من أبى بكر لرددتها ، ولكنها قطيعة من رسول الله ﷺ . ثم قال : من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين فلم يعمرها فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها(٣١) .

وقد ادى ذلك بلا شك الى اهتمام المسلمين باستصلاح الأراضى لتكون ملكا لمن يستصلحها ويعود خيرها اليه ، وبالتالى ينتفع المجتمع باكمله ـ ومن النماذج التى نشير اليها ما قام به الأمويون من استصلاح الأراضى وتجفيف المستنقعات فى البطائح المغمورة بالمياه فى أدنى نهر دجلة(٣٢)

كما حثت تعاليم الاسلام المسلمين على الزراعة :

قال رسول الله ﷺ « ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو انسان أو بهيمة الا كان له به صدقة »(٣٣) ، وروى عنه ﷺ انه قال « من أحس قيام الساعة وبيده فسيلة فليغرسها » .

---

(٣٠) أنظر يحى بن آدم القرشي : الخراج ص ٨٠ ـ ٨٩ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ المطبعة السلفية ـ القاهرة ـ ١٣٨٤ هـ .

(٣١) السيد سابق : فقه السنة ، مج ٣ ، ص ١٧٤ .

(٣٢) انظر البلاذرى (أحمد بن يحى بن جابر) : فتوح البلدان ـ القسم الثانى ص ٣٥٨ ـ ٣٦٠ ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة .

(٣٣) صحيح البخارى : ج ٣ ص ٦٦ ـ باب « فضل الزرع والغرس اذا أكل منه » .

تنظيم وسائل الرى :

وقد حمل هذا المسلمين على الاعتناء باراضيهم الزراعية ، واستخراج خيراتها ، فنشطوا فى خفر الترع والقنوات ، واقامة السدود والقناطر ، وتنظيم وسائل الرى ، وانشاء شبكة شاملة محكمة للرى فى أنحاء العالم الاسلامى .

ففى العراق عمل الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ/ ٧٥٤ — ٧٧٥ م) على تنظيم وسائل الرى بشق كثير من الجداول والترع .. وأمكن بذلك رى جميع الاراضى الممتدة بين الصحراء العربية وجبال كردستان وتحويلها الى أراض نضرة تدر على أهلها الخير والنماء ... ، وامتدت القنوات الى جميع ارباض بغداد فغرس أهلها النخيل والاشجار المختلفة (٣٤)

وفى مرو شرقى فارس — كان هناك جهاز متخصص للرى يسمى « ديوان الماء » يرأس صاحبه عشرة آلاف عامل ويعلو منصب « صاحب المعونة » فى المدينة .

وكان للماء مقاييس على مواضع متعددة من كل نهر من الانهار الكبرى ، وعند السدود فى دار الإسلام مثلما كان عليه الحال فى مصر وفيما وراء النهر .

فالمتولى للسد يلاحظ ارتفاع الماء ، وينفذ سعاته بخبره الى ديوان النهر أو الماء فينفذ صاحبه الرسل الى جميع من يتولون شعب الانهار فيقسمون الماء بحسب ارتفاعه (٣٥) .

---

(٣٤) انظر د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٣٠٣ — ٣٠٥ — مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ، ١٩٦٤ .

(٣٥) انظر آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ج ٢ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ — ترجمة محمد عبد الهادى ريدة — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة — ١٣٦٠ هـ /١٩٤٩ م .

وكان على السد الذى اقيم جنوب (مرو) أربعمائة غواص يراعونه فى ليلهم ونهارهم وربما احتاجوا المـاء فى البرد الشديد فيطلون انفسهم بالشمع(٣٦) .

ولم يكن فى الاقاليم الواقعة شرقى فارس الا نهيرات وجداول صغيرة تنحدر من المرتفعات بعد سقوط الامطار ومن ثم أصبح من الضرورى جمع مياهها وذلك بانشاء قنوات فى جوف الارض معقودة عليها قناطر وقد يبلغ طول احدى هذه القنوات خمسين كيلو مترا .

وكانت (نيسـابور) خاصـة مشهورة بقنواتها التى تجـرى تحت الارض حتى ينزل الانسان اليها على مراق ربما يبلغ عددها السبعين - وهى تسقى ضياع البلد وتدور فى محلاتها وتمد أهلها بماء للشرب نظيف بارد فى فصل الصيف(٣٧) .

وبنيت السدود على الانهار من الخشب مثل سد بخارى أو الحجـر كما فى خوزستان وفارس فقد كانت تمتاز ببناء السدود الحجرية(٣٨) .

وفى القرن الرابع الهجرى بنى عضد الدولة البويهى (٣٦٧-٣٧٢ هـ/ ٩٧٨ - ٩٨٣ م) سكراً عظيما على «نهر الكر» بين شيراز واصطخر ، وكان السكر عبارة عن حائط عظيم اساسه من الرصاص بناه فى عرض النهـر « فتبحر المـاء خلفه وارتفع فجعل عليه من الجانبين عشرة دواليب وتحت كل دولاب رحى وأجرى ماءه فى قنوات فسقى ثلاثمائة قرية »(٣٩) .

---

(٣٦) المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد) أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ٣٣٠ - ٣٣١ - طبعة ليدن ، ١٨٧٧ م .
(٣٧) المقدسى : المصدر السابق ص ٣٢٩ .
(٣٨) آدم متز : الحضارة الاسلامية : ج ٢ ، ص ٢٨٤ .
(٣٩) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٤٤٤ .

. وفى اليمن : يجمع الماء فى غدر مرصوفة من جوانبها تسمى المصانع » ، وكانوا يبنون سدودا لها فتحات فى أسفلها يجرى الماء منها ويوزع فى قنوات صغيرة وذلك فى المناطق الجبلية مثل صنعاء(٤٠)

وكان على نهر النيل فى مصرسدان : احدهما يقام بعين شمس يقام قبل زيادة النيل فاذا اقبل الماء رده السد وعلا الماء وسقى ما وراء السد من الضياع ، وكان هذا السد يسمى سد خليج أمير المؤمنين ...

أما السد الآخر فكان أعظم بناء ، وهو يقع بسردوس أسفل عين شمس ويبين بفتحه النقصان فى النيل(٤١) .

وكان مقياس ارتفاع ماء النيل عمودا طويلا عليه علامات الاذرع والاصابع ، وهو يقوم وسط بركة يجرى فيها الماء ، وكان أهم مقاييس مصر المقياس الذى فى جزيرة الروضة ، وكانت علامة وفاء النيل فى مصر ستة عشر ذراعا(٤٢) .

وفى بلاد الأندلس : لقى نظام الرى عناية كبيرة ، وانتفع الامويون بمياه الانهار الكبيرة كتاجه والوادى الكبير .... وأقاموا السدود ، وشقوا الجداول ، ووضع الامويون تقويما للزراعة عرف بالتقويم القرطبى أصبح دليلا لزراعة النباتات المختلفة فى مواعيدها وانتقل هذا النظام من الاندلس الى غيرها من بلدان أوربا(٤٣) .

---

(٤٠) آدم متز : الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ص ٢٨٥ .

(٤١) آدم متز : المرجع السابق ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ وانظر ما ذكره المقريزى فى كتابه الخطط عن خلجان مصر ، ج ٢ ص ١٣٩ - ١٤٦ ، وعن قناطر الخليج الكبير ، ج ٢ ص ١٤٦ - ١٥٢ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٢٩٧ - ٣٠٢ .

(٤٢) عن مقاييس النيل وطريقة القياس ووقته انظرمحمد حمدى المناوى: نهر النيل فى المكتبة العربية ص ١٤٧ - ١٥٤ - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة - ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م .

(٤٣) د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ، ج ٢ ص ٣٠٨ .

وهكذا نظم المسلمون وسائل الرى فى انحاء العالم الاسلامى ...

وكانت القاعدة العامة هى حكم الشريعة أن المـاء حق للجماعة لايحل لفرد بيعه وشراؤه فقد « نهى النبى ﷺ عن بيع المـاء »(٤٤) ، وعلى هذا فلم يكن يجوز للدولة ولا للافراد أن يجعلوا مسالة الرى وحدها سبيلا للكسب أو التجارة ، ويذكر آدم متز أن الجزء الاكبر من التشريع الاوربى الخاص بالمـاء مقتبس من التشريع الشرقى(٤٥) .

* وقد تفنن المسلمون فى أساليب الزراعة تفننا كبيرا فزرعوا كل نوع من نبات فى التربة الصـالحة له بعد ان درسوا صـلاحية كل تربة لانواع النباتات المختلفة ، وبذلك أمكن استغلال الاراضى الزراعية أحسن استغلال.

كما اعتنوا أيضا بتحسين الاراضى عناية كبيرة بعد أن عرفوا السماد الصـالح لكل نـوع من النبـات فزاد محصـول الارض تبعـا لذلك زيادة كبيرة(٤٦) .

وعرفوا الى جانب ذلك التلقيح ، وكذلك تطعيم بعض الاشجار من بعض لاستخراج أصناف جديدة(٤٧) .

كما أحضروا الى بلادهم أنواعا جـديدة من الاشـجار وأبدعوا فى تنسيق الحدائق .

---

(٤٤) سنن الترمذى : ج ٣ ص ٥٧١ ـ « باب ما جاء فى بيع فضل الماء »
(٤٥) أنظر متز : الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .
(٤٦) د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ، ج ٢ ص ٣٠٥ .
(٤٧) ذكر ابن حوقل عن أهل مدينة زغر وهى مدينة قريبة من البحـر الميت انهم يلقحون كرومهم وكروم فلسطين كما يلقح النخيل بالطلع الذكر وكما يلقح أهل المغرب تينهم ، انظر المسالك والممالك : ص ١٢٤ ، طبعة ليدن ١٨٧٢م .

وكانت الحاصلات الزراعية التى زرعهـا المسلمون كثيـرة ومتنوعة ويرجع ذلك الى تعدد أقاليم الدولة الاسلامية واختلاف جوها ...

فمن أشهر ما زرعه المسلمون من أنواع الحبوب(٤٨) :

القمـح : ويزرع فى البلاد التى تتوفر فيها المياه كالعراق ، ومصر ، وبلاد الشام ، وبلاد ما وراء النهر ، وبلاد الهند ، اليمن ، بلاد المغرب ، بلاد مالى ، وبلاد خوزستان ، والأندلس ....

والشعير : ويزرع فى مصر ، والعراق ، وبلاد الشام ، بلاد الحجاز ، بلاد ما وراء النهر ، واليمن ، بلاد الهنـد ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ، والأندلس ....

والذرة : وتزرع فى مصر ، وبلاد الشام ، بلاد الحجاز ، اليمن ، افريقية (تونس) ، بلاد مالى ، الأندلس ....

والأرز : ويزرع فى مصر ، وبلاد الشام ، بلاد ما وراء النهر ، بلاد الهند ، (وهو عندهم على احد وعشرين نوعا) ، بلاد مالى ، الأندلس، وذكر الادريسى أن الناس فى مدينة المسرفان (بايران) يطحنون الأرز ويتخذون منه خبزا يأكلونه ويفضلونه على الحنطة »(٤٩) .

والسلت : ويزرع فى بلاد الحجاز ، بلاد المغرب ....

---

(٤٨) أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٣٠٧ ، ج ٤ ص ٨٦ ، ٢٤٧ ، ٤٣٢ ، ج ٥ ، ص ١٦، ٨٢، ١١٢، ١٧٥، ٢٨٨ ، ابن حوقل : المسالك والممالك ص ١٧٣ ، ٢٧٢ ، الادريسى : (أبو عبد الله محمد ابن محمد بن عبد الله بن ادريس) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق : مج ١ ص ٣٩، ١٢٩، ١٩٥، ١٩٧، ٢٢٤، ٢٢٩، ٢٣٧، ٢٥٨، مج ٢ ص ٥٦٨، ٥٦٩ ـ مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة ، آدم متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٨ .

(٤٩) أنظر الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق مج ١ ص ٣٩٤ .

والدخن : ويزرع فى بلاد توران خوارزم ، والقبجاق ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ... الخ .

كما زرع المسلمون(٥٠) :

الحمص : وكان يزرع فى مصر ، بلاد ما وراء النهر ، بلاد الهند ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ... .

والعدس : فى مصر ، بلاد الهند ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ... .

والبسلا : فى مصر ، بلاد الشام ، افريقية (تونس) ... .

واللوبيا : فى مصر ، وبلاد الشام ، بلاد الهند ، بلاد المغرب ، بلاد مالى ... .

والسمسم : فى مصر ، وبلاد الشام ، اليمن ، بلاد الهند ، بلاد المغرب ... .

والقرطم : فى مصر ، وبلاد الشام ... .

كما زرعوا **قصب السكر** : فى مصر ، بلاد الشام ، العراق ، فارس ، افغانستان ، بلاد المغرب ، والأندلس ... .

---

(٥٠) أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٧، ٣٠٨ ، ج ٤ ص ٨٦، ٨٧، ٤٣٢ ، ج ٥ ص ١٦ ، ٨٢، ٨٣، ١١٢، ١١٣، ١٧٥، ١٧٦، ٢٨٩، المقدسى : احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٦٢ ، ١٧٤ ، ١٨٠، ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٣٢٨ ، مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار ص ٨٤ ، ٢١٢ ، نشره الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ـ دار الشئون الثقافية العامة ـ بغداد ـ ١٩٨٦ م . الادريسى : نزهة المشتاق مج ١ ص ٥٣، ٢٣٧، ٢٦٣، ٣١٦، ٣٣٤ . آدم متز : الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

وزرعوا القطن فى الاندلس ، صقلية ...

وزرعوا الكتان فى مصر ، الاندلس ، والمغرب ... ، وكذلك النباتات التى تستخرج منها مواد الصباغة كالنيلة للتلوين باللون الازرق ، والقرمز للتلوين باللون الاحمر ، والزعفران للتلوين باللون الاصفر ، والورس وهو نبات أصفر يشبه الزعفران كان يزرع فى صنعاء باليمن ... وغير ذلك .

* واعتنى المسلمون عناية كبيرة بالازهار والرياحين لاستخراج العطور منها ومن اهم الرياحين التى زرعها المسلمون(٥١) :

الآس : فى مصر ، بلاد الشام ، بلاد ما وراء النهر ، افريقية (تونس) ... .

والورد : فى مصر ، بلاد الشام ، بلاد ما وراء النهر ، بلاد الهند ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ... .

والبنفسج : فى مصر ، بلاد الشام ، بلاد ما وراء النهر ، بلاد الهند ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ... .

والنرجس : فى مصر ، بلاد الشام ، بلاد الهند ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ... .

والياسمين : فى مصر ، وبلاد الشام ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ... .

والنسرين : فى مصر ، وبلاد الشام ... .

والنيلوفر : فى مصر ، بلاد ما وراء النهر ، بلاد الهند ، افريقية (تونس) ... .

---

(٥١) أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٨ ، ج ٤ ص ٨٧ ، ٢٤٨ ، ٤٣٢ ، ج ٥ ص ٨٣ ، ١١٣ ، ١٧٦ .

وزهـر الليمون والبرتقال فى مصر ... ، والتامرحناء : في بلاد الحجاز ، وبلاد الهند ... .

والريحان : فى مصر .... كما زرعوا الزنبق ، والقرنفل ... الخ .

* ومن الفواكه والأشجار المثمـرة التى عـرفت فى بلاد المسلمين نذكـر(٥٢) :

الرطب : يزرع فى مصر ، بلاد الحجاز ، بلاد العراق ، وفارس ، شمال أفريقيا ... .

والعنب : ويزرع فى مصر ، بلاد الشام ، بلاد الحجاز ، بلاد ما وراء النهر ، بلاد توران ، اليمن ، بلاد الهند ، العراق ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ، الاندلس ... .

والتين : فى مصر ، بلاد الشـام ، بلاد ما وراء النهـر ، افـريقية (تونس) ، بلاد المغرب ، والاندلس ... .

والرمان : فى مصر ، وبلاد الشام ، بلاد ما وراء النهر، بلاد الهند، افريقية (تونس) بلاد المغرب ، الاندلس ... .

والخوخ : فى مصر ، بلاد الشام ، بلاد ما وراء النهر ، اليمن ، بلاد الهند ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ، الاندلس ... .

---

(٥٢) إنظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٨ ، ج ٤ ص ٨٧،٢٤٨، ٤٣٢ ، ج ٥ ص ١٦،٨٢،٨٣،١١٢،١٧٥،١٧٦،٢١٦،٢١٨،٢٢٨، المقدسى : احسن التقاسيم ص ١٤٢،١٦٢،١٧٤،١٨٠،١٨١،٢٢٨، ٢٣٠ ، الادريسى : نزهة المشتاق مج ٢ ص ٥٤٣،٥٤٧،٥٦٧،٥٧١، ٦٥٢ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٥٢،٢٠٠ - تحقيق د. احسان عباس - دار صـادر - بيروت - ١٩٦٨م ، آدم متز : الحضـارة الاسـلامية ج ٢ ص ٢٥٥ - ٢٦١ ، د. حسـن ابراهـيم : تاريخ الاسلام ، ج ٢ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ ..

والمشمش : فى مصر ، بلاد الشـام ، بلاد ما وراء النهر ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ...

والقراصيا : فى مصر ، بلاد الشـام ، افريقية (تونس) ، بـلاد المغرب ، والأندلس ...

والبرقوق : فى مصر ، بلاد الشام ، بلاد المغرب ...

والتفاح : فى مصر ، بلاد الشـام ، بلاد ما وراء النهـر ، اليمن ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ، والأندلس ...

والكمثرى : فى مصر ، بلاد الشام ، بلاد ماوراء النهر ، بلاد الهند ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ، الأندلس ...

والسفرجل : فى مصر ، بلاد الشام ، بلاد الحجاز ، بلاد ماوراء النهر ، اليمن ، بلاد الهند ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ...

والموز : فى مصر ، بلاد الشام ، بلاد الحجاز ، اليمن ، بلاد الهند ، الأندلس ...

والجوز : فى بلاد الشام ، بلاد المغرب ، الأندلس ...

والبطيخ : وكان أكثر ما يباع من الثمار فى الأسواق ، ولذلك كان سوق بيع الفاكهة يسمى دار البطيخ ، وقد زرع فى كثير من بلدان العالم الاسلامى ...

والزيتون : فى بلاد الشام ، افريقية (تونس) ، بلاد المغـرب ، الأندلس ...

والأترج : فى مصر ، بلاد الشام ، العـراق ، اليمن ، بلاد الهند ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ...

والنارنج : فى مصر ، بلاد الشام ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ، بلاد الهند ، والعراق ...

والليمون : وكان يزرع فى مصر ، بلاد الشـام ، بلاد الحجـاز ، اليمن ، بلاد الهند ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب .. الخ ... .

تربيـة الحيـوان

كما ربى المسلمون الحيوان لركوب ظهره ، واكل لحمـه ، وشرب البانه ، ومن أهم الحيوانات التى قام المسلمون بتربيتها(٥٣) :

الابل : وتوجد فى مصر ،بلاد الشام ، بلاد الحجاز ، بلاد ما وراء النهر ، اليمن ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ... .

والبقر والجاموس : فى مصر ، بلاد الشـام ، بلاد ما وراء النهر ، اليمن ، بلاد الهند ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ، بلاد مالى .. ، العـراق ... .

والأغنام والمـاعز : فى مصر ، بلاد الشـام ، بلاد الحجـاز ، بلاد ما وراء النهر ، اليمن ، بلاد الهند ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ، بلاد مـالى ... .

والخيول : فى مصر ، بلاد الشـام ، بلاد الحجـاز ، بلاد ما وراء النهر ، اليمن ، بلاد الهند ، افريقية (تونس) ، وبلاد المغرب ، وبلاد مـالى ... .

والبغال : فى مصر ، بلاد الشام ، بلاد ما وراء النهر ، اليمن ، بلاد الهند ، افريقية (تونس) بلاد المغرب ، بلاد مالى ... .

---

(٥٣) أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١٠ ، ج ٤ ص ٨٨ ، ٢٤٨ ، ٤٣٢ ، ج ٥ ص ١٦ ، ٨٣ ، ١١٣ ، ١٧٦ ، ٢٨٧ ، الادريسى : نزهة المشتاق مج ١ ص ٣٩ ، ١٥٧ ، ٢٢٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ... ، متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٩١ – ٢٩٣ .

والحمر : فى مصر (وليس له نظير فى اقليم من الاقاليم ولا مصر من الامصار كما يقول القلقشندى)(٥٤) ، وفى بلاد الشام ، بلاد ما وراء النهر ، بلاد الهند وركوبه عندهم مذلة وعار عظيم كما يذكر القلقشندى(٥٥) ، ويوجد فى افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ، بلاد مالى .. الخ ...

* كما قام المسلمون بتربية الدواجن فى البيوت ومن أهمها(٥٦) :

الدجاج : فى مصر ، بلاد الشام ، بلاد الحجاز ، اليمن ، بلاد الهند ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ، بلاد مالى ...

والأوز : فى مصر ، بلاد الشام ، اليمن ، بلاد الهند ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ، بلاد مالى ...

والحمام : فى مصر ، بلاد الشام ، بلاد الحجاز ، اليمن ، بلاد الهند ، افريقية (تونس) ، بلاد المغرب ، بلاد مالى ... ، وكانت تربية الحمام غالبا فى أبراج لوقايته من الافاعى .

★ وقام المسلمون بتربية دودة القز فى بلاد ما وراء النهر ، والاندلس ...

* كما قاموا بصيد السمك من موارد المياه المتعددة التى تحفل بها بلاد العالم الاسلامى ...

---

(٥٤) صبح الأعشى : ج ٣ ص ٣١٠ .
(٥٥) صبح الأعشى : ج ٥ ص ٨٢ .
(٥٦) انظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١٠ ، ج ٤ ص ٨٨، ٢٤٨، ٤٣٢ ، ج ٥ ص ١٦، ٨٢، ١٧٧، ٢٨٨ ، آدم متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٦٢ ، ٢٩٣ - ٢٩٤ .

اهتمام المسلمين بالصناعة

لم تكن الصناعة أقل تقدما عند المسلمين من الزراعة ، فقد نشطت الصناعة وازدهرت .

وكان من أسباب ذلك : إرتفاع مستوى المعيشة ، وكثرة الأموال ، واكتمال رقى الدولة الاسلامية ، ولذلك يذكر ابن خلدون تحت عنوان : « الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضرى وكثرته » .

«والسبب فى ذلك ان الناس ما لم يستوف العمران الحضرى، وتتمدن المدينة انما همهم فى الضرورى من المعاش وهوتحصيل الأقوات من الحنطة وغيرها ، فاذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الأعمال ، ووفت بالضرورى وزادت عليه ، صرف الزائد حينئذ الى الكمالات من المعاش ... وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ ، واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعى الترف والثروة ... الخ(٥٧) .

وقد تقدمت الصناعة فى المجتمع الاسلامى وازدهرت فى مجالات متعددة ، ويكفى لتأكيد ذلك أن نقرأ ما كتبه الرحالة ، والمؤرخون فى وصفها ، وأن نشاهد ما تركه المسلمون من آثار ما تزال باقية أو تضمها المتاحف المختلفة ، وهذه لمحات تشير الى هذه الحقيقة .

استخراج المعادن :

لقد اهتم المسلمون باستخراج المعادن من أجل الصناعة وكان من أهمها :

الذهب : وكان يستخرج من صحراء مصر الشرقية بين أسوان وعيذاب، ومن بلاد السودان الغربى ويذكر الادريسى « أن السودان بلاد التبر ،

---

(٥٧) مقدمة ابن خلدون : ص ٤٠٠ ، ٤٠١ .

وانه أكبر غلة عند السودان وعليها يعولون صغيرهم وكبيرهم » كما كان يستخرج من الأندلس(٥٨) ...

الفضة : وكانت تستخرج من بنجهير (وهى مدينة بنواحى بلخ) ويتحدث عنها ياقوت بقوله « والدراهم بها واسعة كثيرة لا يكاد أحدهم يشترى شيئا بأقل من درهم صحيح والفضة فى أعلى جبل مشرف على البلدة »(٥٩) كما استخرجت من صحراء مصر الشرقية ، وكرمان ، الأندلس(٦٠) ...

الحديد : وكان يوجد فى فارس ، وكرمان ، وكابل ، وفرغانة ، وصقلية ، شمال افريقيا ، وبالقرب من بيروت ، وفى الأندلس(٦١) ....

النحاس : وكان يوجد فى أصفهان ، بخارى ، كما وجد النحاس فى مدينة داى ببلاد المغرب ، وفى الأندلس(٦٢) ...

---

(٥٨) أنظر الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، المجلد الأول ص ٢٥ ، ٤٠ ، مجهول : الاستبصار ص ٨٥ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٤٣ ، ص ٢٠٠ ، متز : تاريخ الحضارة ج ٢ ص ٢٦٩ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٣١٠ .

(٥٩) معجم البلدان ج ١ ص ٤٩٨ .

(٦٠) الادريسى : نزهة المشتاق مج ١ ص ٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٨٤ ، مج ٢ ص ٥٧٤ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٤٣ ، ٢٠٠ .

(٦١) أنظر ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٢١٤ ، ٣٢٨ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٨٤ ، ٢٣٩ ، ٤٧١ ، الادريسى : نزهة المشتاق مج ١ ص ١١٦، ١٩٦، ٢٦٠، ٣٧١، ٤٤١، ٥٥٢ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٤٣ ، متز تاريخ الحضارة ج ٢ ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

(٦٢) أنظر الادريسى : نزهة المشتاق مج ١ ص ٢٤١، ٥٥٢ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٤٣ ، متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٧١ .

- **الرصاص** : وكان يستخرج من منـاجم فـارس ، وخراسـان ، والاندلس(٦٣) ...

الفحم : وكان يوجد بفرغانة وبخارى(٦٤) ...

الزئبق : وكان يوجد فى الاندلس شمال مدينة قرطبة ، ومنه كان يصدر « الى جميع اقطـار الارض وهذا المعـدن يخـدمه ازيد من الف رجـل .. »(٦٥) كما كان يوجـد فى مدينـة سـوخ من بـلاد ما وراء النهر(٦٦) ...

اللؤلؤ : وكان يستخرجه العمانيون من الخليج العربى ، كما قام اهل البحـرين باستخراجه ، ويذكـر الادريسى أنه « فى هذا البحـر الفارسى (الخليج العربى) جميـع مغـايص اللؤلؤ وامكنتـه ... وهى نحـو من ثلاثمائة مكان »(٦٧) ...

المرجان : وكان يصـاد من شمال افريقيا من سبتة ومرسى الخرز ، ويقول عنه الادريسى « وهو أصل جميع المرجان الموجود بسائر الاقطار مثل ما يوجد منه بمدينة سبتة وصقلية »(٦٨) كما كان يوجد المرجان بساحل بيرة من عمل المرية فى الاندلس(٦٩) ...

---

(٦٣) المقـرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٤٤ ، د. حسـن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٣٠٨ ، ٣١٠ .
(٦٤) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٦٢ ٣ ، ٣٩٧ .
(٦٥) الادريسى : نزهة المشتاق مج ٢ ص ٥٨١ ، أنظر المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٤٣ ، ٢٠٠ .
(٦٦) الادريسى : نزهة المشتاق مج ١ ص ٥٠٧ ، ٥٠٨ .
(٦٧) أنظر الادريسى : نزهة المشتاق مج ١ ص ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٣٨٨ - ٣٩١ .
(٦٨) الادريسى : نزهة المشتاق مج ١ ص ٢٩٠ ، ٥٢٩ .
(٦٩) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٤٢ .

العقيق : وكان يستخرج من صنعاء فى اليمن ، وحضرموت ، وجبال افغانستان(٧٠) ... .

الزبرجد : وكان يوجد فى مصر(٧١) ... .

العاج : وكان يوجد فى شرق افريقيا(٧٢) ... .

ملح الطعام : ويوجد فى جزيرة أوليل « ومنها يحمل الملح الى جميع بلاد السودان »(٧٣) وفى الاندلس(٧٤) ... .

الشب : وكان أهم مايستخرج منه حول بحيرة تشاد بالسودان، وكانوا يبيعونه فى انحاء العالم الاسلامى(٧٥) كما كان يستخرج من الأندلس(٧٦) ... .

ملح النشادر : وكان يستخرج من صقلية ، وبلاد ما وراء النهر ، والصين حيث كان من أهم الأملاح الكيماوية قديما(٧٧) ... .

البورق : وكان يوجد بشمال فارس ، ويصدر للخبازين فى بلاد العراق وما بين النهرين ، وكان يسمى بورق الخبز ويستعمل فى تلميع الخبز ، كما كان الى جانبه بورق الصاغة ويحمل من أرمينية الى العراق والشام ومصر(٧٨) ... .

---

(٧٠) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٠١ ، الادريسى : نزهة المشتاق ، مج ١ ص ١٥٤ ، متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٧٣، ٢٧٤ .
(٧١) متز : الحضارة المسلامية ج ٢ ص ٢٧٣ .
(٧٢) متز : المرجع السابق ص ٢٧٩ .
(٧٣) الادريسى : نزهة المشتاق مج ١ ص ١٧ .
(٧٤) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٥٠ .
(٧٥) الادريسى : نزهة المشتاق مج ١ ص ١١٧ ، ١١٨ .
(٧٦) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٤٣ .
(٧٧) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٣٣٧ ، الادريسى : نزهة المشتاق مج ١ ص ٥٠٦ ، متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
(٧٨) الادريسى : نزهة المشتاق مج ٢ ص ٨٢٧ ، متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٦٥ :

ونكتفى بهذا القدر من المعادن التى استخرجها المسلمون وانتفعوا بها لنتحدث عن اهم الصناعات عند المسلمين .

اهم الصناعات عند المسلمين :

لقد ارتقت الصناعة عند المسلمين ، وامتازت كل منطقة اسلامية بصناعات اشتهرت بها وتفوقت فيها ، وهذه بعض الصناعات التى اشتهرت بها البلاد الاسلامية :

صناعة الحديد :

كانت فى اقليم فارس حيث كان من أكبر الاقاليم لاستخراج الحديد وصناعته ، كما برع أهل فرغانه فى صناعة الحديد ، وقد حمل الحديد من افريقية الى الهند لتصنع منه أغلى آلات الحديد ، وكانت صناعة الحديد كذلك فى الأندلس(٧٩) ٠٠٠ .

صناعة النحاس الأصفر :

قامت صناعته فى الأندلس حيث كانت « المرية » يصنع بها من آلات النحاس .. ما لا يحد »(٨٠) ، كما صنع فى أصفهان ، وبخارى وكان يستعمل فى طلاء أعلى المنائر(٨١) ٠٠٠ .

صناعة الذهب والفضة :

وقد اشتهرت مصر بهذه الصناعة منذ عهد الفراعنة ، كما كانت صناعتها فى العراق ، وبلاد فارس ٠٠٠ ، وقد برع المسلمون فى صنع

---

(٧٩) أنظر ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٢١٤ ، الادريسى : نزهة المشتاق مج ٢ ص ٥٤٢ ، ٥٦٢ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٠١

(٨٠) الادريسى : نزهة المشتاق مج ٢ ص ٥٦٢ .

(٨١) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٧١ .

الحلى، والسروج والسيوف وتذهيب المصاحف ووشى الملابس الفاخرة(٨٢) ...٠

صناعة السكر :

قامت صناعته فى بلاد السوس الاقصى حيث يزرع قصب السكر الذى يصفه الادريسى بانه « ليس على قرار الارض مثله طولا وعرضا وحلاوة وكثرة ماء »(٨٣) ...٠

ويصنع منه السكر الذى يصدر الى كثير من الاماكن المختلفة ويتفوق على « جميع انواع السكر فى الطيب والصفاء »(٨٤) ...٠

كما صنع السكر فى مصر ، والاندلس ، وكان من أكبر مراكز صناعته أيضا اقليم خوزستان وخصوصا مدينة جنديسابور حتى كان يقال ان عامة سكر خراسان منها ٠

كما صنع فى الاقاليم المحيطة بالبصرة فى العراق(٨٥) ...٠

صناعة العطور :

وقد ازدهرت فى بلاد فارس ، العراق ... ، وكانت الزيوت العطرية تتخذ من البنفسج ، والنيلوفر ، والنرجس ، والسوسن ، والزنبق ، والمرسين والنارنج(٨٦) ...٠

---

(٨٢) د٠ حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٤ ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ ٠
(٨٣) الادريسى : نزهة المشتاق مج ١ ص ٢٢٧ ٠
(٨٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة ٠
(٨٥) أنظر الادريسى : نزهة المشتاق مج ١ ص ١٢٤، ١٢٥، ١٣١، ٤٣٤، ٤٣٦ ، متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٦١ ٠
(٨٦) أنظر المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٤٤٣ ، متز : الحضارة ج ٢ ص ٣٠٥ ٠

صناعة الصابون :

فى العراق ، وبلاد المغرب ... ، وفى قفط بصعيد مصر كانوا « يصنعون أنواعا من الصابون ... معروفة النظافة »(٨٧) ... .

صناعة الزجاج والخزف :

وقد اقيم ببغداد ، وسامراء عدد كبير من المصانع لصنع الزجاج والخزف ، وازدهرت هذه الصناعة ايضا فى بلاد الشام حتى ان أهلها اتخذوا طرازا خاصا بهم فى زخرفة الزجاج .

كذلك تقدمت صناعة الزجاج والخزف فى بعض البلاد المصرية ، وبخاصة فى الفسطاط والفيوم والاشمونين ، أما الخزف فقد اشار ناصر خسرو(٨٨) الى أن المصريين كانوا يضعون أنواعا مختلفة منه ، وبلغ من انتشار استعماله فى مصر أن البقالين وغيرهم من التجار كانوا يضعون ما يبيعونه فى أوان من الخزف .

وفى (مالقة والمرية) من بلاد الاندلس كان يصنع « الزجاج الغريب وفخار مزجج مذهب ويصنع نوع من المفصص المعروف فى المشرق بالفسيفساء ونوع يبسط به قاعات ديارهم يعرف بالزليجى يشبه المفصص وهو ذو الوان عجيبة يقيمونه مقام الرخام الملون .. »(٨٩) ... .

---

(٨٧) الادريسى : نزهة المشتاق : مج ١ ص ١٢٨ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٤ ص ٣٩٦ .
(٨٨) سفرنامه ص ١٦ نقلا عن د. محمد سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ص ١٣٠ ، دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٧٣ .
(٨٩) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٢ .

صناعة المنسوجات :

ومن الصناعات التي ازدهرت عند المسلمين صناعة المنسوجات على اختلاف انواعها مثل :

صـناعة القطن :

كانت إكبر مراكز صناعة القطن تقع فى شرقى فارس مثل مرو ، ونيسابور ، بم وأصبهان ٠٠٠ ٠
كما اشتهرت مدينة كابل فى افغانستان بصناعة القطن ، وكذلك بلاد ما وراء النهر ، وشمال افريقية ، والأندلس(٩٠) ٠٠٠ ٠

صناعة الكتــان :

وقد ارتقت صناعته فى مصر ، وتم تصديره حتى بلاد فارس ، وكان من أشهر مراكز هــذه الصناعة فى مصر : الفيوم ، ودميــاط ، وشطا ، ودبيق (وهى بلدة من أعمال دمياط) ، وتنيس وكانت تقع على جزيرة فى بحيرة المنزلة ٠

وكان من أهم أنواع صناعة الكتان فى مصر: الدبيقى : وهونوع ثقيل٠

والبدنه : وكان خاصا بالخليفة(٩١) ٠ ، والقصب : وهو نوع رقيق ملون ٠

والبوقلمون : وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار(٩٢) ٠

---

(٩٠) انظر ابن حوقل : المسالك ص ٣٢٨ ، ٢٢٣ ، ٣١٦ ، الادريسى : نزهة المشتاق مج ١ ص ١٩٦ ، ٤٣٥ ، ٤٧٦ ، مج ٢ ص ٥٥٧ ، ٦٧٧ ، ٦٩٩ ٠

(٩١) كان لا يدخل فى صناعته غير أوقيتين من الغزل وينسج من الذهب انظر مجهول : الاستبصار ص ٨٧ ٠

(٩٢) انظر الادريسى : نزهة المشتاق مج ١ ص ٣٣٨ ، متز : الحضــارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٩٦ - ٢٩٨ ٠

كما صنع الكتان فى بلاد فارس وتعد مدينة كازرون من أكبر المدن الفارسية التى تشتهر بصنع الثيـاب الكتانية حتى كانت تسمى « دمياط الاعاجم » ، وكانت أنواع الاقمشة بفارس هى الانواع المصرية من الدبيقي والشرب والقصـب ممـا يدل على وجـود صـلة بين الصـناعتين بمصر وفارس(٩٣) ٠٠٠٠

صـناعة الحـرير :

وقد بلغت صناعة الحرير كذلك درجة كبيرة من الرقى ، وكان من أهم مراكز صـناعته اقليم خوزسـتان (فى ايران) حيث نقلت من بلاد الروم ، وكانت تصنع فيه أنواع الحرير من ديباج وخز وخرد (٩٤) قل أن يوجد مثله بآفاق الأرض ، كما يذكر الادريسى(٩٥) ٠

وفى مدينة مرو باقليم طبرستان (الأراضى الجبلية الواقعة جنوب بحر الخزر) ـ كان يصنع ثياب الابريسم الذى صدر الى جميع الآفاق ، وصنعت الكوفة مناديل الحرير (الكوفية) التى تتخذ غطاء للرأس(٩٦)٠

وكانت القاهرة فى عهد الفاطميين من أهم مراكز صناعة المنسوجات الحريرية وقد أنشا المعز لدين الله الفاطمى فى القاهرة دار الكسوة حيث كانت تفصل الثياب لموظفى الدولة على اختلاف درجاتهم ، وكان يصـنع

---

(٩٣) متز : المرجع السابق ج ٢ ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ ٠

(٩٤) الخرد : هو الديباج بالذهب أنظر الادريسى : نزهة المشتاق مج ١ ص ٣٩٦ ٠

(٩٥) أنظر الادريسى : نزهة المشتاق مج ١ ص ٣٩٦ ، وقد ذكر الادريسى أن مدينة « تستر » كان يعمل بها كسوة الكعبة قديما أما على عهده فكانت تصنع فى العراق ، أنظر ص ٣٩٦،٣٩٧ ٠

(٩٦) د٠ حسن أبراهيم : تاريخ الاسـلام ج ٢ ص ٣٠٩ ، د٠ محمـد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ص ١٣٣٠

بهذه الدار أيضا كسوة الكعبة والخلع التى يمنحها الخلفاء للوزراء والأمراء والأشراف وكبار رجال الدولة فى عيد الفطر حتى سمى هذا العيد بعيد الحلل ·

كذلك عمد الفاطميون على النهوض بصناعة النسيج ، فانشأوا عدة مصانع لانتاج الأنواع الفاخرة وكانت دار الديباج منذ عهد الأفضل بن بدر الجمالى تنتج نوعا من الحرير يعرف بالحرير الديباج(٩٧) ·

كما أن خزانة البنود(٩٨) التى بناها الخليفة الظاهر الفاطمى (٤١١ - ٤٢٧ هـ / ١٠٢١ - ١٠٣٦ م) كان بها ثلاثة آلاف صانع لصنع أفخر أنواع الثياب(٩٩) ·

وصنع الحرير فى مدينة قابس « وحريرها أطيب الحرير وأرقه »(١٠٠) ·

وفى مدينة « المرية » ببلاد الأندلس « كان بها من طرز الحرير ثمانمائة طراز يعمل بها الحلل ، والديباج ، والسقلاطون ، والأصبهانى ، الجرجانى ، والستور المكللة ، والثياب المعينة ، والخمر ، والعتابى ، والمعاجر ، وصنوف أنواع الحرير »(١٠١) ·

---

(٩٧) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٤٦٤ ·
(٩٨) البنود : هى الرايات والأعلام ·
(٩٩) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٤٢٣ ·
(١٠٠) قابس : مدينة بين طرابلس وسفاقس ثم المهدية على ساحل البحر من أعمال افريقية ذكر البكرى أن فيها جميع الثمار وفيها شجر التوت الكثير وحريرها أجود الحرير وأرقه وليس فى عمل افريقية حرير الا فى قابس ، أنظر ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، مجهول : الاستبصار ص ١١٣ ·
(١٠١) الادريسى : نزهة المشتاق مج ٢ ص ٥٦٢ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٦٣ ، ٢٠٠ ·

كما كان لدمشق باع طويل فى صناعة « أنواع من الثياب الحرير كالخز والديباج النفيس الثمين العجيب الصنعة العديم المثال الذى يحمل منها الى كل بلد ويتجهز منها به الى كل الافاق ٠٠٠ »(١٠٢) ٠

صناعة الصوف :

وتفوقت بعض المدن المصرية فى صناعة المنسوجات الصوفية مثل أسيوط، والبهنسا ، وطحا ـ احدى قرى الصعيد ـ وكانت تنتج ثيابا رفيعة المستوى من الصوف(١٠٣) ٠

وفى مدينة جنجاله ببلاد الاندلس كان « يعمل بها من وطاء الصوف ما ليس يمكن صنعه فى غيرها »(١٠٤) ٠

كما كان لأرمينية (تقع الآن فى الاتحاد السوفيتى) شهرة واسعة فى « بسط الصوف والوسائد والتكك والمقاعد وغير ذلك من أصناف المصنوعات من الصوف الارمينى »(١٠٥) ٠٠٠

صناعة السجاجيد والبسط :

وقد انتشرت فى أنحاء العالم الاسلامى ، وكان لكل بلد ذوقه وشخصيته ٠

وكانت السجاجيد أنواعا متعددة : فكان منها الستائر : المعلقة على الحيطان ، ومنها البسط والانخاخ : التى تفرش بها أرض الغرف والقاعات والممرات ، ومنها الانماط : وهى تفرش على الارض للنظر فقط دون المشى

---

(١٠٢) الادريسى : نزهة المشتاق مج ١ ص ٣٦٩ ٠
(١٠٣) أنظر المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٤٤٢ ، ٢٠٢ ، الادريسى : نزهة المشتاق مج ١ ص ١٢٥ ، ١٣٠ ٠
(١٠٤) الادريسى : نزهة المشتاق مج ٢ ص ٥٦٠ ٠
(١٠٥) الادريسى : نزهة المشتاق مج ٢ ص ٨٢٤ ٠

عليها ، ويضاف الى ذلك انواع أخرى صغيرة منها سجاجيد الصلاة ، والاغطية، والمخاد ، والنمارق، والمقاعد ونحوها من أنواع الوسائد(١٠٦)

وقد اخذت البسط الارمينية شهرة واسعة ، وكان الناس يقدمونها عليما عداها من البسط ، كما اشتهرت البسط الفارسية التى تصنع فى أصفهان(١٠٧) . وفى بلاد الاندلس كانت تصنع البسط التى يغالى فى ثمنها بالمشرق(١٠٨) .

وكانت الحصر تصنع فى العالم الاسلامى من الحلفاء ، وكان أشهرها مايصنع بعبادان (فى ايران) وكانت حصرها تقلد فى مصر وفارس(١٠٩) ، كما أن مدينة بيسان بفلسطين كان « ينبت بها السامان الذى يصنع منه الحصر السامانية ، ولا يوجد نباته الا بها »(١١٠) وقد صنع أهل عكا « من الحصر السامانية كل عجيبة »(١١١) كما صنع أهل مرسية فى الاندلس « الحصر الفتانة الصنعة »(١١٢) .

صناعة الورق :

ظل الناس يستعملون ورق البردى الذىكان يصنع بمصر حتى القرن الرابع الهجرى تقريبا (العاشر الميلادى) ، ثم استخدم المسلمون نوعا من

---

(١٠٦) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٩٥ .
(١٠٧) انظر الادريسى : نزهة المشتاق مج ٢ ص ٨٢٤ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .
(١٠٨) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٠١ .
(١٠٩) انظر المقدسى : ص ٢٠٣ ، ٤٤٢ .
(١١٠) الادريسى : نزهة المشتاق مج ١ ص ٣٥٦ .
(١١١) الادريسى : نزهة المشتاق مج ١ ص ٣٦٣ .
(١١٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٠١ .

الورق يصنع من الكتان يسمى « الكاغد » وقد نقلت صناعته من الصين ؛ وتطورت تطورا كبيرا على أيدى المسلمين(١١٣) .

وكانت سمرقند من أكبر مراكز صناعة الورق حتى قيل أن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر(١١٤) ، كما كانت صناعة الورق فى العراق ، وقد أنشىء مصنع للورق فى بغداد فى عهد الخليفة الرشيد حيث أشار الفضل بن يحى بن خالد البرمكى بصناعة الكاغد ، وتمت صناعته وكتبت فيه رسائل الخليفة وصكوكه واتخذوه الناس من بعده .. وبلغت الاجادة فى صناعته ما شاءت(١١٥) .

كما أقيمت مصانع للورق فى بلاد الشام ، والعراق ، ومصر واشتهرت الفسطاط بصنع نوع من الورق يعرف بالورق المنصورى ، وصنع الورق أيضا فى الأندلس(١١٦) ، وذكر الادريسى أن مدينة شاطبة فى الأندلس « يعمل بها من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض ويعم المشارق والمغارب »(١١٧) ... .

وبالنسبة للقوى المحركة : لم يفت المسلمين الاستفادة من حركة الماء .

فيذكر المقدسى أن أهل البصرة أقاموا أرحية على أفواه الأنهار ليديرها الماء داخلا وخارجا(١١٨) .

---

(١١٣) أنظر متز : تاريخ الحضارة ج ٢ ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ .
(١١٤) الثعالبى : لطائف المعارف ص ١٢٦ .
(١١٥) ابن خلدون : مقدمة ص ٤٢١ ، ٤٢٢ .
(١١٦) أنظر المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٨٠ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٣٠٨ .
(١١٧) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق : مج ٢ ص ٦٥٦ .
(١١٨) أنظر : أحسن التقاسيم ص ٢٣٥ .

ولم يكن الناس يستعملون الدواب فى ادارة الطواحين الا حيث لا يوجد انهار كما انتفع من الريح فى ادارة الارحاء(١١٩) .

كما حقق المسلمون تقدما رائعا فى صناعة الأجهزة العلمية للكيمياء والرصد الفلكى والجراحة وغيرها ... .

وكان مما أدى الى جودة الصناعة واتقانها عند المسلمين :

(أ) الالتزام بتعاليم الاسلام ، وتوجيهات الرسول ﷺ فى الاخلاص واتقان العمل « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .

(ب) روح المنافسة بين العمال مما أعطى عملهم صفة الجودة والاتقان .

(حـ) وكذلك هذه النظم التى عرفها المسلمون بالنسبة لكل حرفة أو صناعة ، وما ترتب عليها من رعاية واهتمام بالصانع انعكس بالتالى على صناعته وجودتها(١٢٠) .

فقد كان لكل حرفة رئيس أو شيخ اختلف فى تلقيبه من بلد لآخر مثل « الأمين » فى المغرب ، « المعلم أو الأوسطى » فى مصر ، ومثل لقب « العريف » الذى استخدم فى بلدان كثيرة .

وكان تعيين « شيخ الطائفة » يتم بالاختيار أو الانتخاب ، وبموافقة المحتسب ممثل الحكومة .

كما كان يعاونه احيانا مجلس من كبار معلمى الصنعة يعرفون « بالاختيارية » أو المخاترة « أى المسنين » ، وكانت مهمة هذا الشيخ

---

(١١٩) أنظر متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٠٦ .
(١٢٠) د. أحمد مختار العبادى : موضوع الحياة الاقتصادية فى المدينة الاسلامية ص ١٣٦ - مجلة عالم الفكر - مجلد ١١ - العدد الأول - ١٩٨٠ م .

أو العريف هى القيام بدور الخبير الفنى فى الخلافات التى تقع بين أهل الحرف وعملائهم حول سلعة من السلع .

وكان رأيه مقبولا لدى القاضى أو المحتسب ، كذلك كان هـو الذى يبلغ المحتسب رأى طائفته حول تكاليف السلع التى يصنعونها وتحديد ثمن بيعهـا(١٢١) .

ويمكن تلخيص وظائف هـذه الطوائف المهنية فى المدن الاسـلامية بالأمور التالية :

١ ـ تعليم الصبيان أسرار المهنة ، وتحـديد العلاقة بين المعلم والصبى بشبه تعاقد أو التزامات بين الطرفين .

٢ ـ المراقبة الفنية على المشتغلين بالصنعة الواحدة ، وحماية المستهلك من الغش وسوء الصنعة .

٣ ـ المشاركة فى تحديد الأجور وأسعار السلع .

٤ ـ فض الخلافات التى تنشأ بين أفراد الطائفة الواحدة .

٥ ـ اعتبار الأمين أو العريف مسئولا عن طائفته أمام ممثل الحكومة فى السوق وهو المحتسب(١٢٢) .

---

(١٢١) ليفى بروفنسال : محاضرات فى أدب الأندلس وتاريخها ص ٨٩ نقلا عن د. العبادى ـ المرجع السابق .
(١٢٢) أنظر د. العبادى : المرجع السابق ص ١٣٦ .

اهتمام المسلمين بالتجارة .

لقد اهتم المسلمون بالتجارة ايضا انطلاقا من تعاليم دينهم في الحث على العمل ، والبحث عن اسباب الرزق بشتى الوسائل ومنها التجارة ، يروى عن النبى ﷺ قوله « تسعة اعشار الرزق فى التجارة » .

وكانت المعاملات التجارية بين المسلمين تتم غالبا في ضوء الآداب والأحكام الاسلامية المتواترة(١٢٣) مثل عدم التعامل بالربا ، والغش ، والاحتكار ، وعدم بيع النجس كالخمر والخنزير ، وأن يكون المباع منتفعا به ... ، وكذلك الآداب الكثيرة فى البعد عن الشبهات ، والحرص على تحرى الكسب الحلال ... .

قال تعالى : «الذين يأكلون الربا لايقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بانهم قالوا انما البيع مثل الربا واحل الله البيع وحرم الربا »(١٢٤) .

وعن ابن مسعود قال : لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ، وموكله ، وشاهديه ، وكاتبه (١٢٥) .

وعن رافع بن خديج أنه قيل : يا رسول الله اى الكسب أطيب ؟ قال : « عمل الرجل بيده ، وكل بيع مبرور » رواه احمد والبزار(١٢٦) .

---

(١٢٣) ولهذا كان للتجار المسلمين دور كبير فى نشر الاسلام فى مناطق متعددة فى افريقيا وآسيا ، حيث كان الكثير منهم نماذج مشرقة وانعكاسا امينا لروح الاسلام وتعاليمه مما أعطى الأسوة الطيبة والقدوة الحسنة انظر كتابى « وحدة الأمة الاسلامية حقيقة تاريخية » ص ١٠١ ـ ١٠٦ ، مطبعة الحسين الاسلامية ـ القاهرة ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م .

(١٢٤) سورة البقرة : آية ٢٧٥ :

(١٢٥) سنن الترمذى ج ٣ ص ٥١٢ « باب ما جاء فى أكل الربا » .

(١٢٦) السيد سابق : فقه السنة ، مج ٣ ص ٤٤ .

وعن على كرم الله وجهه ان النبى ﷺ قال : « ان الله تعالى يحب أن يرى عبده - يعنى فى طلب الحلال » رواه الطبرانى والديلمى(١٢٧) ،

وعن مالك بن أنس رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « طلب الحلال واجب على كل مسلم » رواه الطبرانى(١٢٨) .

وقال الرسول « الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهة ، فمن ترك ما شبه عليه من الاثم كان لما استبان أترك ، ومن اجترأ على ما يشك فيه من الاثم أو شك أن يواقع ما استبان ، والمعاصى حمى الله ، من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه »(١٢٩) . وعن النبى ﷺ قال : « التاجر الصدوق الأمين ، مع النبيين والصديقين والشهداء »(١٣٠) .

وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كان يطوف بالسوق، ويضرب بعض التجار بالدرة ويقول : « لا يبيع فى سوقنا الا من يفقه ، والا اكل الربا شاء أم أبى »(١٣١) .

ولقد ازدهرت التجارة ازدهارا كبيرا عند المسلمين حتى بلغت أوجها وتوفرت عوامل كثيرة أدت الى ذلك وكان من أهم هذه العوامل :

١ - اتساع مساحة العالم الاسلامى حيث غدت الدولة الاسلامية متسعة اتساعا هائلا يمتد من التركستان شمالا ، الى البحر العربى .

---

(١٢٧) السيد سابق : فقه السنة مج ٣ ص ٤٣ .
(١٢٨) السيد سابق : نفس المرجع والصفحة .
(١٢٩) صحيح البخارى - ج ٣ ص ٤ « باب الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات » .
(١٣٠) سنن الترمذى : ج ٣ ص ٥١٥ « باب ما جاء فى التجار وتسمية النبى ﷺ اياهم » .
(١٣١) السيد سابق : فقه السنة مج ٣ ص ٤٤ .

والصحراء الكبرى جنوبا ، ومن الصين شرقا ، الى المحيط الاطلسى غربا .

وكان طولها على ما ذكره المقدسى « ٢٦٠٠ فرسخا » وأن المسافة من أقصى الشرق بكاشغر الى السوس الأقصى فى المغرب نحو عشرة أشهر(١٣٢) .

٢ ـ ازدهار الزراعة ، وتقدم الصناعة فى العالم الاسلامى دفع التجار الى تصريف الفائض .

٣ ـ كثرة الأموال ، وارتفاع مستوى المعيشة ، وحياة الرخاء والترف ، وما يترتب على ذلك من جلب سلع ومواد متعددة من منطقة الى أخرى ، مما يؤدى الى تعدد الأنشطة التجارية المختلفة .

٤ ـ عناية المسلمين بانشاء الطرق المتعددة ، وحراستها ، وانشاء أماكن يستريح فيها المسافرون ، وتامين الماء لهم ، يذكر انه كان على الطريق الذى يخترق صحراء شرق فارس بين كل فرسخين أو ثلاثة قباب وخزانات ، يتجمع فيها ماء المطر .

ورأى ناصر خسرو على مقربة من بحيرة « وان » بارمينية طريقا على امتداده عمد مقامة على الأرض ليسير المسافرون أيام المطر والضباب بهديها(١٣٣) .

كما انشات الحكومات المنائر فى الثغور ، وبنوا الأساطيل لحماية السواحل من اغارات لصوص البحار ، وأنشات الحكومات للتجار الفنادق، الوكالات ، والقياسر ، وهى أبنية يقيم فيها التجار الغرباء ويحفظون فيها بضائعهم اما فى داخل المدينة أو خارجها .

---

(١٣٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٦٤ .
(١٣٣) أنظر آدم متز : الحضارة الاسلامية ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

وكان لذلك كله اثركبير فى نشاط التجارة الداخلية والخارجية (١٣٤)

تجار المسلمين ينطلقون فى ارض الله الواسعة :

وقد انطلق تجار المسلمين الى كل مكان فى ارض الله الواسعة ، وجابت سفنهم « البحر المتوسط » حيث لم يكن لاوربا سلطان على البحر المتوسط خلال القرن العاشر الميلادى ، فقد كان بحرا عربيا ، وكان لابد لمن يريد ان يقضى لنفسه فيه امرا من ان يخطب ود العرب .

وكانت الملاحة الاوربية فى ذلك العصر فى حالة يرثى لها من الضعف ، ففى سنة ٩٣٥ م استطاعت مراكب عبيد الله المهدى الفاطمى أن تغزو جنوب فرنسا ومدينة جنوا فى ايطاليا .

وان تفعل مثل هذا بمدينة بيزا فى عامى ١٠١١ - ١٠١٤ م ، وذلك مع ان أسطول الفاطميين فى شمالى افريقية كان فى ذلك الحين اقل كفاية من أسطول الشام بضورة بينة كما يقول المستشرق الالمانى متز (١٣٥) .

كما جابت سفن المسلمين « المحيط الهندى » ولم يكن المحيط الهندى منذ القدم مياها مجهولة مثل الاطلسى (بحر الظلمات) او الهادى ، بل طرقه البحارة منذ آلاف السنين ، فكان شريانا للحياة بين شطآنه ، وطريقا مائيا كثر ارتياده ، ولهذا ادى المحيط الهندى دورا عظيما يتضاءل بجواره دور أى محيط أو مسطح مائى آخر فى التواصل الحضارى .

وكانت التجارة تتم فى المحيط الهندى عبر بلدانه ، وكذلك من بلدانه الى عالم البحر المتوسط وبالعكس ، وكان لثراء بلدان المحيط الهندى فى المنتجات النباتية والغابية ، والصناعية ، فضلا عن الجواهر

---

(١٣٤) انظر د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٣ ص ٣١١ ، ٣١٣ ، د. محمد مرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٥٥ ، ١٥٦ .
(١٣٥) انظر الحضارة الاسلامية : ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

أو بمعنى آخر تنوع النشاط الانتاجى ببلدان المحيط واختلافه من منطقة لأخرى - اثر كبير فى ازدهار الحركة التجارية (١٣٦) .

كما جابت سفن المسلمين « البحر الأحمر » (بحر القلزم أو بحر الحجاز) وكان البحر الأحمر خاصا بالسفن الاسلامية خصوصا المصرية ، حيث لم يكن مسموحا فى الغالب الأعم للسفن بالابحار فيه اذ كان جل الملاحة فيه من شأن السفن المصرية التى سيطرت على التجارة به (١٣٧) .

وقد فكر الخليفة العباسى هارون الرشيد أن يوصل ما بين البحر الأبيض والبحر الأحمر من ناحية الفرما، ولكن أشير عليه بخطورة ذلك ، لأنه يعطى سفن الروم فرصة الدخول الى الحجاز والعدوان على الأماكن المقدسة فعدل عما فكر فيه (١٣٨) .

كذلك ركب المسلمون « بحر الزنج » بين ساحل عمان وساحل افريقية الجنوبى الشرقى ، وكانت زنجبار محطة بحرية هامة صار ملوكها من المسلمين .

وقد ارتاد المسلمون ساحل بحر الزنج جنوبا الى سفالة (وموضعها الآن فى موزمبيق) واليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين .

---

(١٣٦) د. شوقى عبد القوى عثمان : تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الاسلامية (٤١ - ٩٠٤ هـ / ٦٦١ - ١٤٩٨ م) ص ٨٠،٧ - سلسلة عالم المعرفة رقم (١٥١) - يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب - الكويت - ذو الحجة ١٤١٠ هـ / يوليو ١٩٩٠ م .

(١٣٧) د. شوقى عبد القوى عثمان : تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الاسلامية ص ٩٥ .

(١٣٨) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٤٥٥ ، ٤٥٦ - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - دار نهضة مصر - القاهرة .

وقد وصلت سفن المسلمين الى موانىء الصين ، وأخذ الاسلام ينتشر هناك حتى صار لجماعة المسلمين فى خانقو (كانتون) رئيس يوليه امبراطور الصين منذ أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث من الهجرة(١٣٩)

وقد حكى الادريسى خبر «المغررين» الذين ركبوا «بحر الظلمات» (المحيط الأطلسى) من لشبونة (فى البرتغال) « ليعرفوا ما فيه والى أين انتهاؤه .. فجروا به نحوا من أحد عشر يوما فوصلوا الى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير القروش (اسماك القرش) قليل الضوء .. »(١٤٠) .

وهكذا غدت السفن الاسلامية تجوب كل البحار واحتلت المكان الأول للتجارة العالمية وبهذا امتدت الصلات التجارية للمسلمين مع معظم بلاد العالم

فوصلت شرقا الى الفلبين والصين ، وغربا الى بلاد الفرنجة ، وشمالا الى بلاد الروس التى ظلت الى ما بعد الحروب الصليبية هى الطريق بين شمال أوربا والشرق ، وجنوبا الى نيجيريا والحبشة وسواحل افريقيا(١٤١) .

وسرعان ما أصبح كثير من المدن الاسلامية مراكز حافلة بمظاهر التبادل التجارى البرى والبحرى مثل بغداد والبصرة ودمشق ، والقاهرة ، والاسكندرية ، سيراف ، واصفهان ، ومرافىء الشام كطرابلس وصيدا وبيروت .

---

(١٣٩) أنظر ذلك بالتفصيل فى كتاب د. شوقى عثمان : تجارة المحيط الهندى ـ الفصل الثانى ص ٨٧ ـ ١١٥ .

(١٤٠) أنظر الادريسى : نزهة المشتاق مج ٢ ص ٥٤٨ ، ٥٤٩ لتعرف قصتهم كاملة .

(١٤١) أنظر متز : الحضارة الاسلامية ، ج ١ ـ الفصل الأول ، ج ٢ ص ٣١٤ ، ٣١٥ .

وكانت الاسكندرية وبغداد كما يقول متز : هما اللتان تقرران الاسعار للعالم خلال القرن الرابع الهجرى فى البضائع الكمالية على الاقل (١٤٢) .

طـــرق التجـــارة :

وكان مما زاد فى انتعاش التجارة انشاء الطرق التى سهلت على التجار نقل بضائعهم ومن اشهر طرق التجارة (١٤٣) :

١ ـ الطريق البحـرى من غرب أوربا الى المشرق مارا بمصر ، وكان يستغله التجار الذين يأتون من مقاطعة بروفانس بفرنسا حيث كانت سفنهم ترسو عند الفرما ، أو الاسكندرية ، ثم يحملون تجارتهم على الدواب الى القـلزم (السويس حاليا) ، ومن القلزم تنتقـل عبر البحر الاحمر مارة بموانيه الهامة مثل جدة ، ثم يمضون الى السند والهند والصـين .

وكانوا يجلبون من الغرب الديباج ، والفراء ، والسيوف ... ويحملون فى عودتهم سلع المشرق كالمسك والعود والكافور وغير ذلك ....

فاذا وصلوا الى القـلزم اتجهوا الى الفـرما أو الى الاسكندرية ، ومنها الى بروفانس ويقصد فريق منهم أحيانا القسطنطينية .

---

(١٤٢) الحضارة الاسلامية : ج ٢ ص ٣١٢ .

(١٤٣) د. حسـن ابراهـيم : تاريخ الاســلام ج ٣ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٨ ؛ د. محمد سرور : تاريخ الحضارة الاسـلامية ص ١٤٢ ـ ١٤٤ ؛ أنظر د. نعيم زكي فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ـ أواخر العصور الوسطى ـ ص ١١٧ ـ ١٨٧ ؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٧٣ م .

٢ ـ الطريق التجارى بين بلاد الروس والمشرق عن طريق بحر قزوين ، ومنه تنتقل التجارة الى بخارى وسمرقند ببلاد ما وراء النهر ، ومنها الى الصين •

وقد زادت أهمية هذا الطريق التجارية بعد ان اعتنق اهل الفلجا الاسلام فى أوائل القرن الرابع الهجرى •

٣ ـ الطريق التجارى الذى يسير من المنطقة الواقعة عند مصب نهر السند نحو داخل فارس مارا بولاية سجستان •

والى الشمال من هذا الطريق كانت قوافل البنجاب تنقل مقادير كبيرة من البضائع عبر هضاب افغانستان ، وتوصلها الى كابل وغزنة وغيرهما ، ومن هناك كانت القوافل تسير نحو خراسان وبخارى شمالا •

٤ ـ الطريق البرى من غرب أوربا الى المشرق ، ويبدأ من بلاد الاندلس الى طنجة عبر مضيق جبل طارق ، مجتازا المغرب الاقصى والاوسط والادنى عن طريق افريقية (تونس الحالية) حتى يصل الى مصر •

ثم يتجه الى بلاد الشام مارا بالرملة ودمشق ، ثم الى العراق مارا بالكوفة وبغداد والبصرة ، ثم الى فارس مارا بالاهواز ، ثم الى كرمان والهند والصين •

أهم المـوانى التجـارية

وكان من أهم الموانى التجارية فى بلاد المسلمين ما يلى :

القلزم(١٤٤) « السويس » :

وكانت السلع تنقل عن طريقه من الدول الأوربية الى الشرق ، ومن أقطار الشرق الاسلامى الى أوربا(١٤٥) .

عيـذاب :

أحد موانى مصر التجارية الهامة ، ويقع على ساحل البحر الأحمر الغربى ويحدثنا ابن جبير فى رحلته عن عيذاب فى أواخر القرن السادس الهجرى بأنها « من أحفل مرامى الدنيا بسبب أن مراكب الهند تحط فيها وتقلع منها زائدا على مراكب الحجاج الصادرة والواردة »(١٤٦) .

جـــدة :

فى بلاد الحجاز (المملكة العربية السعودية) وترجع أهميتها الى أنها محط الحجاج المسلمين الذين كانوا يفدون اليها عن طريق ايلة والقلزم أو عن طريق عيذاب(١٤٧) .

عـــدن :

وتعد من أهم مرافىء الدولة الاسلامية على المحيط الهندى ، وكان لها شهرة فائقة فى التجارة ، وكانت ترسوا عليها السفن المحملة بمنتجات

---

(١٤٤) القلزم : بالضم ثم السكون ثم زاى مضمومة وميم وسمى بحر القلزم ـ قلزما لالتهامه من ركبه وهو المكان الذى غرق فيه فرعون وآله .. والى هـذه المدينة ينسب هذا البحـر ، انظر ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨ .

(١٤٥) د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٣ ص ٣٢٩ .

(١٤٦) رحلة ابن جبير ص ٣٩ .

(١٤٧) د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٣ ص ٣٢٩ .

الدول الآسيوية والأوربية وهى الى جانب ذلك نقطة ارتكاز التجارة بين الهند والصين ومصر(١٤٨) ٠

البصـــرة :

كانت من أهم مراكز التجارة لأنها تعد باب بغداد ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وانواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا ٠٠ ومحط رجال الشرق والغرب من مجاهل الصين الى مفاوز الصحراء الكبرى(١٤٩)

ســـيراف :

وتقع على ساحل الخليج الفارسى (الخليج العربى) فى ايران ، وتعد من الموانى التجارية الهامة وقد اتخذت مرسى للسفن التي تنقل تجارة العرب والفرس الى بلاد الصين ، وتركزت فيها السلع الغربية أكثر من أى مركز تجارى آخر على (الخليج الفارسى) ٠

ومما أسهم فى نمو هذا الميناء صعوبة الملاحة عند مصب دجلة والفرات ، فاتجهت السفن الى سيراف بدلا من مدخل النهرين(١٥٠) ٠٠

طـرابلس الشـــام :

وهو من الموانى الهامة بالنسبة لتجارة الشام الخارجية والداخلية ، وكان يتسع لألف مركب(١٥١) ٠

---

(١٤٨) عنها أنظـر ياقوت : معجـم البـلدان ج ٤ ص ٨٩ ، د٠ حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٣ ص ٣٢٩ ٠
(١٤٩) عنهـا أنظـر ياقوت : معجـم البـلدان ج ١ ص ٤٣٠ ـ ٤٤٠ ، د٠ حسن ابراهيم : المرجع السابق ـ نفس الصفحة ٠
(١٥٠) أنظر ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، د٠ نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ص ١٢٠ ، ١٢١ ٠
(١٥١) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٦٦ ، د٠ نعيم زكى : طرق التجارة ص ١٥١ ٠

انطـــاكية :

وقد حصنها الخليفة العباسى المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ/٨٣٣ — ٨٤٢م) حتى أصبحت من أهم الموانى التجارية فى الشام ، كما صارت أداة اتصـال بين بلاد المشرق وأوربا(١٥٢) •

الاسـكندرية :

وكانت من المراكز الهامة للتجـارة بين الشرق والغرب ، فتنتقـل منها التجارة الآتية من أوربا الى البحر الأحمر ، وكذلك التجارة الآتيـة من الشرق الى أوربا(١٥٣) •

الفــرما :

مفتاح الديار المصرية ، وهى مدينة ساحلية بينها وبين بحر القلزم (البحر الأحمر) أربعة أيام ، وكانت تنتقل منها أو من الاسكندرية التجارة الآتية من أوربا الى البحـر الأحمر ، والتجـارة الآتيـة من المشرق الى أوربا(١٥٤) •

بـرقـــة :

تقع على ساحل البحر الأبيض ، بينها وبين الاسكندرية مسيرة شهر وفى برقة فواكه كثيرة وخيرات واسعة ، وكانت ميناء هاما حيث كانت السفن بعد اقـلاعها من الاسكندرية ترسو أول الأمر فى ميناء برقة التى كانت تكثر فيها السلع الشرقية والغربية فى القرن الرابع الهجرى(١٥٥) •

---

(١٥٢) أنظر ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٦٦ — ٢٧٠ ، د• مرور : تاريخ الحضارة ص ١٤٤ •

(١٥٣) أنظر ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ١٨٢ — ١٨٩ ، د• حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٣ ص ٣٢٩ •

(١٥٤) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، د• حسن ابراهيم : المرجع السابق ، نفس الصفحة •

(١٥٥) أنظر ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، د• حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٣ ص ٣٢٩ •

المهـــدية :

التى أنشأها الخليفة الفاطمى المهدى ، وكانت من أكبر الموانى التى تطل على شاطىء البحر المتوسط فى الشمال الافريقى لقربها من مدينة القيروان ، ومرساها منقور فى حجر صلد يسع ثلاثين مركبا(١٥٦) •

وهـــران :

مدينة على البحرالمتوسط (فى دولة الجزائر الحالية) ، وأكثر أهلها تجار (١٥٧) •

مليـــلة :

وهى مدينة بالمغرب قريبة من سبتة على ساحل البحر(١٥٨) •

ســـبته :

وهى بلدة مشهورة فى (المملكة المغربية) على البحر ومرساها أجود مرسى على البحر ، تقابل جزيرة الاندلس(١٥٩) •

اشـــبيلية :

وهى مدينة كبيرة عظيمة بالاندلس ، قريبة من البحر ويزرع فيها القطن الذى يحمل الى جميع بلاد الاندلس والمغرب ، وهى على شاطىء نهر عظيم قريب فى العظم من دجلة أو النيل تسير فيه المراكب المثقلة ، وبها أسواق قائمة وتجارات رابحة(١٦٠) •

---

(١٥٦) أنظر ياقوت : معجم البلدان : ج ٥ ص ٢٢٩ - ٢٣١ ، د• حسن ابراهيم : المرجع السابق ج ٣ ص ٣٢٩ •
(١٥٧) أنظر ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ •
(١٥٨) أنظر ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ١٩٧ •
(١٥٩) أنظر ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٨٢ ، ١٨٣ •
(١٦٠) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ١٩٥ ، المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ص ١٥٨ - ١٥٩ •

مــالقـــــة :

وهى مدينة عامرة فى الاندلس على ساحل (المحيط الأطلسى) ؛ وكثر قصد المراكب اليها فتضاعفت عمارتها(١٦١) ٠

دانيـــــة :

مدينة بالاندلس من اعمالبلنسية على ضفة البحر شرقا مرسـاها عجيب يسمى السمان(١٦٢) ٠

المــرية :

مدينة كبيرة من بلاد الاندلس ، كانت هى وبجانه بابى الشـرق ، منها يركب التجار وفيها تحل مراكب التجار ، وفيها مرفأ ومرمى للسفن والمراكب ، يضرب ماء البحر سورها ، وكانت مدينة مزدهرة « تقصـد مراكب الطريق اليها من الاسكندرية والشام كله ، ولم يكن بالاندلس كلها أيسر من اهلها مالا ولا اتجر منهم فى جميـع أنواع التجـارات تصريفا وادخارا »(١٦٣) ٠

ومما ساعد المسلمين فى رحلاتهم البحرية مهارتهم فى ركوب البحر، ومعرفتهم بالبوصلة والانتفاع بها ٠ فتمكنوا من إرتياد البحار فى جـرأة ومهارة فائقة حتى ملكوا فى أيديهم زمام التجارة بين الشرق والغرب ٠ فقد حملت تجاراتهم الى أوربا التوابل ، والعقاقير الطبية، والمنسوجات، والصينى ، والاحجار الكـريمة ، والبخور ، والعطور ، والعـاج ٠٠٠٠ وجميع السلع التى يكثر طلب الغرب الاوربى لها ٠

---

(١٦١) ياقوت : معجم البلادان ج ٥ ص ٤٣ ٠
(١٦٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤٣٤ ٠
(١٦٣) الادريسى : نزهة المشتاق مج ٢ ص ٥٦٢ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ١١٩ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٦٢ ، ١٦٣ ٠

كما حملت تجاراتهم من سلع أوربا الأخشاب ، والأسلحة ، والجوخ ، والشمع ، والفراء ، والصوف ، والزعفران ، والمرجان(١٦٤) .....

سبق المسلمين فى نظم التجارة ونقل الغرب عنهم

عرف المسلمون « الاعمال المصرفية » منذ نشأة الدولة الاسلامية .. فى حين أن النظام المصرفى فى أوربا لم يتطور الا خلال الحروب الصليبية بعد أن نقله الأوربيون عن الشرق العربى(١٦٥) .

وقد لاحظ الرحالة ناصر خسرو فى القرن الخامس الهجرى حين أشاد بمدينة أصفهان أن بها ما لا يقل عن مائتى صراف رآهم فى سوق لهم يسمى سوق الصرافين(١٦٦) وقد شاع فى المدن الاسلامية وجود الصيارفة الذين يعملون فى استبدال النقد ، والجهابذة ـ المحاسبين .

وقد عرف المسلمون « الحوالات » أو « السفاتج » توقيا لمخاطر حمل المال فى الرحلات الطويلة البعيدة والسفتجة : أمر بالدفع الى شخص معين .

كما تعاملوا « بالصكوك » وتعنى كثيرا من أوراق المعاملات المدنية والتجارية ومنها العقد وسند الدين ، وكان الصك فى العراق أشبه بالشيك الرسمى الحكومى الآن .. والشبه واضح بين كلمتى « صك » و « شيك »(١٦٧) .

---

(١٦٤) أنظر د. نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها ص ١٩١ ـ ٢٥٤ حيث ذكر تفصيلا لأنواع السلع المتبادلة بين الشرق والغرب .

(١٦٥) د. نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها ص ٣٤١ .

(١٦٦) الرحلة : ص ١٢٨ نقلا عن كتاب « طرق التجارة الدولية » ص ٣٤١ ، ٣٤٢ .

(١٦٧) أنظر متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣١٩ ـ ٣٢١ ، د. نعيم زكى : طرق التجارة ص ٣٤٠ ـ ٣٥٠ .

وكانت « عملة المسلمين » قوية مقبولة فى انحاء العالم ، وقد شاع استعمال الدنانير الذهبية فى البلاد الاسلامية التى كانت خاضعة للدولة الرومانية الشرقية وفتحها المسلمون كالشام ومصر ... اما فى بلاد فارس والعراق فشاع استخدام الدراهم الفضية(١٦٨) .

وهكذا جد المسلمون فى طلب الرزق ، وابتغاء فضل الله فى شتى ارجاء البر والبحر ، تطبيقا لتعاليم الاسلام التى تحث المسلمين على أن يأخذوا بكل أسباب القوة ، وان يكونوا سادة عالمهم ، ورواد دنياهم فى كل ناحية من نواحى الحياة .

---

(١٦٨) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣١٦ ـ ٣١٧ .

المجتمع الاسلامى يحقق التوازن

لقد استطاع المسلمون بحق - فى عصور ازدهارهم - أن يكونوا صورة مشرقة لتعاليم دينهم ، وانعكاسا امينا لروحه ، وفهما واعيا لأوامره وتوجيهاته ، ومن ثم استوعبوا بفقه وسعة ادراك أن الدين الاسلامى يجمع بين الدنيا والآخرة ، ولذلك عمل المسلمون لدنياهم كما عملوا لأخراهم ، فلم يخاصم المسلمون الدنيا من أجل الآخرة ، وانما اقبلوا على دنياهم ، وتمتعوا بطيباتها ، مستلهمين تعاليم ربهم ، وروح دينهم فى التوسط والاعتدال غالبا .

الطعام والشراب :

ان المجتمع الاسلامى هو ابن المعطيات القرآنية والنبوية ، وقد قرأ المسلمون فى كتاب ربهم هذا النداء الطيب للتمتع بطيبات الحياة الدنيا شرابا وطعاما قال تعالى : « كلوا من طيبات ما رزقناكم »(١٦٩) ، وقال : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين »(١٧٠) .

ومن ثم كان من الطبيعى أن ينال المسلمون حظوظهم من الطعام والشراب ، فبرعوا فى اعداد أنواع كثيرة من الطعام والشراب .

ويكفى أن نطالع قوائم أسماء بعض الأطعمة التى سادت العالم الاسلامى من لحوم وطيور وسمك وفاكهة وحلوى ... .

---

(١٦٩) سورة طه : آية ٨١ .
(١٧٠) سورة الأعراف : آية ٣١ .

وأسماء العصائر والمرطبات والمشروبات لكى يدرك أن المجتمعات الاسلامية لم تقصر فى الاستمتاع بما أحله الله من الطيبات وحيث وجدت الى ذلك سبيلا ٠

ولتقديم الدليل على ما نقول نكتفى فقط بذكر نموذج لبعض أنواع الحلوى التى عرفها المسلمون لنعرف الى اى مدى استمتع المسلمون بنعم الله التى يسرها لهم ٠

فمن أنواع الحلوى(١٧١) التى عرفها المسلمون : المقرضة السكب ، والصابونية(١٧٢) ، والوزيرية ، والخشخاشية ، والفستقية ، وخبيصة اليقطين(١٧٣) ، والقاهرية ، والمشبك ، والزقلبع ، والمصطنعية ، والقطايف المقلى ، والعاصدية، وراس العصفور، وساق الخادم ، والحما ، والبانوا ، وزلابية أفرنجية(١٧٤) ٠ وكعك تركى ، وإفطلوا ، وتالفة ، وعاضدية ، والشعبية ، ولقمة القاضى ، وخدود الترك ، وخدود الأغانى ، وأخميمية ، وأسيوطة ، ولبابية ، ووردية مكشوفة ، ومسير اليقطين ، ومجرودة ، وهريسة الدجاج ، وهريسة الورد ، وجوارش عود ، وجوارش عنبر ، ،وجوارش مصطكا ، وجوارش نارنج ، وكشيك الهوى ، وأقراص ليمون ، ودنف فستقى ، وبلاط (وصفته بندق ويعقد

---

(١٧١) أنظر محمد بن محمد بن أحمد القرشى : معالم القربة في أحكام الحسبة ، ص ١٨١ ـ ١٨٣ ٠

(١٧٢) الصابونية : نوع من الحلوى تصنع من الدقيق الذى يحمص بالسمن ثم يضاف اليه السكر واللبن ويعمل منه قوالب مثل الصابون أنظر كتاب معالم القربة ص ١٨١ هامش ٣ ٠

(١٧٣) خبيصة اليقطين : هى الحلوى التى تصنع من دقيق الحنطة مع دهن اللوز أو الشيرج يضاف اليها بعد الطبخ وترفع عن النار لتجمد ، أنظر كتاب معالم القربة ص ١٨١ هامش ٧ ٠

(١٧٤) نوع من الحلوى يدخل فى صناعتها العسل واللوز ـ أنظر معالم القربة ص ١٨٢ هامش ٣ ٠

فقيد اسكنجبيل :) وخشكنانك شامى ومصرى(١٧٥) ، وبسندود ، ومشاش(١٧٦) ، وكعب غزال هياجى وسابورى ، ولوزينج رطب ، وفزك أوساط ، والكاهى(١٧٧) ، وقاووت(١٧٨) ، وبقسماط(١٧٩) ٠

وكل واشكر ، ودلالات بنت الصالح ، وأمشاط سكرى ٠٠٠ ٠

وهكذا تمتع المسلمون بطيبات الحياة الدنيا فليس هناك ما يحول بينهم وبين ذلك ما دام فى حدود الاعتدال ، ومن الحلال ، وما دام المسلم يؤدى حقوق النعم التى انعم الله بها عليه ، وصدق رسول الله ﷺ اذ يقول « ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده »(١٨٠) ٠

التـزين والتجمـــل :

كما قرأ المسلمون قول الله تعالى داعيا للتزين والتجمل « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين »(١٨١) ٠

وقال ﷺ « من كان له شعر فليكرمه » ٠ (رواه أبو داود فى سننه) « باب فى اصلاح الشعر » ٠ فتفننوا فى تنويع الملابس ، وتغييرها مع

---

(١٧٥) خشكنانك : لفظ فارسى يطلق على الحلوى التى تصنع من دقيق السميد الذى يعجن ويبسط ويضاف اليه السكر واللوز المقشر والكافور وقليل من ماء الورد ـ المرجع السابق ص ١٨٣ هامش ٣
(١٧٦) مشاش : عسل يطبخ ثم يوضع فى اناء ليجمد فيصبح حلوى ـ المرجع السابق هامش ٤ ٠
(١٧٧) الكاهى : نوع من الخشكنان ـ المرجع السابق هامش ٨ ٠
(١٧٨) قاووت : نوع من الخشكنان ـ المرجع السابق هامش ٩ ٠
(١٧٩) بقسماط : نوع من الخشكنان ـ المرجع السابق ـ هامش ١٠ ٠
(١٨٠) سنن الترمذى : ج ٥ ص ١٢٤ « باب ما جاء ان الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » ٠
(١٨١) سورة الأعراف : آية ٣١ ٠

تغير الفصول ، واهتموا بحسن المنظر وجمال الشكل فى حدود الاعتدال غالبا ، كما حافظوا على طهارة البدن والثوب والمكان ، وتجنبوا ما من شانه اخراج رائحة كريهة خاصة أثناء صلاة الجماعة ، وحافظوا على استخدام السواك ، قال رسول الله ﷺ « السواك مطهرة للفم مرضاة للرب »(١٨٢) وقال « لولا أن أشق على امتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة »(١٨٣) .

كما استخدموا الطيب وقد اخبر الرسول ﷺ أنه قال « حببت الى من الدنيا النساء والطيب .. »(١٨٤) .

وفى الصحيح أن الرسول ﷺ تطيب قبل احرامه لحجته بأطيب الطيب ، عن عائشة رضى الله عنها كان رسول الله ﷺ ، اذا أراد أن يحرم، يتطيب باطيب ما يجد . ثم أرى وبيص الدهن(١٨٥) فى رأسه ولحيته بعد ذلك(١٨٦) .

المساكن :

وبنى المسلمون مساكنهم وتانقوا فى بنائها ، حتى لقد ظهرت عمارات ضخمة يتحدث الادريسى عن دور مصر فيقول « وبنيان دورها كلها وقصورها طبقات بعضها فوق بعض ، والأعم من ذلك تكون طبقاتها فى العلو خمسة وستة وسبعة ، وربما سكن فى الدار المائة من الناس واكثر ، واخبر الحوقلى فى كتابه أنه كان بمصر على عهد تاليفه لكتابه دار تعرف بدار عبد العزيز فى الموقف يصب لمن فيها فى كل يوم

---

(١٨٢) سنن النسائى : ج ١ ص ١٠ « باب الترغيب فى السواك » .
(١٨٣) سنن النسائى : ج ١ ص ١٢ « باب الترغيب فى السواك » .
(١٨٤) سنن النسائى ج ٧ ص ٦١ « باب حب النساء » .
(١٨٥) وبيص الدهن : الوبيص البريق واللمعان .
(١٨٦) صحيح مسلم : ج ٢ ص ٨٤٨ « باب الطيب للمحرم عند الاحرام»

اربعمائة راوية ماء ، وفيها خمسة مساجد ، وحمامان ، وفرنان ، ومعظم بنيان مصر بالطوب ... »(١٨٧) .

وذكر الرحالة ناصر خسرو (ت حوالى ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م) أن احدى العمارات فى القاهرة تسع خمسين وثلاثمائة ساكن ، وانه رأى بيوتا مكونة من أربعة عشر طابقا وان كانت غالبيتها من خمس أو ست طبقات ، وهو نفسه لما جاء الى مصر سكن فى بيت من أربع طبقات ... ، وكانت بعض البيوت من النظافة والبهاء بحيث يقال انها بنيت من الجواهر الثمين لا من الحجارة والطوب(١٨٨) .

كذلك كان الاهتمام بعنصر الماء والزروع الخضراء فى وسط فناء المنزل ، وتكرار هذه الظاهرة وشيوعها ، وتكثيف استخدامها فى بعض المدن كفاس (فى دولة المغرب) التى أصبحت فساقيها اشبه ما تكون بحمامات السباحة الخاصة ـ جعل من فناء المنزل بديلا عن الانطلاق نحو الشوارع والميادين التى تتوسطها .

وهكذا وجد (المسلمون) فى منازلهم البديل عن الشوارع والميادين والساحات الخضراء والفساقى العامة التى تزينها فيما توفر بالأبنية هذه المنازل ، كما أوجدت البديل عن المنتديات العامة ، والمسارح فى قاعات الاستقبال بالمنازل التى كانت تؤدى هذا الغرض بطريقة تتفق والخصوصية التى تحرص عليها التعاليم الاسلامية(١٨٩) .

---

(١٨٧) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق : مج ١ ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .
(١٨٨) سفر نامة ص ٤٨ ، ٥٠ ، نقلا عن د. ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٠٣ ، ١٠٤ .
(١٨٩) د. محمد عبد الستار عثمان : المدينة الاسلامية ص ٣٥٠ .

وسائل التسلية :

ومارس المجتمع الاسلامى على اختلاف العصور أنواعا من التسلية والألعاب : فهو يمارس الصيد ، وسباق الخيل ، ويلعب الكرة والصولجان ، ويتنازل فى الشطرنج ، ويرمى بالنشاب والبندق ، ويسمع الحكايات القصيرة ، والنوادر الهزلية ، والأحاديث المثيرة ، ويلعب القراح (وهى لعبة شبيهة بالكريكت والتنس) ، ويمارس السباحة والمصارعة ، ويلعب بالخيال أو ما كان يسمى وقتئذ بخيال الظل أو ظل الخيال (وهى لعبة كانت معروفة تتخذ شخوصها من جلود وتحرك بعصى من وراء ثوب أبيض مشدود فيظهر خيالها فيه) .

كما تسلى الناس أيضا بالعاب الدبابة (أى الذين يلعبون بالدببة) ، والقرادة (الذين يلعبون بالقرود) ، والحواة والبهلوانات الذين يمارسون اللعب بالحيات والأفاعى ، واللعب على الحبل والسير عليه، رفع الأثقال، والجلاد والطعان بالرمح ، والملاكمة ، والمشابكة ، ومسابقات الجرى بين المشهورين بسرعة العدو(١٩٠) ... الخ .

الخروج الى المتنزهات :

ونلتقى بالمجتمع الاسلامى فى ترويحه عن النفس بالخروج الى

---

(١٩٠) انظر د. أحمد عبد الرازق أحمد ، بحث وسائل التسلية عند المسلمين ص ٨٢ ـ ١٢٧ ، ضمن كتاب « دراسات فى الحضارة الاسلامية بمناسبة القرن الخامس عشر الهجرى » المجلد الأول ـ أصدرته الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٨٥ م ، د. عماد الدين خليل : ملاحظات فى تاريخ المجتمع المسلامى ص ٦٤ ـ مكتبة النور ـ القاهرة ؛ جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ج ٥ ص ١٧٧ ـ ١٨٣ :

المتنزهات والحدائق مثل الغوطة بالنسبة لدمشق ، وشاطىء النيل والبرك بالنسبة للقاهرة (١٩١) ، ومتنزهات قرطبة (١٩٢) ....

كثرة الاحتفالات :

كما نلتقى بالمجتمع الاسلامى وهو يحتفل باعياده ومناسباته المتعددة ، فبالاضافة الى ما ذكرناه من الاحتفال بالاعياد والمناسبات الدينية كانت هناك الاحتفالات الأخرى المتعددة كالاحتفال بالزواج ، والاحتفال بالولادة ، وختان الطفل ، والانتهاء من بناء دار جديد ، أو عودة مسافر ... الخ وما يحدث فى هذه الاحتفالات من ولائم واشعال الانوار والتزين ، ولبس الجديد ... الخ (١٩٣) .

روعة الفنون الاسلامية :

ونلتقى بالمجتمع الاسلامى فى كثرة فنونه التى طبعت بالطابع الاسلامى .

فهناك فن العمارة : من الأعمدة التى اتخذت تيجانا ، والاقواس ، والقباب والمآذن العالية ، والمشربيات ... الخ .

وهناك فن الزخرفة بالخط : على المبانى ، والتحف ، وغيرها ، وقد تعددت انواع الخط من نسخ ، ورقعة ، وثلث ، وديوانى ، وفارسى ، وكوفى ... وقد بلغ الخط العربى من الدقة الى ان اصبحت هناك قوانين وأحكام فى وضع كل حرف .

---

(١٩١) أنظر د. سعيد عاشور : بحث الحياة الاجتماعية فى المدينة الاسلامية ص ٩٧ ، ٩٨ ـ مجلة عالم الفكر مج ١١ ـ العدد الأول ـ ١٩٨٠ م .

(١٩٢) أنظر المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٤٦٦ وما بعدها .

(١٩٣) د. سعيد عاشور : الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية ، ص ١٠٢ ـ ١٠٤ .

كما كان هناك فن النحت : وقد اتجه النحت الاسلامى الى نحت الحروف ، أو صور النبات أو الأشكال الهندسية والتى عرفت بالزخرفة العربية Arabesque ؟لأن الاسلام يمنع نحت التماثيل .

كما تعددت الوان الفنون فى الصناعات المتعددة مثل فن صناعة الخزف ، والزجاج وصناعة التحف البلورية ، وصناعة المعادن والجوهر ، وفن الحفر على الخشب لا سيما حفر خشب المنابر ، والمقصورات ، ومساند المصحف ، والصناديق ، والأثاث ، وواجهات المنازل .

كما كان هناك فن الزخرفة على النسيج ، والأبسطة والسجاجيد ، وفن زخرفة الكتب وتزيينها بالرسوم والألوان وتذهيبها ... الخ(١٩٤).

أما بالنسبة للفنون الأخرى عند المسلمين وخاصة فيما يتصل بالغناء، والموسيقى ، والصور :

فقد كان هناك دائما رأيان أو فلسفتان : فلسفة تعتمد على التشديد والتحريم - وفلسفة تعتمد على المرونة والحكم على الأمور من منطلق أن الأصل فى الأشياء الاباحة ولا تحريم الا بنص قاطع .

وقد تغلب الرأى الثانى فى معظم الأوقات ، وكانت وجهة النظر الحكيمة بالنسبة لهذه القضايا ما يلى :

بالنسبة للغناء : هو كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح ، ومن غنى أو استمع الى غناء شريف المعنى ، طيب اللحن فلا حرج عليه ، أما الحرج فيأتى من غناء هابط المعنى واللحن .

---

(١٩٤) أنظر د. حسين مؤنس : عالم الاسلام ص ٢٩٧ - ٣٢٤ - الزهراء للاعلام العربى - القاهرة - ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م ، د. عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٢٥٧ - ٢٧٦ .

ويرى هـؤلاء انه لم يرد حديث صـحيح فى تحـريم الغنـاء على الاطلاق(١٩٥) .

وبالنسبة للموسيقى : فهى كالغناء حسنها حسن وقبيحها قبيح .

وقد ذكر فى السنة أن النبى ﷺ مدح صوت أبى موسى الأشعرى ، وكان حلوا ، وقد سمعه الرسول يتغنى بالقرآن فقال : لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود ، ولو كان المزمار آلة رديئة ما قال له ذلك ، وقد سمع رسول الله صوت الدف والمزمار دون تحرج(١٩٦) .

أما بالنسـبة للصـور :

فان الصور التى لا ظل لها كالنقوش فى الحوائط ، وعلى الورق ، والصور التى توجد فى الملابس والستور والصور الفوتوغرافية فهذه كلها جائزة بالنسبة لوجهة النظر المعتدلة .

وليس يحرم من هذه الصور الا ما يخل بالآداب ، ويحرك الغـرائز الى المعصية فقط .

اما التماثيل المجسمة :

فان النصوص الواردة تتظاهر على تحريم ما فيه روح سواء أكان انسانا أم حيوانا أم طيرا .

---

(١٩٥) عن هذا الموضوع أنظر ابن الجوزى (جمال الدين أبو الفـرج عبد الرحمـن) : تلبيس ابليس ص ٢٢٣ - ٢٥٠ حيث تحدث عن الغناء المباح والغناء المحظور ، ومذاهب الأئمة فى الغناء ، وذكر الادلة لمن قال بكراهية الغنـاء ، وأدلة من أجـاز سـماع الغناء ... الخ ، محمد الغزالى : مائة سؤال عن الاسلام ج ١ ص ١٧٥ ، ١٧٦ - دار ثابت - القاهرة - ١٩٨٣ .

(١٩٦) عن هذا الموضوع أنظر ما ذكره الشوكانى فى كتابه نيل الأوطار : حيث أورد حجج من أباح ومن حرم ، وما ذكره ابن حـزم فى المحلى » ج ٩ ، محمد الغزالى : مائة سؤال عن الإسـلام ج ١ ص ١٧٦ .

اما ما لا روح فيه كالاشجار والازهار ونحوها فيجوز(١٩٧) ٠

عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من صور صورةً فى الدنيا كلف يوم القيامة ان ينفخ فيها الروح وليس بنافخ »(١٩٨) ، وعن رسول الله ﷺ « ان اشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة المصورون »(١٩٩) ٠

إما لعب الاطفال : كالعرائس ونحوها فهى مباحة ويجوز صنعها وبيعها ٠

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت العب بالبنات فربما دخل على رسول الله ﷺ وعندى الجوارى فاذا دخل خرجن واذا خرج دخلن »(٢٠٠)

وعنها ان النبى ﷺ قدم عليها من غزوة تبوك أو خيبر وفى سهوتها (الرف) ستر ، فهبت الريح فكشفته عن بنات لعائشة لعب ٠ فقال : ما هذا يا عائشة ؟ قالت بناتى ٠ ورأى بينهن فرسا له جناحان من رقاع فقال : ما هذا الذى ارى وسطهن ؟ قالت : فرس قال : وما هذا الذى عليه؟ قالت جناحان ٠ قال : فرس له جناحان ؟ قالت : اما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة ٠ قالت : فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه»(٢٠١)

---

(١٩٧) انظر السيد سابق : فقه السنة مج ٣ ص ٤٩٨ - ٥٠٣ ، محمد الغزالى : مائة سؤال عن الاسلام ج ١ ص ١٧٦ - ١٧٨ ، وانظر بحث ثروت عكاشة : التصوير الاسلامى بين الحظر والاباحة ، ص ٥٢٥ - ٥٥٢ - مجلة عالم الفكر مج ٦ عدد ٢ - ١٩٧٥ ٠

(١٩٨) صحيح البخارى : ج ٧ ص ٦٧ « باب من صور صورة كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ » ٠

(١٩٩) صحيح البخارى ج ٧ ص ٦٥ « باب عذاب المصورين يوم القيامة»

(٢٠٠) أبو داود : السنن ج ٤ ص ٢٨٣ « باب فى اللعب بالبنات » ٠

(٢٠١) أبو داود : السنن ج ٤ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ « باب في اللعب بالبنات»

مـدن اسـلامية زاهـرة

وهكذا أمست مدن المسلمين عامرة بخيراتها ، زاخرة بمؤسساتها ، حافـلة بمرافقهـا التى تؤدى شـتى الأغـراض الادارية ، والصـحية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والعلمية ...

وهذه الصورة الوضيئة لأمة الاسلام تظهر واضحة جلية فيما كتبـه المؤرخون والرحالة عن مدنها ووصفهم لها ، فها هو الرحالة ابن بطوطة مثلا ـ الذى طاف بمدن العالم الاسـلامى وبلدانه خـلال القـرن الثامن الهجرى ـ يتحدث عن انطباعاته ومشاهداته التى رآها عن كثب لا عن كتب ـ فجاءت كتاباته صورة حية نابضة بتقدم العالم الاسلامى ومظاهر حضـارته .

فهو يتحـدث عن « مدينة الاسـكندرية » فيقول « .. هى الثغـر المحروس ، العجيبة الشـان الاصيلة البنيان ، بها ما شئت من تحسـين وتحصين ، ومآثر دنيا ودين ، كرمت مغانيها ، ولطفت معانيها ، وجمعت بين الضخامة والاحكام مبانيها ، فهى الفريدة من تجلى سناها ، والغريدة تجلى فى جلالها ، الزاهية بجمالها المغرب ، والجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب ، فكل بديعة بها اجتلاؤها ، وكل طـريفة فاليها انتهاؤها ... »(٢٠٢) .

أما « مدينة القاهرة » فهى « أم البلاد ، وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الاقاليم العريضة ، والبلاد الاريضة ، المتناهية فى كثرة العمـارة ، المتناهية بالحسن والنضارة ، ومجمع الوارد والصـادر ، ومحط رحـل الضعيف والقادر ... »(٢٠٣) .

---

(٢٠٢) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الامصار ص ٣٩ .
(٢٠٣) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الامصار ص ٥٥ .

ويتحدث عن « مدينة دمشق » فيقول عنها « .. هى التى تفضل جميع البلاد حسنا وتقدمها جمالا ، وكل وصف وان طال فهو قاصر عن محاسنها ... »(٢٠٤) .

ويقول عن « مكة المكرمة » « ... كل طرفة تجلب اليها ، وثمرات كل شىء تجبى لها ... وكل ما يفترق فى البلاد من السلع فيها اجتماعه ... »(٢٠٥) .

ويصف « مدينة شيراز » (فى ايران) بأنها « مدينة أصيلة البناء، فسيحة الارجاء ، شهيرة الذكر ، منيفة القدر ، لها البساتين المونقة ، والانهار المتدفقة ، والاسواق البديعة ، والشوارع الرفيعة ، وهى كثيرة العمارة ، متقنة المبانى ، عجيبة الترتيب ، وأهل كل صناعة فى سوقها ، لا يخالطهم غيرهم ، حسان الصور ، نظاف الملابس ... »(٢٠٦) .

.... ونكتفى بهذا القدر الذى يشير الى عمران بلاد المسلمين ، وكيف أن المسلمين عمروا الدنيا ، ومشوا فى مناكبها يبتغون من فضل الله ورزقه ، فعملوا لدنياهم كما عملوا لآخرتهم ، وجمعوا بينهما بفهم ونضج محققين تعاليم دينهم ، ومنهج ربهم .

منهج الهى فذ :

ان طبيعة منهج الله اشباع البطن من حلال ، وتحصيل المال ، وإعطاء حق الله الذى هو حق الفقير فيه ، وانفاق الخير فى المعروف بغير إسراف ولا تقتير .

---

(٢٠٤) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الامصار ص ١٠٤ .
(٢٠٥) ابن بطوطة : تحفة الانظار فى غرائب الامصار ص ١٥٤ ، ١٥٥ .
(٢٠٦) ابن بطوطة : تحفة النظار ص ٢١٨ .

والاستمتاع بالزينة من غير اتلاف للنفس ، أو لهو عن الصالحات الباقيات ، مع تطهير للذيل ، ومعرفة لله وعبادته وشكره وابتغاء مرضاته وتقـــواه .

اذن فطبيعة هذا المنهج متوازنة تربى الانسان المتوازن .

فلا هـو بالحيـوان ولا هـو بالملك ، بل انســان ربانى يعيش فى الأرض يمشى فى مناكبها ويأكل من رزقها ، ويتصل بالسماء ويرتبط بها بسبب .

فهو أرضى سماوى ، حيوانى روحى ، شهوانى قيمى(٢٠٧) .

ان منهج الاسلام وضح الأمور توضيحا كاملا ، وبين الطريقة بيانا شافيا فالرجل الذى يعيش حياته مقبلا على المــال ، منافسا على المــادة ، مستغرقا فى مطالب البدن ، مشغوفا بالجاه الفارغ ، والمظاهر الخادعة ، مسخرا ادراكه الحسى والقلبى لهذا المتاع الباطل ـ

رجل مفتون عن حقيقة نفسه ، محجوب عن رؤية لب الحياة أراد له منهج الله أن يرقى الى أفق أعلى ، فانسلخ من تلك الكرامة وأخلد الى الأرض .

والرجل الذى يقبل على مطالب روحه فيقضى نهاره صائما ، وليله قائما ، معرضا عن طيبات الحياة ، وعن اعمال الخير وعن اصلاح الحياة ، وابتغاء ما فيها ، فلا يلبس الا الخشن ، ولا يأكل الا اليابس الجاف ـ

تضعف قواه ، وتعظم على حسابها قواه الروحية ، أو ينزوى ببعض التسابيح وبعض الأوراد ، تاركا العمل الصــالح والسعى وراء ظهـره ـ رجل جاهل أيضا بحقائق المنهج ، غافل عن سنة الله ، مضيع لحقـوق بدنه ودينه .

---

(٢٠٧) د. توفيق الواعى : الحضارة الاسلامية ص ٦٣١ .

أو بمعنى آخر مضيع لاحدى ناحيته وكفى بذلك خسارة وتعطيلا لأمر الله فيه (٢٠٨) .

عن انس بن مالك رضى الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط الى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ .

فلما أخبروا كانهم تقالوها . فقالوا : وأين نحن من النبى ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال أحدهم : أما أنا فانى أصلى الليل ابدا ، وقال آخر : أصوم الدهر ولا افطر ، وقال آخر : أنا اعتزل النساء فلا اتزوج أبدا .

فجاء رسول الله ﷺ فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا . أما والله انى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وافطر ، وأصلى وارقد ، واتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » (٢٠٩) .

بهذا الحكم الأصيل رسم لنا رسول الله ﷺ منهاج الحياة السليم الصحيح فبين أن الافراط مذموم ولو كان فى اقبال العبد على حياته الروحية فان الله لا يقبل من عبده أن يعطل سنته ثم يزعم أن يعجل الى مرضاته (٢١٠) .

ولهذا أمر الله الانسان بالسعى والابتغاء من فضل الله ، كما أمره بالعباد فقال سبحانه : « يا ايها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » (٢١١) .

---

(٢٠٨) د. توفيق الواعى : الحضارة الاسلامية ص ٦٣٢ .
(٢٠٩) صحيح البخارى : ج ٦ ص ١١٦ « باب الترغيب فى النكاح » .
(٢١٠) د. توفيق الواعى : المرجع السابق ص ٦٣٣ .
(٢١١) سورة الجمعة : آية ٩ ، ١٠ .

وقت للعبادة وتزكية الروح التى هى حقيقة فى الانسان لا صلاح له بدونها ، ووقت آخر للسعى واشباع البطن وحفظ الجسد واصلاح الدنيا « **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور** »(٢١٢) .

ان الاسلام يعلمنا أن الحياة الروحية تعانق الحياة الجسدية .

وانه لا صلاح لحياتنا الا بالمادة والروح ، كما يعلمنا كيف نعيش الحياة بالمادة والروح ، وبالوحى والعقل ، وبالاتباع والفهم ، وبالشهادة والغيب .

فلا عداء بين مطالب الروح والجسد ، أو بين الحياة المادية والروحية أو بين تعاليم الوحى وأدراكات العقول والافهام .

كما يعلمنا أنه لا ايمان بدون عمل ، وأن كل عمل للمسلم يجب أن تتجلى فيه تعاليم دينه وحضارته وقيمه(٢١٣) .

● وهكذا نستطيع القول بان الحضارة الاسلامية حققت **معادلة التوازن** بين الطموح للآخرة والتمتع بطيبات الحياة الدنيا ... حققت **الوفاق** بين الروح والجسد ... بين نداءات الخلود وضرورات التبدل والتغير والزوال .

ولم نسمع يوما ــ الا فى حالات التعصب أو الانحراف ــ عن دعوة فقيه أو مؤسسة لتكفير المجتمع المسلم وهو يأكل الطعام الجيد ، ويلبس الثياب الحسنة ، ويسكن البيوت الأنيقة ، أو وهو يلعب ويحتفل ويغنى ويتسابق ويفرح بأعياده ومناسباته ...

---

(٢١٢) سورة تبارك : آية ١٥.

(٢١٣) د. توفيق الواعى : الحضارة الاسلامية ص ٦٤١ ، ٦٤٢ .

لقد كان ذلك امرا طبيعيا تماما ، كما كان التشبث بالآخرة والسعى اليها امرا طبيعيا - بل ضروريا ملزما - .

فلم تكن العلاقة بين الممارستين علاقة تناقض أو صراع ، وانما كانت علاقة وفاق وتناغم وتداخل وامتداد .

وليس ثمة فى تاريخ البشرية مجتمع قدر على الحفاظ على هذا القدر من التعايش بين الدنيا والآخرة على الأرضية الاجتماعية كالمجتمع الاسلامى .

فان المجتمعات الأخرى - كما رأينا من قبل(٢١٤) - اما أن تكون متدينة تبحث عن مملكتها فى السماء فتنسى نصيبها فى الأرض .

أو كافرة منحلة تنكب على دنياها كما تنكب الحيوانات العجم على الأرض الخضرة دون أن ترفع رؤسها الى السماء كى تلبى مطالب الروح العليا .

اما هنا فى تجربة المجتمع الاسلامى فان (الانسان) يأخذ موقعه الحق ، ولولا ضغوط الشر والضلال ، وطغيان السلطة وترفها من جهة ، ودعوات الرهبانية للتزهد والتقشف الذى يجاوز المعقول من جهة أخرى . لما وجد المجتمع الاسلامى حتى تلك التوجهات الاستثنائية المنحرفة ذات اليمين وذات الشمال .

ولكان خط التوازن هو الخط العريض الذى يميز الحياة الاسلامية عبر العصور(٢١٥) .

---

(٢١٤) أنظر ما كتبناه فى الفصل الثانى عن الحضارات القديمة والحضارة المعاصرة ص ٤٣ - ٥١ .

(٢١٥) د. عماد الدين خليل : ملاحظات فى تاريخ المجتمع الاسلامى ، ص ٦٦ ، ٦٧ .

الفصل الخامس

حضارة تقوم على التكافل والتراحم

ومن سمات الحضارة الاسلامية وخصائصها انها حضارة « تقوم على التكافل والتراحم » ٠

وهذه حقيقة تتضح وتتجلى عندما نفتح صحائف التاريخ ، ونتعرف على ما ساد بين ابناء هذه الأمة المسلمة من تكافل وتراحم ، وتعاون وترابط ، واخاء ومحبة مما لا نجد له نظيرا فى التاريخ الانسانى كله ٠

ومما يزيد من روعة هذه الروح عند المسلمين : أن هذه الصور الوضيئة من التكافل والتراحم ، ومن الاخاء والمحبة ، كانت تحدث فى عصور كان من ابرز سماتها القسوة والتحكم ، والاستبداد والتظالم خارج ديار المسلمين ، ولا شك أن مبادىء الدين الاسلامى العظيم هى التى خلقت هذه الروح ، واشاعت تلك القيم ، وغذت تلك الفضائل ٠

والآن نحاول أن نلقى من الأضواء ما يبرز هذه المعانى ، ويؤكد تلك الحقائق ٠

المجتمعات القديمة والوسيطة خارج ديار الاسلام مجتمعات طبقية :

من الظواهر المعروفة فى التاريخ أن المجتمعات القديمة والوسيطة عدا المجتمع الاسلامى كانت مجتمعات طبقية ، اى أن الناس ينتظمون فيها طبقات بعضها فوق بعض ٠

على قمتها كان يتربع رئيس الجماعة - ملكا كان أو قائدا - وأهل بيته ، وتليه طبقة أهل الحكم ، ويحتل كل منهم مركزا من مراكز القوة ، وتقاس أهمية هذه المراكز بقربها أو بعدها من رئيس الجماعة .

وقد يصل الى القوة ناس عن طريق المصاهرة لصاحب السلطان ، أو تقديم المال له ، ويتمتع أصحاب مراكز القوة هؤلاء بمراكز ومستويات اجتماعية تجعل منهم طبقة ممتازة تتمتع بأكبر جانب من خيرات البلد .

ويدخل فى طبقة أهل القوة « كبار رجال الدين » بما يتمتعون به من سيطرة روحية على الجماهير ، وبما يملكون - بحكم التنظيم الدينى من أموال وعقارات أحيانا .

كما كان يدخل فى هذه الطبقة « أهل المال » من التجار ، وأصحاب الأراضى والأموال ، وحواشى أهل القوة .

ويلى هؤلاء جميعا « جمهور الناس » وهم كتلة شعب الجماعة من صناع ، وزراع ، وموظفى الدولة ، وصغار التجار ، وصغار رجال الدين ، وأهل الحرف الصغيرة غير الثابتة من الحمالين والمكارين والخدم ، وألوف كثيرة من السوقة - أى الذين يقضون كل وقتهم فى الأسواق دون عمل واضح معين - فهم جمهور سائل يدخل فى جملته المتسولون والمشعوذون واللصوص .

وهذا التنظيم الاجتماعى الطبقى ورثته المجتمعات الانسانية المتحضرة من العصر القبلى البدائى فى تاريخ التطور الاجتماعى البشرى(١) .

---

(١) د. حسين مؤنس : عالم الاسلام ص ١٨٩ ط ١٩٩٠ م

وهذه لمحات عن بعض المجتمعات التي تكرس فيها نظام الطبقات لنعرف الى أى مدى بلغ ظلم الانسان لاخيه الانسان ، وكيف استطاع البعض أن ينتزعوا لانفسهم من المزايا والمكاسب ما لم يأذن به الله .

التفاوت بين الطبقات فى بلاد فارس :

كان الاكاسرة ملوك فارس يدعون انه يجرى فى عروقهم دم الهى . وكان الفرس ينظرون اليهم كآلهة ، ويعتقدون أن فى طبيعتهم شيئا علويا مقدسا ، فكانوا يعظمونهم ، وينشدون الاناشيد بالوهيتهم ، ويرونهم فوق القانون ، وفوق الانتقاد ، وفوق البشر .

لا يجرى اسمهم على لسانهم ، ولايجلس احد فى مجلسهم ، ويعتقدون ان لهم حقا على كل انسان ، وليس لانسان حق عليهم ، وان ما يرضخون لاحد من فضول اموالهم وفتات نعيمهم انما هو صدقة وتكرم من غير استحقاق ، وليس للناس قبلهم الا السمع والطاعة(٢) .

ويقول مؤلف تاريخ « ايران فى عهد الساسانيين » « كان المجتمع الايرانى مؤسسا على إعتبار النسب والحرف ، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة ، وكانت الحكومة تحظر على العامة ان يشترى احد منهم عقار الأمير أو كبير ، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقنع كل واحد بمركزه الذى منحه نسبه ، ولايستشرف لما فوقه ، ولم يكن لاحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التى خلقه الله لها ، وكان ملوك ايران لا يولون وضيعا وظيفة من وظائفهم ، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزا واضحا ، وكان لكل واحد مركز

---

(٢) أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٤٩ .

محدد فى المجتمع »(٣) . وهكذا وصلت الأمور فى بلاد فارس الى هــذا الحد من الاستبداد والغبن والامتهان .

نظام الطبقات فى الهند :

اما نظام الطبقات فى الهند فلم يعرف فى تاريخ أمة من الأمم نظــام طبقى اشد قسوة ، وأعظم فصلا بين طبقــة وطبقة ، وأشد استهانة بشرف الانسان من النظــام الذى اعترفت به الهنــد دينيا ومدنيا ، وأصبح قانونا رسـميا ، ومرجعــا دينيــا فى حيــاة البــلاد ومدنيتها ، وهو ما عــرف بـ « منوشاستر » .

وقد قسم هذا القانون بلاد الهند الى اربع طبقات هى :

١ ـ البراهمة ـ طبقة الكهنة ورجال الدين .

٢ ـ شــترى ـ رجــال الحــرب .

٣ ـ ويـــش ـ رجــال الزراعة والتجارة .

٤ ـ شــودر ـ رجــال الخــدمة .

وقد منحت « طبقة البراهمة » امتيازات وحقوقا الحقتهم بالآلهة . . فهم صفوة الله ، وهم ملوك الخلق ، وان ما فى العالم هو ملك لهم ، فانهم أفضل الخلائق ، وسادة الأرض كما يقول قانونهم « منوشاستر » .

أما طبقــة « شودر » فكانت فى المجتمــع الهنــدى ـ بنص قانونهم منوشاستر ـ أحــط من البهــائم ، وأذل من الكلاب ، ويصرح القانون بأن من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة ، وليس لهم أجر وثواب بغير

---

(٣) أرتهرسين : ايران فى عهد الساسانيين نقلا عن كتاب ماذا خسر العالم ص ٥٠ ، ٥١ .

ذلك ، وليس لهم أن يقتنوا مالا او يدخروا كنزا فان ذلك يؤدى البراهمة(٤) ... الخ ما نقراه فيحس الانسان باسى وحزن عميقين لما يبلغه الظلم والجور بين بنى البشر الى هذا الحد .

طبقات المجتمع فى أوربا :

اما اذا استعرضنا تاريخ اوربا فى العصور الوسطى : فاننا نجد طبقات النبلاء أوالأشراف ، ورجال الدين ، والشعب طبقات متميزة محددة المعالم ، يختلف بعضها عن بعض .

● فرجال الدين لهم ميزاتهم : فهناك وظائف الاكليروس المعلومة ، وثيابهم المميزة ، وسطوتهم الكبرى ، وكان البابا يرأس هذا النظام الكهنوتى ، ويحاول من فوقه أن يطاول سلطة الملوك والأباطرة ، ويزعم انه هو الذى ينصبهم ويمنحهم السلطان ، ويريدون هم ان ينسلخوا من سلطته .

وكان للاكليروس اموال طائلة تتمثل فى الأوقاف الكنسية التى وقفها المتدينون ، والاتاوات المفروضة عليهم ، بل كان للكنيسة جيوش فى احيان كثيرة .

● أما الأشراف : فكانوا طبقة تتوارث الشرف فيما بينها بحيث يولد الطفل شريفا منذ مولده ، ويظل شريفا حتى يموت لا يدخل فى تقدير شرفه هذا عمله أو جهده أو نضاله ، كما كانوا يحملون القابا مميزة مثل دوق ، وكونت ، ومركيز ، وبارون ... الخ .

وكانت امتيازاتهم فى عهد الاقطاع سلطانا مطلقا على الشعب الموجود فى الاقطاعية ، كانوا هم السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية ، وكانت

---

(٤) انظر الندوى : ماذا خسر العالم ص ٥٨ - ٦٠ .

أهواؤهم هى القانون ، ونزواتهم هى التشريعات ، لانهم يشكلون المجالس النيابية ، ويسنون ما يحميهم من قوانين تحفظ لهم امتيازاتهم ، وتضفى عليهم صفات التميز .

وكان هؤلاء الاشراف أو النبلاء يحيطون بالملوك ويقاسمونهم السلطان حينا ، وينافسونهم حينا آخر ، ويترفعون عن الاختلاط بالشعب .

● وأما الشعب : فهو القطيع الذى لا حقوق له ولا امتيازات ، وانما من نصيبه الواجبات فحسب ، يتوارث الفقر والذل والعبودية .

وقد احلت التطورات الاقتصادية فى أوربا طبقة جديدة محل طبقة الاشراف نازعتهم امتيازاتهم ومكانتهم ، وهى الطبقة البورجوازية، وبقيادة هذه الطبقة وعلى اكتاف الشعب قامت الثورة الفرنسية التى الغت فى الظاهر نظام الطبقات واعلنت نظريا مبادىء الحرية والاخاء والمساواة(٥) .

المجتمع الاسلامى مجتمع لا طبقى :

لقد دأب الناس كما راينا على التفرقة فيما بينهم وفق أسس مختلفة ، واعتبارات متباينة ، كاعتبارات الاموال ، والاحساب ، والانساب ، والسلالات ، والالوان ... الخ ما عرفته البشرية من فروق مصطنعة ، وتمايز ظالم ما انزل الله به من سلطان .

---

(٥) أنظر د. النعمان عبد المجيد القاضى : الاسلام عقيدة وحياة ص ٧٦ ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ـ القاهرة ـ ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م ، د. حسين مؤنس : عالم الاسلام ص ١٩٣ ، ولمزيد من التفاصيل انظر د. سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ـ جزآن ـ مكتبة الانجلو المصرية ، هـ.١٠ل. فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ـ نقله الى العربية د. محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العرينى ، ابراهيم احمد العدوى ـ جزآن ـ دار المعارف بمصر .

ولما كان التظالم والجور هو أقوى عوامل الكراهية والشحناء والحروب بين الناس على امتداد التاريخ ـ فقد جاء الاسلام ليآخى بين الناس جميعا ، وليردهم الى اصلهم الواحد ، وأنهم يعودون الى اب واحد وأم واحدة ، فلا مجال اذن للتشاحن والبغضاء فيما بينهم ، وانهم جميعا متساوون أمام الله تعالى ، لا يفرق بينهم الا العمل الصالح ، ولا يمايز بينهم الا تقوى الله وطاعته قال تعالى :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم »(٦) .

وقال : **« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجا وبث منهما رجالا كثيرا ونساءا واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا »(٧) .**

ولقد ندد القرآن الكريم بفرعون لاستعلائه ، وبقارون لبغيه واعتزازه بماله ، وجعل العاقبة « **للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا** »(٨) .

كما اكد رسول الله ﷺ المساواة بين الناس جميعا قال عليه الصلاة والسلام « الناس سواسية كأسنان المشط » ، وقال « ان الله يكره أن يرى عبده متميزا » ، وخطب رسول الله ﷺ الناس فى حجة الوداع يؤكد لهم هذه المعانى ، ويوضح لهم تساوى الناس جميعا فى الحقوق والواجبات ، والجزاء والعقاب ، والغاء الامتيازات التى فرقت بين بنى البشر بسبب اللون ، أو الجنس ، أو النسب ، أو الطبقة ، أو المال ، أو المنصب ،

---

(٦) سورة الحجرات : آية ١٣ .
(٧) سورة النساء : آية ١ .
(٨) سورة القصص : آية ٨٣ .

واعتبر ذلك اخلالا باصل الاعتقاد بوحدة البشر الذين خلقهم الله من أصل واحد فقال «ايها الناس ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى »(٩)

وهذا ابو ذر الغفاري رضي الله عنه يقول لغلامه « يا ابن السوداء » فلما سمع رسول الله ﷺ ذلك . قال له : اتعيره بامه انك امرؤ فيك جاهلية، ثم قال له طف الصاع طف الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى او بعمل صالح .

فطاطا ابو ذر راسه لغلامه ، ووضعها على الأرض حتى داسه غلامه ليغفر الله له ذلته ، ويكفر عنه ما بدر من خلق الجاهلية الاولى .

وقال ﷺ « اخوانكم جعلهم الله فتية تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه ، وليلبسه من لباسه ، ولا يكلفه ما يغلبه ، فان كلفه ما يغلبه فليعنه »(١١) .

ان الاسلام حارب الكبرياء والغرور والاستعلاء على الناس ، وفتح ابواب المساواة والعدالة امام الجميع ، ولهذا اتجهت همم الطامحين من ابناء الشعوب الاسلامية الى الصعود الاجتماعي عن طريق التقى والعلم ، لان الله سبحانه وتعالى قال في كتابه الكريم : « **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير** »(١٢) .

---

(٩) ابن عبد ربه (احمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي) : العقد الفريد ج ٣ ص ٣٥٢ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان .

(١١) سنن الترمذي : ج ٤ ص ٣٣٤ ـ باب « ما جاء في الاحسان الى الخدم » .

(١٢) سورة المجادلة : الآية ١١ .

ولهذا تنافس الناس تنافسا شديدا فى دنيا العلوم والقيم ، لأنه كان فى استطاعة أفقر الناس فى المجتمع الاسلامى أن يشق طريقه صاعدا فى المجتمع عن طريق العلم ، والفضيلة ، والتقى حتى يصل الى أرقى الدرجات .

نعم لقد جاء الاسلام ليؤسس مجتمعا جديدا على أسس جديدة ، واعتبارات جديدة ، هى أسس الايمان والعقيدة ، والفضيلة والصلاح ، واعتبارات الكفاءة والجدارة والأحقية ، وبذلك ضرب كل الأسس والاعتبارات التى قامت عليها مجتمعات ما قبل الاسلام ضربة ساحقة .

لقد أعلن الاسلام أن العمدة والفارق والأساس هو السعى والكفاح قال تعالى : « **وأن ليس للانسان الا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى** »(١٣) .

وأن الفرق فى النتائج أساسه الفرق فى السعى والجدارة ، ومقدار الكفاح قال تعالى : « **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** »(١٤) .

وأن السعادة والحياة الطيبة مضمونة لمن أوفى شروطها ، وأدى حقوقها من أى جنس أو سلالة كان « **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياه طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** »(١٥) .

وصرح القرآن الكريم بأنه ليس الأمر بالأمانى والأحلام ، أو مجرد الانتساب الى الأجداد ، فقانون الجزاء الالهى عام شامل لا يميز بين جنس

---

(١٣) سورة النجم : الآيات ٣٩ ــ ٤١ .
(١٤) سورة المجادلة : آية ١١ .
(١٥) سورة النحل : آية ٩٧ .

وجنس ، وسلالة وسلالة ، قال تعالى : « **ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا** »(١٦) ٠

وقال : « **لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير** »(١٧) ٠

وكان ﷺ يخاطب أهله قائلا « لا يأتينى الناس بأعمالهم ، وتأتونى بأنسابكم » ، وكان يقول « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » ٠

وكان من نتيجة ذلك أن نمت المجتمعات الاسلامية بدون طبقات متحاجزة أو متمايزة ، ولكن ذلك لم يمنع أن يكون فى الناس أغنياء وفقراء ، وموهوبون وغير موهوبين ، وأصحاب جاه وضعفاء ، ومتعلمون وغيرمتعلمين ٠

فنشأ عن ذلك ما لابد منه من اختلاف الناس بعضهم عن بعض ، وتفاوت حظوظهم من المكانة فى المجتمع ،وظهور نوع من التصنيف الاقتصادى والفكرى للناس ، هو الذى يعنيه مؤرخونا عندما يتحدثون عن أقسام « الناس أو طوائفهم »(١٨) ٠

وهذا التقسيم للناس بحسب حرفهم وصناعاتهم ، أو بحسب مستوياتهم الاقتصادية ٠٠٠٠ ليس تقسيما الى طبقات اجتماعية ، فالمعروف أن المال يروح ويجىء ، وكذلك السلطان والقوة ، فقد يكون رجل غنيا اليوم وفقير غدا ، وقد يكون صاحب وظيفة وسلطان فى يوم ثم يفقد ذلك فى يوم آخر(١٩) ٠

---

(١٦) سورة النساء آية ١٢٣ ٠
(١٧) سورة الممتحنة : آية ٣ ٠
(١٨) د٠ حسين مؤنس : عالم الاسلام ص ٢٣٦ ٠
(١٩) د٠ حسين مؤنس : المرجع السابق ص ٢٣٧ ٠

والحق انه لم يكن بمقدور اى مجتمع عبر التاريخ أن يسوى بين افراده تسوية مطلقة ، من حيث موقعهم الاجتماعى ، وليس من حيث المعاملة ، وتكافؤ الفرص .

واذا حدث وتم هذا ، أو نودى به فان الأمر سيخرج الى نطاق مظلمة جديدة تضيع فيها الحقوق مرة اخرى(٢٠) .

ونظرة متانية الى كل ما يحدث الآن فى المجتمعات الشيوعية من ثورات واردة عن الفكر الشيوعى يؤكد لنا أن هذه المجتمعات امست تذعن اليوم لمنطق السلم الاجتماعى ، وتفاوت الحظوظ بين الناس وفقا لتفاوت طاقاتهم واعمالهم ، قال الله تعالى : **«نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا »**(٢١)

فهنا يؤكد القرآن الكريم حقيقة التغاير المحتوم فى المواقع الاجتماعية ، ويعتبرها — فى الوقت نفسه — من ضرورات الحركة الاجتماعية صوب الأحسن والأرقى .

حقا ان الله فضل البعض على البعض فى الرزق ، ورفع البعض درجات فوق بعض فقال : **« والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق »**(٢٢) وقال : **« ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات »**(٢٣) .

ولكن هذا لا يعنى أبدا أن الاسلام يقوم على نظام طبقى كما يفهم بعض اعدائه ، وكما يصفونه تجنيا او جهلا ، فمعنى الآيتين هنا يفيد

---

(٢٠) د. عماد الدين خليل : ملاحظات فى تاريخ المجتمع الإسلامى ص ١١ .
(٢١) سورة الزخرف : آية ٣٢ .
(٢٢) سورة النحل : آية ٧١ .
(٢٣) سورة الزخرف : آية ٣٢ .

حقيقة واقعة فى كل زمان ومكان ، فى ظل الاسلام وغير الاسلام ، وهى أن الناس متفاوتون فى مراتبهم وأرزاقهم ·

والآيتان لا تقدمان سببا للتفضيل ، ولا تنصان على أن السبب يكون عادلا بمعايير الأرض أو يكون ظالمـا ولكنهما يفيدان ان الناس لا يتناولون اجرا موحـدا لانهم لا يبذلون جهـدا متسـاويا ، ولا ينهضون بمسئوليات متكافئة فليس جميع الناس رؤساء وليسوا جميعا مرؤوسين ، وليسوا كلهم ضباطا وليسوا جنودا فحسب ···

ليس فى الآيتين ما يفهم منه ان الاسلام يقوم على نظام طبقى ، وذلك لان الطبقية تعنى : أن الطبقة التى تملك المـال ـ تملك السلطا ن ، وتملك وسائل التشريع بطريق مباشر أو غير مباشر ·

فتشرع القوانين لحماية نفسها ، ولابقاء الباقـين خاضعين لسلطانها محرومين من كثير من حقوقهم ارضاء لشهوات الطبقة الحاكمة(٢٤) ·

فاذا أدركنا هذا أدركنا أن الاسلام لا يوجد فيه نظام طبقى كهذا الذى تحدثنا عنه من قبل فى بلاد فارس أو الهند أو أوربا ·· ·

تعاليم الاسلام لا تسمح بقيام الطبقات فى المجتمع الاسلامى :

ان تعاليم الاسـلام وتوجيهاته تقيم فى الحقيقـة مجتمـع التـكافل والتراحم ، وهى لا تسمح ابدا بقيام نظام طبقى كهذه النظم التى تكرست فى المجتمعـات التى أشرنا اليها(٢٥) ، ويمكن أن تتضح هذه الحقيقـة بما يلى :

---

(٢٤) د· النعمان عبد المجيد القاضى : الاسلام عقيدة وحياة ص ٧٥ ·
(٢٥) أنظر ما كتبناه عن النظام الطبقى فى بلاد فارس ، والهند وأوربا ص ١٨١ – ١٨٤ ·

(أ) نظام الحكم فى الاسلام :

لقد وضع الاسلام منهجا واضحا للحكم ، وقد تحدث الفقهاء والعلماء عن الأسس والقواعد التى ينبغى أن يقوم عليها حكم المسلمين ، والشروط التى ينبغى أن تتوفر فى الخليفة مثل الذكورة ، والاسلام ، والعلم ، والعدالة والكفاية ، وسلامة الحواس والأعضاء ... كما ذكر الفقهاء ما ينبغى أن تكون عليه العلاقة بين الحاكم والمحكوم ... الخ .

ويهمنا هنا أن نؤكد انه ليس فى الاسلام وراثة للعرش ولا للامارة ـ فتوريث الحكم امر ينكره الاسلام ، ولا تكون الخلافة فى أسرة واحدة مهما كان نوعها ومركزها ، وسواء اكانت من آل البيت أم من غيرهم ، فالحكم الوراثى غير متعارف عليه فى الاسلام ، والاسلام لا يكترث لأنساب ولا الوان ولا أجناس ومبدؤه الثابت : « **ان اكرمكم عند الله اتقاكم** »(٢٦) .

ان النسب لا يغنى شيئا فلو كان الرجل صحيح النسب وغير ملتزم بمنهج الله الذى سار عليه رسول الله واصحابه فلا وزن له فى الدنيا ولا فى الآخرة « **ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من اهلى وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين . قال يانوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلا تسالن ما ليس لك به علم انى اعظك أن تكون من الجاهلين** »(٢٧) .

ووجود « **النظام الوراثى** » فى التاريخ الاسلامى ـ لا يزيد عن وجود مسلمين يشربون الخمر ، أو يلعبون الميسر ، أو يتعاملون بالربا ، ومع ذلك لا يمكن أن يزعم أحد ان الاسلام اباح الخمر أو الميسر او الربا فى يوم من الأيام .

---

(٢٦) سورة الحجرات : آية ١٣ .

(٢٧) سورة هود : الآيات ٤٥ ، ٤٦ .

(ب) نظام الميراث فى الاسلام :

لقد وضع الاسلام نظاما واضحا للميراث فصلته آيات القرآن الكريم ، واحاديث الرسول ﷺ ، ومن هذا النظـام يتضح لنا أنه ليس فى الاسـلام « ما يحافظ على الثروة فى يد قوم بعينهم يتوارثونها » ، بل وضع الاسلام قوانين تحول دون طغيـان رأس المـال ، وتجـرده من وسـائل السيطرة والنفوذ ، وتؤدى الى تفتيت الثروة بصفة دائمة ، واعادة توزيعها بنسب جديدة على الدوام وهى « قوانين الميراث » .

فقد وضع الاسـلام للميراث نظاما حكيما يـكفل توزيع الثروات بين الناس توزيعا عادلا ، ويحول دون تضخمها ، ودون تجمعها فى أيد قليلة ، ويعمل على تقريب الفوارق بين الطبقات ، وذلك أنه يقسم التركة على عدد كبير من اقرباء المتوفى .

فيوسـع بذلك دائرة الانتفاع بها من جهة ، ويحول من جهة أخـرى دون تجمع ثروات كبيرة فى يد فئة محدودة من الملاك ، ويقرب طبقـات الناس بعضها من بعض .

فهو يورث الأبنـاء ، والبنات ، والآباء ، والامهـات ، والأجداد ، والجدات ، والأزواج ، والزوجات ، والاخوة ، والأخوات ، والأعمـام ، وأبناء الأعمام ، وأبناء الاخوة ، وأولاد الأبناء ، بل يورث ذوى الأرحـام أنفسهم فى بعض الاحوال .

فبفضـل هذا النظـام الحكيم ـ لا تلبث الثروة الكبيرة التى يتفق تجمعهـا فى يد بعض الناس أن تتوزع بعد بضعة أجيال على عدد كبير من الأنفس ، وتستحيل الى ملكيات صغيرة ، وهذه هى أمثل طريقة لتقليل

الفروق بين الطبقات ، وتحقيق التوازن الاقتصادى ، وعلاج ما عسى أن يطرأ على هذا التوازن من اضطراب(٢٨) .

ولحرص الاسلام على تحقيق هذه الأغراض ، حرم كل اجراء يؤدى الى الاخلال بقواعد الميراث ، وتوعد من يتعدى حدودها باشد العقاب فى الآخرة ، وفى هذا يقول الله تعالى بعد ان قرر هذه القواعد : « **تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين** »(٢٩) .

ومن أجل ذلك يرى فقهاء المسلمين : **انه لا تجوز الوصية لوارث** ، لما ينطوى عليه هذا الاجراء من تحايل على قواعد الميراث ، واعطاء بعض الورثة أكثر من نصيبه الشرعى ، وعملا بقوله عليه الصلاة والسلام بعد ان نزلت آيات المواريث « ان الله اعطى لكل ذى حق حقه فلا وصية لوارث »(٣٠) .

وحتى الذين يجيزون منهم هذه الوصية ، يقيدونها فى حدود الثلث من التركة .

وأما الوصية لغير القريب فجائزة باجماع الفقهاء ، تيسيرا لأعمال البر ، ولكن فى حدود ضيقة لا تكاد تتأثر بها قواعد الميراث ، وهى حدود الثلث من التركة(٣١) .

---

(٢٨) أنظر د. على عبد الواحد وافى : بحث « التكامل الاقتصادى فى الاسلام » ج ٣ ص ١٣٣ ، مقدم الى مجمع البحوث الاسلامية بالقاهرة - المؤتمر السادس - أصدره مجمع البحوث الاسلامية - محرم ١٣٩١ هـ / مارس ١٩٧١ م .

(٢٩) سورة النساء : الآيات ١٣ ، ١٤ .

(٣٠) سنن الترمذى : ج ٤ ص ٤٣٣ - باب « ما جاء لا وصية لوارث » .

(٣١) انظر د. على عبد الواحد وافى : بحث التكامل الاقتصادى فى الاسلام ص ١٣٤ .

أما اذا تجمعت الثروة فى حـالات نادرة فى يد شخص ليس لـه من يرثه ـ فان أمواله تئول الى الدولة للانفـاق منها على المحـرومين من غير ذوى القربى ، بل وفى كل الـحالات ينصح القرآن بتوزيع قدر من الميراث على المحرومين « واذا حضر القسمة اولوا القـربى واليتـامى والمسـاكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا »(٣٢) ٠

(هـ) المساواة مبدأ أصيل من مبادىء الاسلام :

لقد ذكرنا ان الاسلام هو دين المساواة الحقة بين اتباعه(٣٣) ومن ثم فليس فى الاسـلام « **مواطن من الدرجـة الأولى** ، **ومواطن من الدرجـة الثانية** » كما كان يحدث فى أوربا ـ حيث كان للأشراف مثلا محاكم خاصة بهم لكيلا يقفوا مع غيرهم امام القضاء العادى(٣٤) ٠

وكما كان يحدث فى الهنـد ـ حيث كانت طبقـة « شودر » تعيش لخدمة طبقة البراهمة ٠

● وليس فى الاسلام « **من تجرى فى عروقهم دماء الهية** » كما قيل عن الاكاسرة ، والبراهمة ٠٠٠ وانما كل المسلمين مـواسـية كاسـنان المشط يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ٠

● وليس فى الاسلام « **تشريعات لطبقـة دون أخـرى** » فالشريعـة المنزلة تحكم الجميع بلا محاباة لأحد ، ولا ظلم لأحد ، وقد حسم رسول الله ﷺ الأمر حسما قاطعا عندما قال فى غضب لأسامة بن زيد ، وقد أراد أن يتشفع لامرأة من بنى مخـزوم سرقت حتى لا تقطع يدها « أتشفع فى

---

(٣٢) سـورة النسـاء : آية ٨ ٠

(٣٣) أنظر ما كتبنا ه من قبل تحت عنوان « المجتمع الاسلامى مجتمع لا طبقى ص ١٨٤ ٠

(٣٤) د٠ حسين مؤنس : عالم الاسلام ص ١٩٤ ٠

حد من حدود الله ؟ » ثم قام فخطب وقال : « انما أهلك الذين من قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»(٣٥) .

● وليس فى الاسلام قداسات وهالات مفتعلة ، وليس فيه أنساب واحساب .

● وليس فيه صكوك غفران أو صكوك عبودية(٣٦) .

وانما يتساوى الكل أمام مالك الملك ، وخالق الأرض والسماوات ، لا يقرب انسان أو يبعده من ربه الا عمله الصالح وما قدمته يداه .

لكل هذا نقول أن المجتمع الاسلامى مجتمع لا طبقى ، وقد عاش الناس فيه متساوين من الناحية الاجتماعية ، لا يتميز ذو جاه أو ذو مال من ضعيف أو فقير من حيث القيمة الانسانية ، لقد عاش المسلمون جميعا فى المجتمع الاسلامى تظللهم روح التكافل، والاخاء، والتعاون، والتراحم، وهذا ما نود أن نلقى عليه الأضواء التالية .

* * *

---

(٣٥) سنن الترمذى : ج ٤ ص ٣٨ ـ باب « ما جاء فى كراهية أن يشفع فى الحدود » .

(٣٦) لا عبودية فى الاسلام الا لله ، وما يقال عن « نظام الرق » فاننا نقول ان الاسلام جاء والرق نظام قائم ، وكانت تفرضه ظروف لم يكن الاسلام يملك التخلص منها فى ذلك الحين ، ولكن الاسلام شرع أسلحته للقضاء عليه ، فأمر المسلمين بحسن معاملة الرقيق ، وفتح أمام الرقيق طريق الحرية بالعتق والمكاتبة ، وجعل العتق من الكفارات ... الخ .

دعوة الاسلام الى التكافل والتراحم

لقد جاء الاسلام ليقيم مجتمع التكافل والتراحم، والتعاون والترابط، والاخاء والمحبة ـ ومن ثم وضع الأسس التى تصونه من الأنانية الفردية ، فى المعاملة ، والسلوك ، ومن طغيان نوازع النفوس التى تدعو الى الشر ، وتوقد نار العداوة والبغضاء بين أفراده ، وتؤدى بهم الى الاعوجاج ، والفساد ، والفرقة ، والتنابذ ، والفشل(٣٧) ٠

وقد قال الله لرسوله « فاستقم كما امرت ومن تاب معك ولا تطغوا »(٣٨) وقال « فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا »(٣٩) وقال « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »(٤٠) ٠

اجل لقد وضع الاسلام الأسس التى تربط بين أفراد المجتمع ، وتحقق بينهم التكافل والتراحم ، وتجعلهم اخوة متناصرين ، بعضهم أولياء بعض ، تتلاقى كل قواهم فى المحافظة على مصالحهم الاجتماعية ، والشخصية ، ودفع الضرر عنهم ، والقيام بسد حاجاتهم ، ونيابة بعضهم عن بعض فى أداء معروف اذا ما دعت الحاجة اليها وتتطلبها مصالحهم(٤١) ٠

---

(٣٧) على الخفيف : بحث الفكر التشريعي واختلافه باختلاف الشرائع ، ج ٣ ص ٧٢ ـ مقدم الى المؤتمر السادس لمجمع البحوث الاسلامية بالقاهرة ـ أصدره مجمع البحوث الاسلامية ـ محرم ١٣٩١ هـ / مارس ١٩٧١ م ٠

(٣٨) سورة هود : آية ١١٢ ٠

(٣٩) سورة آل عمران : آية ١٠٣ ٠

(٤٠) سورة الأنفال : آية ٤٦ ٠

(٤١) على الخفيف : البحث السابق ص ٧٢ ٠

وفى ذلك يقول الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان »(٤٢) .

ويقول : « انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »(٤٣) .

ولقد صور رسول الله ﷺ - وحدة المجتمع الاسلامى ، ومناصرة افراده ، بعضهم بعضا ابلغ تصوير اذ يقول « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »(٤٤) .

● ولذلك حارب الاسلام الاثرة : التى لايعرف بها الانسان الا شخصه، وجاء الاسلام ليؤكد ان الحياة ليست للانسان وحده ، وأنها لا تصلح به وحده ، بل ان هناك أناسا مثله ، وان المجتمع الاسلامى هو مجتمع الأخوة الغامرة التى تمزج بين نفوس المسلمين فتجعلهم على قلب رجل واحد مصداقا لقول رسول الله ﷺ « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى »(٤٥) .

● من هنا كان على المسلم « أن يكون ايجابيا » يشارك الآخرين همومهم وآلامهم ، ويسعى جاهدا فى كشف الضوائق عنهم ، قال رسول الله ﷺ « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة »(٤٦) .

---

(٤٢) سورة المائدة : آية ٢ .
(٤٣) سورة الحجرات : آية ١٠ .
(٤٤) صحيح مسلم : ج ٤ ص ١٩٩٩ .
(٤٥) صحيح مسلم : ج ٤ ص ١٩٩٩ ، ٢٠٠٠ باب « تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم » .
(٤٦) صحيح مسلم : ج ٤ ص ١٩٩٦ - باب « تحريم الظلم ».

● وكل عمل يقوم به المسلم لعون أخيه المسلم ، فهو عبادة لا تقل عن اى عبادة اخرى من صلاة ، او صوم او غير ذلك ، بل ربما زادت اذا كانت فى غير فرض ، عن ابن عباس رضى الله عنه ، أنه كان معتكفا فى مسجد رسول الله ﷺ ، فأتاه رجل فسلم عليه ثم جلس، فقال له ابن عباس . يا فلان : أراك مكتئبا حزينا . قال : نعم يا ابن عم رسول الله ، لفلان على حق ولاء ، وحرمة صاحب هذا القبر ما اقدر عليه .

قال ابن عباس : افلا اكلمه فيك ؟ قال : ان احببت . قال : فانتعل ابن عباس ثم خرج من المسجد ، فقال له الرجل أنسيت ما كنت فيه ؟ قال : لا ، ولكنى سمعت صاحب هذا القبر ، والعهد به قريب ـ ودمعت عيناه ـ يقول : من مشى فى حاجة أخيه ، وبلغ فيها كان خيرا له من اعتكاف عشر سنين ، ومن اعتكف يوما ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق ابعد مما بين الخافقين » ـ رواه البيهقى .

وهكذا آثر ابن عباس أن يدع اعتكافه ، والاعتكاف عبادة محضة رفيعة الدرجات عند الله لانها استغراق فى الصلاة والصيام والذكر ، ثم هو فى مسجد رسول الله حيث يضاعف الاجر الف مرة فوق المساجد الاخرى ، ومع ذلك فان فقه ابن عباس فى الاسلام جعله يدع ذلك ليقدم خدمة الى مسلم يطلب العون ـ هكذا تعلم من رسول الله ﷺ(٤٧) .

● ان الاسلام أمر بالتراحم العام ، وجعله من دلائل الايمان الكامل، قال رسول لله ﷺ « لن تؤمنوا حتى ترحموا ، قالوا يا رسول الله كلنا

---

(٤٧) محمد الغزالى : خلق المسلم ص ١٨٥ ـ دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ـ ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م ـ الطبعة الثامنة .

رحيم ، قال : انه ليس برحمة احدكم صاحبه ولكنها رحمة العامة » ـ رواه الطـبرانى ٠

وقال ﷺ « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله »(٤٨) ٠

وعن ابى هـريرة سمعت أبا القـاسم ﷺ يقول « لا تنـزع الرحمـة الا من شقى »(٤٩) ٠

دعوة الاسـلام العـامة الى البذل والانفاق

ان تعاليم الاسلام لم تكف عن الحث عن كل ما من شانه ان يؤدى الى التكافل والتراحم ، والتعاون والترابط بين ابناء الأمة المسلمة ، ولمـا كان المـال من أهم الوسائل التى تحقق هذه الغاية ، فقد تتابعت دعوة الاسلام تدعو المسلمين الى البذل والانفاق ٠

والحق ان الاسلام دين يقوم على البذل والانفاق ، ويضيع على الشح والامساك ، ولذلك حبب الى بنيه أن تكون نفوسهم سخية ، وأكفهم ندية ، ووصاهم بالمسارعة الى دواعى الاحسـان ووجوه البر ، وأن يجعلوا تقديم الخير الى الناس شغلهم الدائم لا ينفكون عنه فى صباح أو مساء(٥٠) ٠

« الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خـوف عليهم ولا هم يحـزنون »(٥١) وقال تعالى : « يا أيهـا الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم من قبـل أن ياتى يوم لا بيع فيه ولا خـلة ولا شفاعة »(٥٢) ٠

---

(٤٨) سنن الترمذى : ج ٤ ص ٣٢٣ ـ باب « ما جاء فى رحمة المسلمين »
(٤٩) سنن الترمذى : ج ٤ ص ٣٢٣ ـ باب « ما جاء فى رحمة المسلمين »
(٥٠) محمد الغزالى : خلق المسلم ص ١٢٦ ٠
(٥١) سـورة البقـرة : آية ٢٧٤ ٠
(٥٢) سـورة البقـرة : آية ٢٥٤ ٠

لقد دعا الاسلام المسلم الى اعطاء الآخرين ما آتاه الله من فضله ، وأن يجعل فى ثروته متسعا يسعف به المنكوبين ويريح المتعبين ٠

قال رسول الله ﷺ « يا ابن آدم انك ان تبذل الفضل خير لك ، وان تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفاف ، وابدأ بمن تعول ، واليد العليا خير من اليد السفلى »(٥٣) ٠

ودعوة الاسلام الى الجود والانفاق مستفيضة مطردة ، وحربه على الكزازة والبخل موصولة متقدة وفى الحديث « السخى قريب من الله ، قريب من الجنة ، قريب من الناس ، بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الجنة ، بعيد دن الناس ، قريب من النار ، ولجاهل سخى احب الى الله تعالى من عابد بخيل »(٥٤) ٠

ان الانسان مجبول على حب المال والحرص على اقتنائه ، يضرب فى مناكب الأرض وللأثرة فى نفسه ايحاء شديد ، اكثر تفكيره فى نفسه واقله فى الآخرين ، لو أنه اوتى ما فى الأرض جميعا ، بل لو أنه امتلك خزائن الرحمة العليا ، لما طوعت له نفسه أن تنفق منها بسمة ، ولقامت له من طبيعته الضيقة علل شتى تضع فى يديه الأغلال « **قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربى اذا لأمسكتم خشية الانفاق وكان الانسان قتورا** »(٥٥) ٠

وقد عد الاسلام هذا الشعور من النزعات الخسيسة التى يجب أن تخاصم بعنف ، وأن تقاوم دسائسها بيقظة ونشاط ، وبين أن الفوز بخيرى الدنيا والآخرة لا يحرزه الا من نجح فى قمع دوافع البخل فى نفسه حتى ،

---

(٥٣) صحيح مسلم : ج ٢ ص ٧١٨ « باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأن اليد العليا هى المنفقة ، وأن السفلى هى الآخذة » ٠
(٥٤) سنن الترمذى : ج ٤ ص ٣٤٢ — باب « ما جاء فى السخاء » ٠
(٥٥) سورة الاسراء : آية ١٠٠ ٠

عودها الكرم والسخاء(٥٦) « فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا واطيعوا وانفقوا خيرا لانفسكم ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون »(٥٧) ٠

اما الذين يكدسون الاموال ويحبسونها عن المحتاجين ، أو يغرقون انفسهم فى الترف ويضنون على الآخرين ، فقد توعدهم الله تعالى فى قوله « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم »(٥٨) ويقول « وأصحاب الشمال ما اصحاب الشمال ٠ فى سموم وحميم ٠ وظل من يحموم ٠ لا بارد ولا كريم ٠ انهم كانوا قبل ذلك مترفين »(٥٩) ٠

● أن البذل الواسع عن اخلاص ورحمة يغسل الذنوب ويمسح الخطايا :

قال الله تعالى : « ان تبدو الصدقات فنعما هى وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير»(٦٠)

وقال : « ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم ٠ عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم»(٦١) وقال : «الشيطان يعدكم الفقر ويامركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم »(٦٢) ٠

وقال رسول الله ﷺ : « صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، وصدقة السر تطفيء غضب الرب، وصلة الرحم تزيد فى العمر» ـ رواه الطبرانى ٠

---

(٥٦) محمد الغزالى : خلق المسلم ص ١٣٠ ٠
(٥٧) سورة التغابن : آية ١٦ ٠
(٥٨) سورة التوبة : آية ٣٤ ٠
(٥٩) سورة الواقعة : الآيات ٤١ ـ ٤٥ ٠
(٦٠) سورة البقرة : آية ٢٧١ ٠
(٦١) سورة التغابن : الآيات ١٧ ، ١٨ ٠
(٦٢) سورة البقرة : آية ٢٦٨ ؛

وقال : « حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع » رواه أبو داود .

وفى الحديث أيضا : « ثلاثة أقسم عليهن .. ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها الا زاده الله بها عزا ، ولا فتح عبد باب مسألة الا فتح الله عليه باب فقر » ـ رواه ابن ماجه .

● ان كل ما يتعلق البشر به من حطام الدنيا ـ سوف يدعونه لوارث السموات والأرض ، وسينقلبون الى ربهم عراة ، لا مال ولا جاه كما خلقوا أول مرة ، وسيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ، فلا غرو اذا نقم الملأ الأعلى على من ينسى هذه الحقائق ، وينطلق فى ربوع الأرض لا هم له الا جمع ما يضره ، ونسيان ما يفيده ، قال الرسول ﷺ « ما من يوم يصبح العباد فيه الا ملكان ينزلان فيقول احدهما : اللهم اعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم اعط ممسكا تلفا »(٦٣) .

● وقد أوجب الاسلام فى حالات الشدة والضرورة ، ان يعود القادر على المحتاج بما يسد حاجته فقد روى أبو سعيد الخدرى حال البنى فى سفر وشدة فقال : كنا فى سفر فقال النبى ﷺ « من كان معه فضل ظهر (أى مطية) فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له »(٦٤) .

قال : فذكر من أصناف المال ما ذكر ، حتى رأينا انه لا حق لأحد منا فى فضل .

---

(٦٣) صحيح مسلم : ج ٢ ص ٧٠٠ ـ باب « فى المنفق والممسك » .
(٦٤) صحيح مسلم : ج ٣ ص ١٣٥٤ ـ باب « استحباب المواساة بفضول المال » .

وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ان الأشعريين اذا ارملوا فى الغزو ، او قل طعام عيالهم بالمدينة ، جمعوا ما كان عندهم فىثوب واحد ثم اقتسموه فى اناء واحد بالسوية فهم منى وانا منهم»(٦٥)

وقد ذهب جماعة من الفقهاء ـ على راسهم الامام ابن حزم ـ الى مسئولية البلد الذى يموت أحد افراده جوعا ، فيدفع أهل البلد « الدية » متضامنين الى أسرته ، كانهم شركاء فى موته(٦٦) ، وفى هذا يقول عليه الصلاة والسلام « ايما أهل عرصة امسوا وفيهم جائع فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله » ٠

● واجبات وحقوق :

ان الروابط التى يقيمها الاسلام بين المسلمين تشعر كل فرد فى المجتمع بان عليه واجبات يؤديها للمجتمع لقاء ما له من حقوق قبله ، يتوقف وفاؤه بها على القيام بهذه الواجبات ، واذا قصر فى أدائها ادى ذلك الى انهيار البناء ، وتفكك روابطه ، وذهاب ريحه ٠

كما أن من نتائجها : مسئولية كل فرد فيه فى جلب الخير ، والقصد اليه فى أعماله التى ياتيها ، ودفع الشر عند نزوله بما يستطيع من قوة ، وبما يملكه من معونة ، ولذا يقول الله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »(٦٧) ٠

---

(٦٥) صحيح مسلم : ج ٤ ص ١٩٤٥ ـ باب « من فضائل الأشعريين رضى الله عنهم » ٠
(٦٦) أنظر د٠ على عبد الواحد وافى : التكامل الاقتصادى فى الاسلام ، ص ١٤٧ ٠
(٦٧) سورة آل عمران : آية ١٠٤ ٠

ويقول ﷺ : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان »(٦٨) ٠

وعلى هذا الاساس أوجبت الشريعة على القوى اعانة الضعيف ، وعلى الموسر اطعام الجائع ، وعلى القادر اعطاء الفقير ، والمسكين ٠

كما أوجبت الدفاع عن الضعفاء ، ودفع الأذى والهلاك عن كل من تعرض له ، على كل قادر عليه ، والحفاظ على اموال القاصرين ، وعديمى الأهلية ، والغائبين ، واعانة الغارمين ، وانقاذ الأموال عند تعرضها للتلف ، والأخذ على أيدى المفسدين، ونيابة بعض المؤمنين عن بعض ، ومناصرة بعضهم بعضا(٦٩) فيقول الله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم »(٧٠) ٠

ولم يقف امر الاسلام عند حد حث المسلمين الى الانفاق والبذل واعطاء الفقراء والمحتاجين ، وعدم حبس المال فى أيد قليلة ، وانما فرض الاسلام الزكاة ، وجعلها الله ركنا من أركان الاسلام ، ولذلك نتحدث الآن عن الزكاة وأثرها فى التكافل والتراحم بين المسلمين ٠٠

---

(٦٨) صحيح مسلم : ج ١ ص ٦٩ « باب بيان كون النهى عن المنكر من الايمان ٠٠٠ » ٠
(٦٩) على الخفيف : الفكر التشريعى واختلافه باختلاف الشرائع ص ٧٣٠
(٧٠) سورة التوبة : آية ٧١ ٠

الزكاة واثرها فى تحقيق التكافل والتراحم
بين ابناء المجتمع الاسلامى

لقد فرض الاسلام على مختلف فروع الثروة ، وشتى مظاهر النشاط الاقتصادى ، من أنواع الزكاة ما يؤدى الى تحقيق التكافل الاجتماعى ، والاسهام فى سد حاجات المعوزين، ويحول دون تضخم الثروات، وتجمعها فى ايد قليلة ، ويؤدى الى تقليل الفروق بين الطبقات وتقريبها بعضها من بعض .

ففرض الاسلام الزكاة فيما تنتجه الارض ، وفيما يملكه الفرد من الذهب والفضة ، والانعام ، وعروض التجارة .. بالشروط والمقادير المبينة فى كتب الفقه الاسلامى(٧١) .

والأصل فى الزكاة بجميع انواعها ، أن تدفع الى بيت المال ، وبيت المال يقوم بصرفها فى مصارفها التى حددتها الشريعة الاسلامية ، قال تعالى : « **انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم** »(٧٢) .

وقد جعل الاسلام الزكاة من أهم اركانه ، وقرنها دائما بالايمان بالله وبالصلاة لما لها من وظيفة هامة فى حفظ التوازن الاقتصادى ، وتقليل الفروق بين الطبقات ، واشاعة روح التكافل .

---

(٧١) عن الزكاة بتوسع : أنظر د. يوسف القرضاوى فى كتابه « فقه الزكاة » ، السيد سابق فى كتابه « فقه السنة » المجلد الأول - باب الزكاة .

(٧٢) سورة التسوية : آية ٦٠ .

كما قرن القرآن عدم أدائها بانكار اليوم الآخر ، كأمارة على الشرك والوثنية المادية قال تعالى : « قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين • الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرون هم كافرون »(٧٣) •

ولأن أداء الزكاة من الفروق الجوهرية بين مجتمع المؤمنين ، ومجتمعات من عداهم من أهل الكتاب ، أو من أصحاب الالحاد والوثنية المادية فقد جعل الاسلام للدولة الحق فى الحمل على أدائها ، وتقاضيها ممن تجب عليهم ، ضمانا لتغطية التكافل والرعاية الاجتماعية فى الأمة ، وضمانا كذلك للمحافظة على المجتمع من اعدائه ، ان هم اعتدوا عليه اعتداء ماديا ، أو نفسيا ودعائيا ، وفى « سبيل الله » كأحد مصارف الزكاة حدد لمواجهة هذا الهدف الأخير (٧٤) •

وقد اعتبر المسلمون السابقون « سبيل الله » ـ كما اعتبره القرآن ـ مصرفا كذلك للانفاق الخير وراء الزكاة على نحو ما جاء فى قول الله تعالى « الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا منا ولا أذى لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »(٧٥) •

وان من اروع نظرات الاسلام للمال ، انه يراه ملكا لله ، وان الأغنياء انما هم حراس عليه ، وان الله قد استخلفهم فيه ، وأن للفقير فى هذا

---

(٧٣) سورة فصلت : الآيات ٦ ، ٧ •

(٧٤) د• محمد البهى : بحث حقوق الانسان فى القرآن فى صلة الفرد بالجماعة ج ٢ ص ٩٤ ـ مقدم الى المؤتمر السادس لمجمع البحوث الاسلامية بالقاهرة ـ أصدره مجمع البحوث الاسلامية محرم ١٣٩١ هـ / مارس ١٩٧١ م •

(٧٥) سورة البقرة : آية ٢٦٢ •

المـال حقا معلوما على الغنى يقول سبحانه وتعالى : « آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيـه فالذين آمنوا منـكم وانفقوا لهم أجـر كبير »(٧٦) ويقول جل شانه « والذين فى أموالهم حق معلوم • للسائل والمحـروم »(٧٧) •

ولهذا حارب أبو بكر الصديق رضى الله عنه القبـائل التى امتنعت ـ بعد وفاة الرسول ﷺ ـ عن آداء الـزكاة ، حتى ما ظـل منها باقيـا على اسلامه ، واعتبر هؤلاء فى حكم المرتدين عن الاسلام(٧٨) •

مما تقدم يتبين لنا أن الاسلام قد وصل فى مبلغ حرصه على تحقيق التكافل الاقتصادى ، والعدالة الاجتماعية فى أمثل صورهما الى شاو رفيع لم تصل الى مثله ولا الى ما يقرب منه أية شريعة أخرى من شرائع العـالم قديمة وحديثة •

وان النظم التى وضعها الاسلام لتحقيق هذه الغاية ، نظم حكيمة :

تقر الملكية الفردية ، وتحيطها بسـياج من الحمـاية ، وتذلل أمـام الفرد سبل التملك والحصول على المـال •

وتشجع على العمـل وتعطى كل مجتهد جزاء اجتهاده من ثمـرات الحياة الدنيا •

وتفسح المجـال أمام المنافسـة والعمـل على التفوق ، وبذلك تحقق تكافؤ الفرص بين الناس فى هذه الميادين •

---

(٧٦) سـورة الحـديد : آية ٧ •
(٧٧) سـورة المعـارج : الآيات ٢٤ ، ٢٥ •
(٧٨) انظر الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٤١ وما بعدها ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٢ م ، ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٢٣٢ وما بعـدها •

ولكنها من جهة اخرى تقلم اظفار راس المـال ، وتجرده من وسائل السيطرة والنفوذ ، بدون أن تشـل حركته ، وتعـوقه عن القيـام بوظيفته بوصفه عاملا هاما من عوامل الانتاج ٠

وتعمل على استقرارالتوازن الاقتصادى، واذابة الفروق بين الطبقات، وتقريبها بعضها مع بعض ، وتحول دون تضخم الثروات ، ودون تجمعها فى ايـد قليـلة ٠

وهى تعمل من جهـة ثالثة على ان تقوم العـلاقات الاقتصـادية بين الناس على دعائم متينـة من التـكافل والتعـاون والتواصى بالبر والعـدل والاحسان ، وتضع امثل نظام للضمان الاجتماعى ، وتكفل لكل فرد حياة انسانية كريمة(٧٩) ٠

التكافل فى الاسلام عام وشامل :

والتكافل فى الاسلام لا يقف عند حدود الأمور المـادية ، أو وسـائل المعيشة فحسب ، بل يتعداها الى المعـرفة باسبابها المختلفة والبر بمعنـاه الواســع العميق ٠

فهو يطلب التكافل لصيانة الحق ، ورعاية الفضيلة ، يطلبه محققـا لأسباب العلم والمعرفة ، كما ينشده لاشاعة الأمن وتوفير الطمانينة ، يطلبه بارا بدنيا الناس صفيا بآخرتهم ٠

وهو لهذا يقوم على دعائم ثابتة ، واسس مكينـة من التقدير لمعنى الانســانية ، ورعاية الانســان من كل جـوانبه ، يستمد زخـره من معـين لا ينضب ، ويأخذ طابعه من طبيعة الايمان بالله والثقة فيه ٠

---

(٧٩) د٠ على وافى : التكافل الاقتصادى ص ١٦٢ ٠

ألست تسمع من فم الرسول الكريم ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »(٨٠) .

وهل حب الانسان لنفسه يخص جانبا من أمور الحياة دون جانب . أم أنه يحب لها كل ما يوفر أسباب الرفعة والتكريم من أمورمادية ومعنوية؟

كما تسمع قوله : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى »(٨١) .

قد يشتكى الانسان من جور يصيبه ، فمن واجب التكافل أن يرفع الظلم ويحقق العدل .

وقد يشتكى من هم يلم به . فمن واجب الصحب أن يخففوا ألمه وأن يفرجوا غمه .

قد يشتكى من جوع ومسغبة ، فمن واجب التكافل الا يترك مكانا للجوع أو موضعا للمسغبة .

قد يشتكى من حائل بينه وبين أسباب العلمو المعرفة ، فمن واجب التكافل أن يهيء أسباب العلم وأن يؤمن طريق المعرفة(٨٢) .

وهكذا نرى التكافل يأخذ بجوانب النفس الانسانية كلها ، ويحيط بشئون الانسان احاطة شاملة ولا يخص الجانب المادى وحده .

---

(٨٠) صحيح مسلم : ج ١ ص ٦٧ ـ باب « الدليل على أن من خصال الايمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير » .

(٨١) صحيح مسلم : ج ٤ ص ١٩٩٩ ، ٢٠٠٠ ـ باب « تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم » .

(٨٢) محمد الراوى : الدعوة الاسلامية دعوة عالمية ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ م .

ألست ترى أن شكوى الفكر من الاجهاد يعود على الجسد كله ألما وتعبا ، كما أن خلو المعدة من الطعام تؤثر فى الانسان كله من بنيان جسده الى وثبات فكره واعتدال نفسه .

واذا كان الانسان يتأثر لأى شىء يصيبه ، سواء فى أسباب معيشته ، أو فى مجال انسانيته ، فان التكافل الذى ينشده الاسلام لبنى الانسان لا يخص جانبا من الحياة دون جانب ، بل يعم جميع النشاط البشرى فى مجالاته المختلفة ، وضروراته المتنوعة ، فيجعل من الجنس البشرى وحدة متشابكة مؤتلفة كطبيعة الجسد الواحد الذى يتأثر بماديات الحياة ومعنوياتها ، وتقوم فيه دورة دموية واحدة ، وتمسكه شبكة اعصاب متماسكة .

فى المجتمع الاسلامى نرى الكل يجمعه روح التكافل والتراحم ، وتربطه رو حالاخاء والمحبة ، وعلى قدر ما يعطى الله الانسان المسلم من نعم وخير ، بقدر ما يكون عطاؤه وخيره ونفعه ، ومن ثم فلا مجال لحقد أو حسد ، ولا مجال لضغائن وثورات .

ان التكافل الذى اقامه الاسلام على أساس المعرفة لله والتقرب اليه ، لا يمكن أن تقوم معه فى المجتمع الانسانى فئة ظالمة ، واخرى مظلومة ، فئة مستغلة ، واخرى مستغلة .

كما لا يمكن أن يقع التنابذ بين ابناء المجتمع ، فيتمنى كل فريق زوال الآخر ، بل تربط الجميع آصرة الحب الآمن ، والآلفة المؤمنة ، يقول الرسول ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »(٨٣) .

---

(٨٣) صحيح مسلم : ج ١ ص ٦٧ .

فكيف يتمنى زواله او يقبل استغلاله ، وهو يعلم أن ايمانه فى حبه وبره لأخيه ؟ فمرتبة الايمان تأبى عليه الا ان يكون تقديره لأمر غيره كتقديره لنفسه ، وحبه لسعادة أخيه كحبه لسعادته ، وينتفى الايمان أن تسلطت الأنانية وانطلقت الاثرة .

والأنانية فى حقيقتها اهلاك للنفس فى صورة عدم الاهتمام بمصلحة الغير أو استغلاله لحاجته .

وضرورة الانسان الى الغير كضرورة الغير اليه ، فما يقدمه من خير مردود عليه وما اجمل وأكمل وأصدق تعبير القرآن وهو يقول : **«وما تنفقوا من خير فلأنفسكم »**(٨٤) **« من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها »**(٨٥) .

وهنا تظهر المسئولية الفردية متسقة مع المسئولية الجماعية(٨٦) .

ان كل فرد فى الاسلام يشعر انه مسئول عن راحة الجماعة وسعادتها ، مسئول عن حمل امانة الله الغالية ، وهذا قول الرسول الكريم ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته والولد راع فى مال ابيه ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته »(٨٧) .

---

(٨٤) سورة البقرة : آية ٢٧٣ .
(٨٥) سورة فصلت : آية ٤٦ .
(٨٦) أنظر محمد الراوى : الدعوة الاسلامية ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

هذه المسئولية ليست أمام الجماعة فحسب ، أو امام القانون وكفى ، بل هى مسئولية تمتد فتحيط بالانسان فى ظاهره وباطنه فى سره وعلنه ، لأنها امام الله الذى لا تخفى عليه خافية :

« ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا ادنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شىء عليم »(٨٨) ٠

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون »(٨٩) ٠

* * *

(٨٨) سورة المجادلة : آية ٧ ٠
(٨٩) سورة التوبة : آية ١٠٥ ٠

أثر توجيهات الاسلام فى تحقيق التكافل والتراحم فى المجتمع الاسلامى

لقد تسابق افراد المجتمع الاسلامى فى عمل الخير ، والعناية بالضعفاء والمحتاجين ، وتقديم الاف الصور والنماذج فى التكافل ، والتراحم ، والتعاون ، والتعاطف ، والاخاء ، والتعاضد ـ عبر مسيرة التاريخ الاسلامى .

ولقد ظهرت ثمار ذلك فى واقع الحياة امنا ، وبرا ، ورخاء ، وعدلا ، وظفرت ديار الاسلام بهذه النتائج الخيرة ، والثمار الطيبة حتى لنقرأ مايقوله احد العمال فى عهد الخليفة الراشد عمربن عبد العزيز (٩٩ـ١٠١هـ /٧١٧ ـ ٧٢٠ م) « كنا نطوف بالزكاة على الناس لعلنا نجد من يقبلها »

اجل فى عصور ازدهار الحضارة الاسلامية كانت الصور المشرقة ، والنماذج المتألقة من التكافل ، والتراحم ، والتعاون ، والتعاطف . . . تمثل واقعا حيا يعيشه المسلمون كل يوم ، ويلمسونه فى شتى الأعمال التى تملأ جوانب المجتمع ، وتشيع فى كل ناحية من نواحى الحياة .

هذه الأعمال التى قام بها القادرون ـ لغير القادرين ـ تكافلا وتعاطفا معهم ، مما يرسم صورة جميلة وضيئة ، واضحة المعالم والقسمات لهذه الحضارة الاسلامية العظيمة ـ التى أقامها المسلمون ، مستلهمين روح دينهم فى الحث على التكافل ، والتراحم ، والتعاون ، والاخاء ، متوخين طاعة ربهم ، طالبين رضاه ورضوانه .

لقد وصلت الامة الاسلامية الى مستوى من التكافل والتراحم ، جعل افرادها يتسابقون على تحقيق الخير فى شتى الميادين ، لأن مبعثه فى الجو الاسلامى الصحيح ـ اصبح شعور المسلم بأنه يحرز خيرا لنفسه

بما يقـدم لغيـره من معونة او عمـل طيب عمـلا بقـول الرسـول ﷺ : « لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه »(٩٠) .

وتلك طبيعة الاسلام التى بها قام مجتمع مثالى يهش لعمل الخير ، ويتسابق عليه .

مجتمع كان فيه الغنى والفقير ، ولكنه لم يكن فيه المهانة والاستغلال.

وكان فيه الحاكم والمحكوم ، ولكنه لم يكن فيه الظالم ولا المظلوم .

وصفه الله تعالى بقوله « محمد رسول الله والذين معـه اشـداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا »(٩١)

ان التكافل والتراحم فى المجتمع الاسلامى ـ أمسى حقيقة واقعـة ، وفطرة حية ، وسلوكا يوميا ، لانه يتصـل بالايمان بالله ، والثقـة فيـه ، والتقرب اليه ، والعمل على مرضاته ، وما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انقطع وانفصل .

لذا لا نعجب أن نرى من آثار هذا الدين ـ أبا بكـر وعمـر رضى الله عنهما يتسـابقان على دار امـرأة عمياء ليس لهـا من يعولها ، أو يقضى حوائجها ، يتسابقان فى تقديم الطعام والشراب واصلاح الدار .

وقد عجب عمر رضى الله عنه وهو يذهب اليها فى ظلام الليل ، بعيدا عن أعين الخلق ، فيجد من سبقه للقيام بنفس العمل ، فرصد عمر رضى الله عنه الدار مختفيا ليرى من يسبقه الى البر وعمل الخير ، فما راعه الا أن

---

(٩٠) صحيح مسلم : ج ١ ص ٦٧ « باب الدليل على أن من خصال الايمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير » .

(٩١) سـورة الفتح : آية ٢٩ .

يرى الصديق رضى الله عنه ياتيها ، ويقضى اشغالها سرا وهو خليفة ، فقال له : انت هو لعمرى(٩٢) .

ولا نعجب ان نرى ابا بكر رضى الله عنه ينفق ماله كله في سبيل الله . ويساله رسول الله ﷺ : ما ابقيت لاهلك ؟

فيقـول فى لهجـة الواثق بربه المطمـئن لعطـائه : ابقيت لهم الله ورسوله(٩٣) .

وهذا عثمان بن عفان رضى الله عنه اشترى بئر رومة ، وكانت ملـكا ليهـودى يبيع للمسلمين ماءها ، فقال رسول الله ﷺ : « من يشترى بئر رومـة فيجعلهـا للمسلمين ، يضرب بدلوه فى دلائهم ، وله بها مشرب فى الجنة ؟ فاتى عثمان اليهودى فساومه بها ، فابى أن يبيعها كلها ، فاشترى منه نصفها باثنى عشر الف درهم فجعـله للمسلمين ، فقال له عثمان : ان شئت جعلت على نصيبى يومين ، وان شئت على يوم ولك يوم ، قـال : لا بل لك يوم ولى يوم .

فكان اذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين ، فلمـا رأى اليهودى ذلك ، قال افسـدت على ركيتى ، فاشتر النصف الآخـر ، فاشتراه بثمانية آلاف(٩٤) .

وقال رسول الله ﷺ : « من يزيد فى مسجدنا ؟ فاشترى عثمان رضى الله عنه موضع خمس سوار ، فزاده فى المسجد(٩٥) .

---

(٩٢) أنظر ابن الاثير : الكامل ج ٢ ص ٢٩٠ .
(٩٣) سنن أبى داود : ج ٢ ص ١٢٩ ـ كتاب الزكاة .
(٩٤) النويرى : نهاية الأرب : ج ١٩ ص ٤٠٣ ـ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٧٥ م .
(٩٥) النويرى : المصدر السابق ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

وجهز رضى الله عنه جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيرا ، وأتم الألف بخمسين فرسا ، وعن قتادة رضى الله عنه قال : حمل عثمان ما فى جيش العسرة على ألف بعير ، وسبعين فرسا(٩٦) .

لقد أمسى تيار الخير فى الأمة الإسلامية قويا متدفقا ، يصب خيره فى كل مكان وفى كل اتجاه ، يتحدث أبو الحسن محمد بن يوسف العامرى المتوفى سنة ٣٨١ هـ فى كتابه « الاعلام بمناقب الاسلام » عما أمر به الاسلام من التراحم والتكافل ، والعناية بالضعفاء وغير القادرين فيقول : « وأما الضعيف فان لحقه الضعف من جهة التركيب ـ أعنى النساء ـ فليس دين من الأديان ازجر عن الاعتداء عليهن الى الرفق بهن من هذا الدين ، وذلك ظاهر من آى القرآن وفى اخبار الرسول عليه الصلاة والسلام .

وان لحقه الضعف من جهة السن ـ اعنى اليتامى ـ فقد بالغ هذا الدين فى الأمر بحفظهم وحماية املاكهم ، وذلك أيضا فيما تضمنه القرآن .

وان لحقه الضعف فى معاشه ـ أعنى الفقراء ـ فقد امر هذا الدين بمواساتهم .

وان لحقه من رقبته ـ اعنى الأسراء ـ فقد حث القرآن على فك رقابهم .

وان لحقه الضعف فى وطنه ـ أعنى الغرباء ـ فقد وجدت الوصية لأبناء السبيل فى القرآن مكررة »(٩٧) .

---

(٩٦) النويرى : نفس المصدر ص ٤٠٤ .
(٩٧) أبو الحسن محمد بن يوسف العامرى : الاعلام بمناقب الاسلام ص ١٦٤ ـ تحقيق أحمد عبد الحميد غراب ـ القاهرة ـ ١٣٨٧ هـ .

نعم لقد اهتم الاسلام بكل هذه الطوائف ، وتوالت آيات القـرآن ، وأحاديث الرسول ﷺ ترشد المسلمين الى الاهتمام بهذه الطوائف ، والعناية بأمرهم ، وتقديم كل ألوان العون والمساعدة لهم .

وقد استجاب المسلمون دائما لهذه التوجيهات ، وفي كل زمان ومكان من أرض الاسلام كنا نجد من ابناء المسلمين من يقدم هذه العناية والرعاية، حتى اصبح هذا التـكافل والتراحم بحمـد الله سـمة واضـحة من سـمات حضارتنا الاسلامية .

وهذه بعض الصور من تاريخ حضارتنا الاسلامية التي تؤكد لنا هـذه الحقيقة المتـالقة .

● عناية المجتمع الاسلامى بالضعفاء والمحتاجين :

لقد ضرب المجتمع الاسلامى أروع الصور الانسانية فى عنايته بأمـر الضعفاء والمحتاجين ، وتقديم شتى صور التكافل والتراحم ، وليس هناك ابلغ فى التعبير عن ذلك مما كتبه الرحالة الكبير ابن بطوطة ، فلنستمع اليه وهو يحدثنا عن بعض صنوف الأوقاف التى عرفها المسلمون لنعـرف الى أى مدى بلغت حساسية المجتمع الاسلامى فى عنايته بأهل الحـاجة يقول ابن بطوطة عن هذه الأوقاف :

« فمنها أوقاف على العـاجزين عن الحـج ـ يعطى لمن يحـج عن الرجل منهم كفايته .

● ومنها أوقاف على تجهيز البنات الى أزواجهن ـ وهن اللواتى لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن .

● ومنها أوقـاف لفـكاك الأسـارى .

● ومنها أوقاف لأبنـاء السبيل ـ يعطون منهـا ما يأكـلون ويلبسـون ويتزودون لبلادهم .

- ومنها اوقاف على تعديل الطريق ورصفها ... .
- ومنها اوقاف لسوى ذلك فى أفعال الخير ... »(٩٨) .

ويعبر ابن بطوطة عن دهشته مما رآه فى دمشق عندما زارها سنة ٧٢٦ هـ /١٣٢٦ م من وجود وقف خاص بالأوانى فها هو يقول بالنص :

« مررت يوما ببعض أزقة دمشق ، فرأيت به مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صفحة من الفخار الصينى ، وهم يسمونها الصحن ، فتكسرت ، واجتمع عليه الناس ، فقال له بعضهم : (اجمع شققها واحملها معك لصاحب اوقاف الأوانى) فجمعها ، وذهب الرجل معه اليه ، فاراه اياها ، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن » .

ثم يعقب ابن بطوطة عما حدث فيقول : « وهذا من أحسن الأعمال فان سيد الغلام لابد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره، وهو أيضا ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك . فكان هذا الوقف جبرا للقلوب ، جزى الله خيرا من تسامت همته فى الخير الى مثل هذا »(٩٩) .

ونحن نقول ذلك مع ابن بطوطة ، ويقول أيضا جزى الله الاسلام خيرا ، فهو الذى عمر القلوب بكل معانى الخير والرحمة ، وأرشد الى هذا التراحم والتعاطف ، فكانت الحضارة الاسلامية التى قامت على توجيهاته وارشاداته انعكاسا صادقا لما فى هذا الدين من خير ونفع ، وتراحم وتكافل ، وتعاطف وتعاون .

ولنصغ السمع ، ولندقق النظر مرة أخرى ، لصورة من صور التراحم والتكافل ، والعناية بالضعفاء . والمحتاجين ينقلها لنا ابن بطوطة من موقع آخر من أرض الاسلام ، منمكة المكرمة فكتب يقول بالحرف الواحد :

---

(٩٨) انظر رحلة ابن بطوطة ص ١٢٢ .
(٩٩) المصدر السابق ص ١٢٢ ؛

« ولأهل مكة الأفعال الجميلة ، والمكارم التامة ، والأخلاق الحسنة ، والايثار الى الضعفاء والمنقطعين ، وحسن الجوار للغرباء ، ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة ، يبدأ فيها بالطعام للفقراء المنقطعين المجاورين ، ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق ، ثم يطعمهم .

وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران حيث يطبخ الناس أخبازهم ، فاذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله الى منزله فيتبعه المساكين ، فيعطى لكل واحد منهم ما قسم له ، ولا يردهم خائبين . ولو كانت له خبزة واحدة فانه يعطى ثلثها أو نصفها طيب النفس بذلك من غير ضجر »(١٠٠) .

* ومن صور العناية بالضعفاء والمحتاجين ما قام به السلطان الظاهر بيبرس سلطان مصر (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) عندما أوقف وقفا لشراء الخبز وتوزيعه على المعدمين .

كما اعتاد أن يتصدق كل سنة بعشرة آلاف اردب من القمح على المساكين(١٠١) .

* وفى أثناء المجاعات - اعتاد أهل الحكم وأهل اليسار أن يكثروا من توزيع الأموال والطعام فى سخاء على المساكين والمعدمين .

ففى أثناء الشدة التى وقعت فى مصر خلال عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ / ١٠٣٦ - ١٠٩٤ م) « كانت الشريفة بنت صاحب السبيل تبعث اليه (الى الخليفة) فى كل يوم بقعب من فتيت ،

---

(١٠٠) انظر : تحفة النظار فى غرائب الأمصار ص ١٦٨ .
(١٠١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٠٨ .

من جملة ما كان لها من البر والصدقات فى تلك الغلوة ، حتى أنفقت مالها كله ، وكان يجل عن الاحصاء فى سبيل البر »(١٠٢) .

وعندما وقع غلاء فى مصر أيام الخليفة الفاطمى الفائز (٥٤٩ ـ ٥٥٥ هـ / ١١٥٤ ـ ١١٦٠ م) قام الوزير باخراج « جملة كثيرة من الغلال وفرقها على الطحانين ، وارخص سعرها ، ومنع من احتكارها ، وامر الناس ببيع الموجود منها ، وتصدق على جماعة من المتجملين(١٠٣) والفقراء بجملة كثيرة »(١٠٤) .

كما « تصدق سيف الدين حسين ، وغيره من الامراء وارباب الجهات بالقصر ما نفس عن الناس »(١٠٥) .

* كما اعتاد اهل الحكم ايضا اثناء المجاعات ان يوزعوا الفقراء والمحتاجين على الأمراء والأغنياء ليقوموا بمئونتهم واطعامهم .

فعندما وقع الغلاء فى مصر خلال سلطنة العادل ابى بكر بن ايوب سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م واستمر انخفاض النيل ثلاث سنين متوالية « اطلق العادل للفقراء شيئا من الغلال ، وقسم الفقراء على ارباب الأموال ، واخذ منهم اثنى عشر الف نفس .. وافاض عليهم القوت ، وكذلك فعل جميع الأمراء وارباب السعة والثراء »(١٠٦) .

---

(١٠٢) المقريزى : اغاثة الامة بكشف الغمة ص ٥٦ تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ـ دار الهلال ـ القاهرة ـ ١٩٩٠ م .
(١٠٣) المقصود بلفظ المتجملين هنا : الفقراء الذين لا يظهرون المسكنة والذل على أنفسهم .
(١٠٤) المقريزى : اغاثة الأمة ص ٦١ .
(١٠٥) المقريزى : المصدر السابق ص ٦١ .
(١٠٦) المقريزى : اغاثة الأمة ص ٦٤ .

ولما وقع الغلاء فى عهد السلطان كتبغا سلطان مصر سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م « أمر السلطان بجمع الفقراء وذوى الحاجات ، وفرقهم على الأمراء ، فأرسل الى أمير المائة - مائة فقير - والى أمير الخمسين - خمسين - حتى كان لأمير العشرة - عشرة »(١٠٧) .

واشتدت الازمة فى مصر أيضا سنة ٧٧٦ هـ خلال عهد السلطان الأشرف شعبان « فامر السلطان بجمع الفقراء وفرقهم على الأمراء ومياسير التجار »(١٠٨) .

* على أن الأمرلم يقتصرعلى رعاية هؤلاء الفقراء والمعدمين فى حياتهم، بل أيضا عند وفاتهم :

فقد اهتم الخيرون من أبناء الاسلام بانشاء مؤسسات تنهض بتغسيل الأموات من الفقراء ، وتكفينهم ثم دفنهم بعد الصلاة عليهم ، ووقفوا على ذلك الأوقاف الكافية(١٠٩) .

ومن أشهر هذه الأوقاف فى مصر (وقف الطرحاء) الذى جعله السلطان الظاهر بيبرس برسم تغسيل فقراء موتى المسلمين وتكفينهم ودفنهم(١١٠) .

---

(١٠٧) المقريزى : اغاثة الأمة ص ٦٩ ، ٧٠ .
(١٠٨) المقريزى : المصدر السابق ص ٧٧ .
(١٠٩) د. سعيد عاشور : الحياة الاجتماعية فى المدينة الاسلامية ص ١١١ ، ١١٢ .
(١١٠) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٣٨ - تحقيق د. محمد مصطفى زيادة - لجنة التأليف والترجمة - القاهرة ١٩٤١ م .

● **عناية المجتمع الاسلامى باليتيم :**

واهتم المجتمع الاسلامى أيضا باليتيم -

واليتيم من الناس : من فقد اباه قبل البلوغ ، فاذا بلغ الصبى زالت عنه صفة اليتم .

وقد عنى الدين الاسلامى عناية خاصة بامر اليتيم ، وأمر الأوصياء وكل من له صلة قـرابة باليتيم ، أن يحسنوا معاملتـه ، وأن يقوموا على امره وكفالته ، وأن يشرفوا على تاديبه وتوجيهه ، حتى يجد فى ظل من يرعونه العطف الحنان ، وهذه بعض آيات القرآن الكريم التى تامر برعاية اليتيم ، والاهتمام بشانه والمحافظة على حقوقه .

قال تعالى : « **فاما اليتيم فلا تقهر** »(١١١) وقال : « **ارايت الذى يكذب بالدين . فذلك الذى يدع اليتيم** »(١١٢) وقال سبحانه : «**ويسالونك عن اليتـامى قـل اصـلاح لهم خـير وان تخالطوهم فاخـوانكم** »(١١٣) وقال جل شانه : « **ان الذين ياكلون اموال اليتامى ظلما انما ياكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا** »(١١٤) .

وقال ﷺ « من قبض يتيما بين المسلمين الى طعامه وشرابه أدخـله الله الجنة البتة ، الا أن يعمل ذنبا لا يغفر له »(١١٥) .

---

(١١١) سـورة الضحى : آية ٩ .
(١١٢) سـورة المـاعون : الآيات ١ ، ٢ .
(١١٣) سـورة البقـرة : آية ٢٢٠)
(١١٤) سـورة النسـاء : آية ٩ .
(١١٥) سنن الترمذى : ج ٤ ص ٣٢٠ - باب « ما جاء فى رحمة اليتيم وكفـالته » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « انا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين ، واشار باصبعيه السبابة والوسطى »(١١٦) .

وقد كان لهـذه التوجيهات أثرها فى المجتمع الاسـلامى حيث بلغت العناية والرعاية بأمر اليتامى حدا راقيا من التكافل والعطف ، وقد وصل الأمر الى حد انشاء « المكاتب » أو « الكتاتيب »(١١٧) الخاصـة لتعليم الأيتـام والفقـراء الذين لم يكن فى وسـع أهليهم ارسـالهم الى الكتاتيب الخاصة ، وقد حـرص أهـل الخير على وقف الأوقاف الكثيرة عليها لتقوم بتعليمهم بل وكسوتهم وتوزيع الغذاء عليهم أيضا .

وان المرء ليزداد عجبه وتقديره حقا لهذه الروح الانسـانية الراقيـة التى اوجدتها تعاليم الاسلام ، بحيث وجد كل فرد فى المجتمع الاسلامى من العناية والاهتمام بأمـره ما جعله يشق طريقه فى الحياة مطمئنا .

بل لعلى لا أبالغ اذا ما قلت أن الصبى اليتيم وجد من أنواع المعونة ، والوان المسـاعدة ، وتكافل المجتمع المسـلم ما أكاد أقول انه وصـل الى « حد التدليل » .

وهذه بعض النماذج نذكرها ليتأكد لنا صدق ما أقول ، وهى توضح ما كان يحصل عليه الصبى فى « مكاتب الأيتام » من تعليم مجانى ، وغذاء مجانى ، وكسوة مجانية .

وسوف نترك لهذه النماذج وحدها ما تعطيه من انطباعات واحساسات للقارىء ليرى فيهـا الصورة المشرقة لـما وصلت اليه رعاية الصبى اليتيم والفقير فى المجتمع المسلم .

---

(١١٦) سنن الترمذى : ج ٤ ص ٣٢١ - نفس الباب السابق .
(١١٧) المكتب أو الكتاب : كان المـكان الاول لتعليم الأطفال ويقوم مقـام المدارس الابتدائية فى وقتنا الحاضر .

● ففى المكتب الذى أنشاه سلطان مصر حسام الدين لاجين (٦٩٦ ـ ٦٩٨ هـ / ١٢٩٧ ـ ١٢٩٩ م) كان « يصرف لكل من الأيتام المتعلمين فى كل يوم من خبز البررطلين بالمصرى ٠

= كما كان يصرف لكل من الأيتـام المتعلمين فى كل شـهر ستة دراهم نقره(١١٨) فى الصيف والشتاء ٠

= بالاضافة الى ما كان يصرف لهم من ثمن الواح ، ومداد ، واقلام ، ودوى حسب ما تدعو اليهالحاجة »(١١٩) ٠

● وفى المكتب الذى أنشاه سلطان مصر قلاوون الالفى سنة ٦٨٣ هـ ٠

= « رتب للأيتام لكل منهم فى كل يوم « رطلان خبزا » ٠

= « وكسوة فى الشتاء ، وكسوة فى الصيف »(١٢٠) ٠

● وفى المكتب الذى انشاه الأمير سيف الدين صرغتمش الناصرى بدهليز مدرسته سنة ٧٥٧ هـ رتب لكل واحد من الأيتام :

= فى كل يوم رطلان خبز ، سدس درهم نقرة ٠

= وكسوة لكل يتيم فى فصل الصيف تتكون من قميص ، ولباس ، وقبع ، ونعل فى رجليه ٠

= وفى فصل الشتاء مثل ذلك ، ويزاد فى الشتاء جبة محشوة بالقطن ٠

---

(١١٨) الدرهم النقرة : كان ثلثاه من فضة والثلث من نحاس ، انظر : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٢ ، ٤٦٣ ٠

(١١٩) أنظر حجة السلطان حسام الدين لاجين : رقم ١٧ ، ١٨ محفظـة رقم ٣ بدار الوثائق القومية ٠

(١٢٠) أنظر حجة السلطان قلاوون : رقم ١٠١٢ محفظة رقم ٤١ بوزارة الأوقاف ٠

= كما كان يصرف لهم حلوى فى نصف شهر شعبان وأول رجب من كل سنة .

= ويصرف لهم ثمن ما يحتاج اليه الايتام من اقلام ، ومداد ، والواح ، ودوى وحصر يجلسون عليها » .

= كما كان يصرف لهم فى عيد الفطر من كل سنة « كعكا ، وتمرا ، وبندقا وخشكنانا ، وفى عيد الاضحى يصرف لهم لحما »(١٢١) .

● وفى المكتب الذى أنشاه سلطان مصر حسن بن قلاوون بجوار مدرسته تقرر فيه :

« لكل صبى يتيم فى الشهر ثلاثون درهما نقرة فى نفقته وكسوته » .

= كما كان يصرف لكل صبى فى العشر الأواخر من رمضان ما قيمته ثلاثة = دراهم يشترى بها «كعكا وتمرا وبندقا » .

= كما كان يصرف لكل صبى فى السنة « كمية من السكر الأبيض الطيب »

= ويصرف ما يحتاجون اليه فى « ثمن الواح ، ودوى ، ومداد ، واقلام ، وحصر يجلسون عليها » .

= وينقل اليهم من الماء العذب ما يحتاجون اليه برسم شربهم وغسيل الواحهم »(١٢٢) .

هذا ما أوردته حجة الوقف الموجودة بدار الوثائق (رقم ٤٠) ، وأما ما جاء بحجة السلطان حسن الموجودة بوزارة الأوقاف(١٢٣) ، فقد

---

(١٢١) أنظر حجة الأمير صرغتمش الناصرى رقم ٢١٩٥ ص ٣٥ - ٣٦ بوزارة الأوقاف المصرية .

(١٢٢) أنظر حجة السلطان حسن بن قلاوون رقم ٤٠ دارالوثائق القومية .

(١٢٣) أنظر حجة السلطان حسن رقم ٨٨١ بوزارة الأوقاف المصرية محفظة رقم ٢٥ بتاريخ ٧٦٠ هـ .

افادت انه كان يصرف من ريع الوقف فى ليلة كل جمعة ثمن « لحم ضأن ، وخبز قرصة ، وثمن ما يحتاج اليه من ارز ، وعسل ، وحبوب ، وحب رمان ، وغير ذلك مما يحتاج اليه فى الطبخ ، وكان يصرف ذلك لارباب الوظائف المقيمين جميعا بما فيهم الايتام بالكتاب .

= ومثل ذلك تقريبا كان يصرف يوم عاشوراء ، وكان للايتام فيه نصيب ايضا .

= كما كانت تصرف كميات من السكر فى رمضان « لكل يتيم رطلان » ، وكميات من اللحم كانت تفرق عليهم فى عيد الأضحى ، كما ذكرت الحجة السابقة ما كان يفرق عليهم فى عيد الفطر .

= كما ذكرت الحجة ايضا ما يصرف لهم من كسوة « وللايتام المذكورين فى نفقتهم وكسوتهم فى كل شهر ثلاثة الاف درهم نقرة بينهم بالسوية لكل منهم ثلاثون درهما نقرة » .

= بالاضافة الى « قميص ، وطاقية ، ومداس فى السنة لكل من الايتام ومؤدبيهم وعريفهم » .

فاذا اضفنا ما ورد فى هذه الحجة ، الى ما ورد فى الحجة السابقة لعلمنا الى اى حد كان ما يحصل عليه اليتيم فى هذا المكتب .

● **عناية المجتمع الاسلامى بالمرضى :**

كما اهتم المجتمع الاسلامى بالمرضى فاقام لهم البيمارستانات(١٢٤)

---

(١٢٤) البيمارستان ومخففها « مارستان » : كلمة فارسية مؤلفة من « بى » ومعناها بدون ، و « مار » ومعناها الحياة أو الحيوية ، و « ستان » ومعناها مكان فمعنى الكلمة كلها مكان المرضى أى ما يعرف الآن بالمستشفيات وذكر المقريزى عن الجوهرى قوله : « المارستان بيت المرضى معرب » وقد أطلقت فى الأصل على كل مستشفى ويطلقها بعض العامة الآن على مستشفى الأمراض النفسية والعقلية أنظر المقريزى : المواعظ والاعتبار : ج ٢ ص ٤٠٥ ، محمد طلس : التربية والتعليم ص ١١٦ — ١١٧ .

ولهن ما تقابل حاليا المستشفيات لتقوم برعايتهم ، والعناية بهم ، وتخفيف الالام عنهم ، ورصدت الاوقاف المتعددة لهذه الغاية .

ومن المعروف ان الاسلام أمر بالتداوى والتخفيف عن المريض ورعايته عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ أنه قال : « لكل داء دواء ، فاذا أصيب دواء الداء برأ باذن الله عز وجل »(١٢٥) .

وعن عطاء عن ابى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أنزل الله داء الا أنزل له شفاء »(١٢٦) .

وعن أسامة بن شريك قال : كنت عند النبى ﷺ ، وجاءت الأعراب فقالوا يا رسول الله الا نتداوى ؟ فقال : « نعم يا عباد الله تداووا ، فان الله عز وجل لم يضع داء الا وضع له شفاء ، أو قال دواء الا داء واحداً ، قالوا : يا رسول الله وما هو ؟ قال : الهرم »(١٢٧) .

وعن ابى خزامة عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله إرأيت رقى نسترقيها ، ودواء نتداوى به ، وتقاة نتقيها ، هل ترد من قدر الله شيئا ؟ فقال : « هى من قدر الله »(١٢٨) .

---

(١٢٥) صحيح مسلم : ج ٤ ص ١٧٢٩ ـ باب « لكل داء دواء ـ واستحباب التداوى » .
(١٢٦) صحيح البخارى : ج ٧ ص ١٢ ـ باب « ما أنزل الله داء الا أنزل له شفاء » .
(١٢٧) سنن الترمذى ج ٤ ص ٣٨٣ ـ باب « ما جاء فى الدواء والحث عليه » .
(١٢٨) سنن الترمذى : ج ٤ ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ ـ باب « ما جاء فى الرقى والأدوية » .

وهكذا تجمع الأحاديث النبوية على الأمر بالتداوى ، وأنه لا ينافى التوكل ، ولهذا اهتم المسلمون بالعلاج ، وأقام الخيرون المستشفيات المجانية لعلاج غير القادرين كباب من أبواب العمل الصالح ، والتقرب الى الله تعالى بذلك .

ويبدو ان أول من بنى البيمارستانات فى الدولة الاسلامية هو الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ / ٧٠٥ - ٧١٥ م) فقد أنشاه سنة ٨٨هـ ، وجعل فيه الأطباء ، وأجرى عليهم الأرزاق ، كما أجرى على المرضى والعميان والمجذمين أرزاقا ، وأعطى كل مقعد خادما يهتم بأمره ، وكل ضرير قائدا يسهر على راحته(١٢٩) .

وتتابع انشاء البيمارستانات فى المدن الاسلامية وكثرت حتى اعتبر الرحالة ابن جبير ان هذه المارستانات التى رآها فى رحلته « مفخر عظيم من مفاخر الاسلام »(١٣٠) وقد تولى غالبا انشاءها السلاطين والأمراء ، واشرفوا على بنائها ، ووقف الأوقاف عليها لتستمر فى أداء وظائفها .

وأول بيمارستان بنى فى مصر على ما يبدو ، هو البيمارستان الذى انشاه أحمد بن طولون سنة ٢٦١ هـ ووقف عليه الأوقاف ، واشترط « أن لا يعالج فيه جندى ولا مملوك »(١٣١) وذلك لاتاحة الفرصة لغير القادرين على نفقات العلاج .

---

(١٢٩) أنظر المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٤٠٥ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ٤٩٦ - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الثانية .

(١٣٠) رحلة ابن جبير ص ٢٦٤ وانظرما ذكرناه من مارستانات متعددة فى المدن التى زارها مثل بغداد ، والموصل ، وحران ، وحلب ، وحماة ودمشق .... ص ٢٠٤ ، ٢١٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٦ ، ٢٦٣ .

(١٣١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٤٠٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٤٣ - وذكر أنه أسس سنة ٢٥٩ هـ .

ومن البيمارستانات التى تعكس المستوى الحضارى الكبير الذى وصل اليه المسلمون ومدى ما قدموه من رعاية وعناية بالمرضى ، **بيمارستان الملك المنصور قلاوون** ،

وقد بناه المنصور قلاوون الألفى الصالحى فى احد عشر شهرا(١٣٢) وقيل فى عشرة اشهر(١٣٣) وكان الشروع فى بنائه اول ربيع الآخر سنة ٦٨٣ هـ(١٣٤) وقيل سنة ٦٨٢ هـ(١٣٥) •

ولما تكامل بناء المارستان ، ركب السلطان وشاهده ، وجلس بالمارستان ، ومعه الأمراء ، والقضاة ، والعلماء ، واستدعى قدحا من الشراب فشربه وقال : قد وقفت هذا على مثلى فمن دونى ، وأوقفه السلطان على الملك والمملوك ، والكبير والصغير ، والجندى والأمير ، والحر والعبد ، والذكور والاناث ، ورتب فيه العقاقير والأطباء ، وسائر ما يحتاج اليه من به مرض من الأمراض •

كما جعل لمن يخرج منه من المرض عند برئه كسوة ، ومن مات جهز وكفن ودفن(١٣٦) كما رتب بالبيمارستان الحكماء الطبائعية(١٣٧)

---

(١٣٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٤٠٦ •

(١٣٣) ابن اياس (أبو البركات محمد بن أحمد) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ١ ص ١١٦ ـ المطبعة الأميرية ببولاق ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى •

(١٣٤) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٤٠٦ •

(١٣٥) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١١٦ •

(١٣٦) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٤٠٦ ، النويرى (شهاب الدين احمد) : نهاية الارب فى فنون الأدب ج ٢٩ ورقة ٢٨٢ ب ـ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ ـ ٥٥١ ـ معارف عامة ؛ ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ١٩ ـ نشره قسطنطين رزيق ، ونجلاء عز الدين ـ بيروت •

(١٣٧) مفرده طبائعى وهو المعروف الآن باسم طبيب الأمراض الباطنية •

والكحالين(١٣٨) والجرائحية(١٣٩) والمجبرين(١٤٠) لمعالجة الرمدى والمرضى والمجروحين والمكسورين من الرجال والنساء .

ورتب به الفراشين ، والفراشات ، والقومة لخدمة المرضى ، واصلاح أماكنهم ، وتنظيفها ، وغسل ثيابهم ، وخدمتهم فى الحمام ، وقرر لهم فى ذلك الجامكيات(١٤١) الوافرة .

وعملت التخوت والفرش والطراريح والأمطاع والمخدات ، واللحف والملاوات لكل مريض فرش كامل ، وأفرد لكل طائفة من المرضى أمكنة تختص بهم .

فجعلت الأواوين الاربعة المتقابلة للمرضى بالحميات وغيرها ، وجعلت قاعة للرمدى ، وقاعة للجرحاء ، وقاعة لمن أفرط به الاسهال ، وقاعة للنساء ، ومكان حسن للممرورين(١٤٢) من الرجال ومثله للنساء .

وافردت أماكن لطبخ الطعام ، والأشربة والأدوية والمعاجين وتركيب الأكحال والشيافات(١٤٣) والسفوفات وعمل المراهم والأدهان وتركيب

---

(١٣٨) جمع كحال وهو طبيب العيون .

(١٣٩) مفرده جرائحى وهو طبيب الجراحة .

(١٤٠) مفرده مجبر وهو طبيب جبر العظام .

(١٤١) الجامكية : كلمة فارسية معناها الرابط المربوط لشهر أو أكثر انظر النجوم الزاهرة ج ٨ هامش ص ٥٠ .

(١٤٢) المقصود بالممرورين ومفرده ممرور : من غلبت عليه المرارة وهى المادة الصفراء تفرزها المرارة .

(١٤٣) الشيافات والأشياف أيضا ـ جمع شياف : وهو دواء مسحوق يستعمل للعيون ، والشياف أيضا : الدواء الذى يجعل قمعا أو تلبيسة لمعالجة أمراض المستقيم .

الدرياقات(١٤٤) وأماكن لحواصل العقاقير وغيرها من هذه الأصناف المذكورة ، ومكان يفرق منه الشراب ، وغير ذلك من جميع ما يحتاج اليه .

ولم يحص عدد المرضى ، بل جعله سبيلا لكل من يرد علية من غنى وفقير ، ولا حدد مدة لاقامة المريض به ، بل يرتب لمن يطلب وهو فى منزله ما يحتاج اليه من الاشربة والاغذية والادوية حتى ان هؤلاء زادوا فى وقت من الأوقات على مائتين غير من هو مقيم بالمارستان(١٤٥) .

ولا شك أن هذه الامكانيات الكبيرة ، وذلك النظام الرائع للمارستان المنصورى أدهش المعاصرين حتى وجدنا الرحالة ابن بطوطة يقول عنه وأما مارستان المنصور قلاوون « فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أعد فيه من المرافق والادوية ملا يحصى »(١٤٦) .

وانه لامر يدعو الى الاعجاب والتقدير أن يوجد فى تلك العصور البعيدة ، مثل هذه المؤسسة الخيرية النادرة ، والتى قامت بواجبها نحو المرضى والمحتاجين بصورة رائعة ، مما يعد مفخرة من مفاخر المسلمين .

هذا ولم يكن الاوربيون يعرفون نظام المستشفيات حتى جاءوا الى الشرق ، واحتكوا بحضارته ، فنقلوا هذا النظام الى بلادهم(١٤٧) .

---

(١٤٤) هو الترياق ويقال الدراق أيضا : وهو دواء مركب يؤخذ لرفع السموم – أنظر هامش كتاب السلوك للمقريزى تحقيق د. محمد زيادة ص ٩٩٨ – ٩٩٩ .

(١٤٥) أنظر النويرى : نهاية الارب ج ٢٩ ورقة ٢٨٢ ب ، المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات – ج ٨ ص ٩ .

(١٤٦) تحفة النظار فى غرائب الأمصار ص ٥٦ .

(١٤٧) د. عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٠٩ .

● **عناية المجتمع الاسلامى بطلاب العلم :**

كما اهتم المجتمع الاسلامى اهتماما كبيرا « **بطلاب العلم** » وقدم لهم من التسهيلات والاعانات والهبات ما يسر لهم سبل العلم ، وطريق المعرفة منذ المرحلة الأولى ، أى منذ الطفولة ، وحتى نهاية مراحل التعليم ، حيث ينتهى من دراسته ، ويصبح مؤهلا لأى وظيفة من وظائف الدولة التى كان يتولاها أهل العلم ٠

ولقد هيأ المسلمون لطلاب العلم ، وراغبى المعرفة **معاهد التعليم المختلفة المجانية** ، هذه المعاهد التى تنوعت وتعددت من كتاتيب الى مساجد ، ودور للحكمة ، ومدارس ، وخوانق ، وزوايا ، وربط ، وبيمارستانات ٠٠٠٠ وذلك لتلبى هذه المعاهد المتعددة رغبة كل طالب علم ، سواء كان من أهل البلاد الأصليين ، أو من الوافدين عليها ٠

وامتدت رعاية المجتمع المسلم لتشمل كذلك **توافر المساكن للطلاب** ، حيث كان من خواص المدرسة فى العالم الاسلامى أن بها المساكن التى تبنى ليعيش فيها الطلاب ، بل والمدرسون الذين ينتسبون اليها(١٤٨) ٠

ويحدثنا المقريزى أن عدد الطلبة الغرباء الذين كانوا يلازمون الاقامة بالأزهر فى الأروقة الخاصة بهم فى عصره ، أى فى القرن التاسع الهجرى بلغ « ستمائة وخمسين رجلا ، ما بين عجم ، وزيالعة ، ومن أهل ريف مصر ، ومغاربة ، ولكل طائفة رواق يعرف بهم(١٤٩) ٠

كما شملت رعاية المجتمع المسلم لطلاب العلم بالاضافة الى ما ذكرناه توفير :

---

(١٤٨) أنظر د٠ أحمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ص ١١٤ ، ١١٥ ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٦٦ م ٠
(١٤٩) المواعظ والاعتبار : ج ٢ ص ٢٧٦ ٠

● التغـذية المجـانية .

● والمساعدة المـالية فى كل شهر من شهور السنة على امتدادها .

أو ما سمي فى ذلك الوقت « معلوم الطالب » .

وهذه بعض النماذج « للمعاليم » التى كانت تصرفها بعض معـاهد التعليم فى مصر للطلبة ، نذكرها دون تعليق لأنها تنطق بابلغ لغة، وأفصح تعبير عما هياه المجتمع المسلم لطلاب العلم من عناية ورعاية لا شـك أن طالب العلم المعاصر سيغبطه عليها .

* ففى المدرسة الصرغتمشية التى اسسها الأمير صرغتمش الناصرى فى مصر سنة ٧٥٧ هـ كان يصرف للطالب فيها ما يلى :

● خمسة وخمسون درهما نقرة كل شهر .

● ورطلان ونصف زيت طيب كل شهر .

● ورطلان صابون كل شهر .

● وفى شهر رمضان من كل سنة يصرف لكل طالب رطلان سكر .

● ويصرف فى كل سنة فى وقت أوان البطيخ والعنب لكل طالب ثلاثة دراهم نقرة .

● وبالاضافة لكل ما سبق كان يصرف على الطلبة فى عيد الأضحى ما يراه الناظر (ناظر الوقف) فى ذلك(١٥٠) .

* وفى جامع ابن طولون : رتب الأمير يلبغا العمرى سنة ٧٦٧ هـ ـ درسـا للحنفية فى الجـامع ، وقـرر لكل طالب من الاحنـاف فى الشهر « أربعين درهما ، واردبا من القمح » .

---

(١٥٠) انظر حجة صرغتمش الناصري .

ويعقب المقريزى على ذلك بأن هذا المعلوم كان كبيرا فانتقل تحت اغرائه جماعة من الشافعية الى مذهب الحنفية(١٥١) .

وفى الجامع الأزهر كذلك : رتب الامير الطواشى سعد الدين بشير الناصرى عندما سكن بجوار الأزهر سنة ٧٦١ هـ ــ طعاما للفقراء المجاورين بالأزهر ، يطبخ لهم كل يوم ، وانزل اليهم قدورا من النحاس لهذا الغرض(١٥٢) .

وفى « خانقاه شيخو » : التى انشاها الأمير سيف الدين شيخو العمرى سنة ٧٥٧ هـ ورتب فيها درسا فى فقه المذاهب الأربعة ، ودرسا فى الحديث ، ودرسا فى القراءات ، وكان « معلوم » الطالب فيها :

- كل يوم الطعام ، واللحم ، والخبز .
- وفى كل شهر الحلوى ، والزيت ، والصابون .

ويتحدث عنها المقريزى بقوله : « فعظم قدرها ، واشتهر فى الأقطار ذكرها ، وتخرج بها كثير من أهل العلم »(١٥٣) .

فهل بعد ذكر هذه النماذج يكون من المبالغة إن نقول ، أن طالب العلم فى كثير من الدول المتقدمة فى العصر الحاضر ، لم يصل الى مستوى العناية والرعاية التى وصل اليها الطالب المسلم خلال عصور ازدهار الحضارة الاسلامية ؟ ؟ ..

---

(١٥١) المواعظ والاعتبار : ج ٢ ص ٢٦٩ .
(١٥٢) المقريزى : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٣٦ .
(١٥٣) أنظر المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٤٢١ .

● عناية المجتمع الاسلامي بالغرباء :

ويلغ اهتمام المجتمع الاسلامى بالغرباء وخاصة ان كانوا من طـلاب العـلم مبلغا كبيرا باعتبـار أنهم من المحتـاجين الذين يستحقون المعونة والرعاية .

ولذلك نعلم أن الاسلام جعل من مصارف الزكاة « ابن السبيل » ، وقد اتفق العلماء على أن المسافر المنقطـع عن بلده يعطى من الصـدقة ما يستعين به على تحقيق مقصده ، اذا لم يتيسر له شىء من ماله ، نظرا لفقره العارض ، واشترطوا أن يكون سفره فى طاعة ، أو فى غير معصية ، واختلفوا فى السفر المباح(١٥٤) .

وها هو الرحـالة ابن جبير يحدثنا باعجاب عن عناية المسلمين فى مصر بالغرباء ، وخاصة طلاب العلم فيقول : « ومن مناقب هذا البلد ، ومفاخره العائدة فى الحقيقة الى سلطانه (صلاح الدين الأيوبى) المدارس والمحارس(١٥٥) الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم سكنا يأوى اليه ، ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعليمه ، واجراء يقومون به فى جميع أحواله، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطـارئين حتى أمر بتعيـين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون احوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظرفى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء .

---

(١٥٤) السيد سابق : فقه السنة مج ١ ص ٣٩٥ .

(١٥٥) المحارس ـ مفردها محرس : أى المأوى المخصص للدارسين ، والزهاد ، والمسافرين .

... ومن أشرف هذه المقاصد ايضا ، أن السلطان عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل انسان فى كل يوم بالغا ما بلغوا ، ونصب لتفريق ذلك كل يوم انسانا أمينا من قبله ، فقد ينتهى الى الفى خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة هكذا دائما ، ولهذا كله أوقاف من قبله حاشا ما عينه من زكاة العين لذلك ... »(١٥٦) .

كما اشار ابن جبير الى أن السلطان صلاح الدين الأيوبى خصص للغرباء من المغاربة جامع أحمد بن طولون فى مصر « يسكنونه ويحلقون فيه وأجرى عليهم الأرزاق فى كل شهر »(١٥٧) .

ثم ينتقل بنا ابن جبير الى مكان آخر من أرض الاسلام فيحدثنا عن عناية المسلمين فى دمشق بالغرباء فيذكر أن « للمالكية زاوية للتدريس فى الجانب الغربى (من جامع دمشق) يجتمع فيه طلبة المغاربة ، ولهم اجراء معلوم ، ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة ، واغرب ما يحدث به أن سارية من سواريه ... لها وقف معلوم يأخذه المستند اليها للمذاكرة والتدريس ، أبصرنا بها فقيها من أهل اشبيلية يعرف بالمرادى ... ، وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم ويكسوتهم وهذا أيضا من اغرب ما يحدث به من مفاخر هذه البلاد ... . ويستدير بهذا الجامع المكرم أربع سقايات ... وهذه أيضا من المرافق العظيمة للغرباء وسواهم »(١٥٨) .

---

(١٥٦) أنظر الرحلة : ص ١٠ .
(١٥٧) أنظر الرحلة : ص ٢١ .
(١٥٨) أنظر الرحلة ص ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

ونظل مع ابن جبير وهو يحدثنا عن وجوه العناية بالغرباء، ومحاولة ايجاد موارد رزق اضافية لهم ـ برغم مايحصلون عليه من الوان المساعدات، وأنواع المعونات ـ وذلك بمساعدتهم على التعيين فى وظيفة من الوظائف ، أو عمل من الأعمال التى تدر عليهم دخلا ٠

من ذلك ما ذكره ابن جبير وهو يتحدث عن ابى الربيع سليمان بن ابراهيم بن مالك فيقول عنه :

« وهو متعلق بسبب من أسباب البر فى ايواء أهل المغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات ، يسبب لهم وجوه المعايش من امامة فى مسجد ، أو سكنى بمدرسة تجـرى عليـه فيهـا النفقـة ، او التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع يجبى اليه فيها رزقه ، أو حضور فى قراءة سبع ، أو سدانة مشهد من المشاهد المباركة يكون فيه ويجرى عليه ما يقوم به من أوقافه ، الى غير ذلك من الوجوه المعاشية ، وعلى هذه السبيل المباركة مما يطول شرحـه » ٠

ثم يستطرد ابن جبير قائلا : « فالغريب المحتاج هنا اذا كان على طريقة الخير ، مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه » ٠

« وسائر الغرباء ممن ليس على هذه الحال ممن عهد الخدمة والمهنة ، يسبب له أيضا أسبابا غريبة من الخدمة ، اما بستان يكون ناطورا فيه ، أو حمام يكون عينا على خدمته وحافظا لأثواب داخلية ، أو طاحونة يكون أمينا عليهـا ، أو كفـالة ملطـان يؤديهم الى محاضرهم ، ويصرفهم الى منازلهم ، الى غير ذلك من الوجوه الواسعة ٠٠٠ »(١٥٩) ٠

---

(١٥٩) انظر الرحلة : ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ ٠

أى أن العناية بالغرباء عامة شاملة ، والاهتمام بايجاد عمل مناسب لائق بكل فرد أمر يحرص عليه ، فهل رأينا أو نرى فى أمة على وجه الأرض فيها الحساسية بأمر الغرباء والمحتاجين الى هذا الحد ؟ ؟

لا .. فهذه القيم الرفيعة لا نجدها الا فى المجتمع المسلم ، وتلك الحساسية المرهفة لا تتجلى وتتأكد الا فى ضمير المسلم ، ذلك لأن المسلم انسان يخشى ربه ، ويعلم علم اليقين أن كل عمل خير ، وعطاء نافع لا يضيع عند الله ، وان ضاع عند الناس ، ومن ثم كان هذا التسابق النبيل فى عمل الخير ، ومرضاة رب العالمين .

ويواصل ابن جبير حديثه الحار المفعم بكل مشاعر الاكبار والتقدير لما يراه ويشاهده فى أرض الاسلام من مثل وقيم ، ومن تراحم وتكافل ، وتواصل وترابط ، فيتحدث عن السلطان نور الدين محمود (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م) ، وسأثره الباقية فى خدمة أهل العلم من الغرباء المغاربة فيقول :

ومن مناقب السلطان نور الدين رحمه الله تعالى « أنه عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك أوقافا كثيرة ، منها طاحونتان ، وسبعة بساتين ، وأرض ، وحمام ، ودكانان بالعطارين ... »(١٦٠) .

ثم يقول :

« ومرافق الغرباء بهذه البلدة (يقصد دمشق) أكثر من أن يأخذها الاحصاء ، ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل ، والمنتمين للطلب (طلب العلم) فالشان بهذه البلدة لهم عجيب جدا » .

---

(١٦٠) أنظر الرحلة : ص ٢٦٦ .

ثم يؤكد ابن جبير أن هذه الرعاية وتلك العناية ، لا تقتصر على بلدة معينة من أرض الاسلام ، وانما تمثل تيارا عاما ، وروحا واحدة ، لدى المسلمين فى كل مكان ، ولذا نراه يقول « وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم »(١٦١) .

ولذا نراه يوجه دعوته الى المسلمين فى بلاد المغرب (لأنه كان من بلاد المغرب) أن يرحلوا فى طلب العلم ، وأنهم اينما حلوا فسوف يجدون من الوان الرعاية والعناية ، ومن صور التراحم والتعاطف ما يحقق غايتهم ، ولذا يقول :

« فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا ، فليرحل الى هذه البلاد (يقصد مشرق العالم الاسلامى) ويتغرب فى طلب العلم فيجد الأمور المعينة كثيرة .

فاولها فراغ البال من أمر المعيشة ، وهو أكبر الأعوان وأهمها ، فاذا كانت الهمة فقد وجد السبيل الى الاجتهاد ، ولا عذر للمقصر الا من يدين بالعجز والتسويف فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب اليه .

وانما المخاطب كل ذى همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده فى وطنه من الطلب العلمى فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك .

---

(١٦١) أنظر الرحلة : ص ٢٦٦ ـ وقد دأب المؤرخون والجغرافيون المسلمون على تقسيم العالم الاسلامى الى مشرق ومغرب ، وتعددت أراؤهم ، ولكن جمهرتهم اتفقوا على تحديد المغرب : بالأراضى الاسلامية الممتدة من حدود مصر الغربية الى المحيط الأطلسى ، وبذلك تكون مصر ضمن حدود ما عرف بالمشرق ـ ولمزيد من التفصيل أنظر كتابى « الحياة السياسية فى المغرب الاسلامى وآثارها فى نشأة الدويلات خلال القرن الثانى الهجرى » ـ مطبعة الحسين الاسلامية ـ القاهرة ـ ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م ـ الطبعة الأولى .

فادخل أيها المجتهد بسلام ، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد ، ويقرع سن الندم على زمن التضييع ، والله يوفق ويرشد لا اله سواه ، قد نصحت أن الفيت سامعا ، وناديت أن اسمعت مجيبا ، ومن يهد الله فهو المهتدى جلت قدرته وتعالى جده »(١٦٢) .

ثم يشيد ابن جبير مرة أخرى ببلاد المشرق ، وما تبادر به من اكرام الغرباء والمحتاجين فيقول : « ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها الا مبادرة أهلها لاكرام الغرباء ، وايثار الفقراء ، ولا سيما أهل باديتها فانك تجد من بدار الى بر الضيف عجبا كفى بذلك شرفا لها ... »(١٦٣)

لقد أطلنا صحبة « ابن جبير » وهو يواصل حديثه عن أمة الاسلام فى اكرامها للغرباء ، وعنايتها بالضعفاء ، ورعايتها للفقراء ، وحساسيتها المرهفة فى تقديم كل عون ورعاية ، لنعلم كيف كان المجتمع الاسلامى متكافلا ، متعاطفا ، متراحما ، مترابطا ، وذلك كله بفضل الاسلام ، الذى كان لتعليماته وتوجيهاته الأثر فى قيام هذا الصرح القوى من المثل والفضائل .

وقد كان من الأمور المألوفة فى العالم الاسلامى ، أن الغريب اذا وفد على أى مدينة من المدن او قرية من القرى ، فانه يجد فى المؤسسات الاسلامية الكثيرة ـ الموقوف عليها وغير الموقوف ـ مكانا ياويه ويتجه اليه ، وهناك يجد من رعاية أهل الحى أوالقرية ما يتيح له حاجته من الطعام والشراب ، وأى مطالب أخرى .

فكل غريب يستطيع أن ينزل مسجدا من المساجد ، أو زاوية من الزوايا ، لينام فيها فقد كان ذلك شيئا مالوفا ومعتادا ، وعندما نقرأ كتب

---

(١٦٢) أنظر الرحلة : ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
(١٦٣) نفس المصدر : ص ٢٦٧ .

الرحالة كابن جبير ، وابن بطوطة ... وغيرهما فيسوف ندرك أن هـذا الأمر كان من الأمور المعتادة والمعروفة بين المسلمين ، فمن عظمة الحضارة الاسلامية كما ذكرنا قبل ذلك ان المساجد لم تكن أماكن للصلاة فقط ، وانما قامت بمهام اجتماعية متعددة .

بل ان هناك بعض « الربط » التى كانت تستضيف المغتربين القادمين من انحاء العالم الاسلامى ليتخذوا منها ماوى يستريحون فيه من وعثاء السفر ، حيث يقابلون بالترحاب ، ويقدم لهم الطعـام ، وكانت اقـامة الوافد تحدد بثلاثة أيام لتتاح الفرصة لغيره ، ففى حجـة الناصر محمـد عن الرباط الكبير الذى أنشاه بمرياقوس ما نصه :

« فأما الربط الأول المشتمل على ستين بيتا ، فانه جعله رباطا ماوى الفقراء الواردين اليه ، ويصرف من ريع هذا الوقف للفقراء الواردين الى الرباط المذكور من السفر من الشام ، أو من الحجاز ، أو بلاد المغـرب ، واليمن ، من العرب والعجم فى كل يوم لكل واحد منهم عند وروده درهم واحد نقرة ، وثلاثة أرطال خبز ، ولا يزيدون فى عدة الواردين عن ستين نفرا بشرط اقامة الوارد منهم بالمكان المذكور ثلاثة ايام ، ولا تزيد عليهم الا لعذر شرعى يتضـح للشيخ المذكور يمكنه من الاقامة به الى حين زوال عـذره »(١٦٤) .

ويذكر المقريزى عن رباط بيبرس الجاشنكير بمصر أنه «خصص لمـائة من الجند ، وأبناء الناس الذين قعد بهم الوقت »(١٦٥) .

هذا فضلا عن المؤسسات التجـارية التى انتشرت فى انحاء العـالم الاسلامى مثل الخانات ، والوكالات ، والفنادق ...

---

(١٦٤) حجة السلطان محمد بن قلاوون رقم ٢٥ بدار الوثائق القومية .
(١٦٥) المواعظ والاعتبار : ج ٢ ص ٤١٧ .

والغرض من هذه المؤسسات خدمة التاجر الذى ينتقل من بلد الى آخر ، ويقيم فى كل بلد للبيع والشراء ، ويرجو أن يتوفر له فى كل بلد قدر من الراحة والحياة الاجتماعية الطيبة ، فضلا عن الأمن والسلامة (١٦٦)

● عناية المجتمع الانسانى بالنساء والمطلقات والأرامل :-

ولم يغفل المجتمع الاسلامى كذلك العناية والاهتمام بالنساء المطلقات والأرامل ، وتوفير كل ما يحفظهن ويصونهن ، ويقوم بأمرهن ، ولذلك وجدت ربط خاصة بالنساء ، اهتمت بكفالة المرأة المسلمة ورعايتها .

نلمس ذلك مما قاله المقريزى عن رباط البغدادية فى مصر ، وهو رباط أسسته الست الجليلة تذكار باى خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٨٤ هـ للشيخة الصالحة زينب ابنة أبى البركات المعروفة ببنت البغدادية .

ويقول عنه المقريزى " وأدركنا هذا الرباط ، وتودع فيه النساء اللاتى طلقن أو هجرن حتى يتزوجن ، أو يرجعن الى أزواجهن ، صيانة لهن " (١٦٧) .

... وكان له دائمة شيخة تعظ النساء وتذكرهن وتفقههن .

وهذا يشير بلا شك الى تكافل اجتماعى عظيم لا شك فيه عند المسلمين ، لأن هذه الربط أصبحت كمؤسسات اصلاحية تهذيبية ، حيث أن النساء المقيمات بها كن يستمعن الى الوعظ والارشاد ، ويهتدين بهدى القرآن والسنة المحمدية ، كما أصبح لتلك الربط النسائية نزعة انسانية وهى الأخذ بيد الفقيرات المستات اللاتى أصبحن بلا عائل ولا معين ،

---

(١٦٦) د. سعيد عاشور : الحياة الاجتماعية ص ١٢٣ .
(١٦٧) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٤٢٨ .

واضطررن الى سكنى الربط لتكن لهن ماوى يجدن فيه ما يعينهن على الحياة(١٦٨) ٠

الوقف ودوره فى تكافل الامة الاسلامية :

الوقف فى اللغة : الحبس ٠ يقال وقف يقف وقفا ـ اى حبس يحبس ٠

وفى الشرع : حبس الاصل ، وتسبيل الثمرة ٠ اى حبس المال وصرف منافعه فى سبيل الله ٠

انـواعـه :

والوقف احيانا يكون الوقف على الاحفاد او الاقارب ومن بعدهم الى الفقراء ، ويسمى هذا بالوقف الاهلى او الذرى ٠

واحيانا يكون الوقف على ابواب الخير ابتداء ، ويسمى بالوقف الخيرى(١٦٩) ٠

وقد شرع الله الوقف ، وندب اليه ، وجعله قربة من القرب التى يتقرب بها اليه ، وذلك لاشاعة البر بالفقراء ، والعطف على المحتاجين ٠

عن ابى هريرة ان الرسول ﷺ قال : « اذا مات الانسان انقطع عنه عمله الا من ثلاثة : الا من صدقة جارية ٠ او علم ينتفع به ٠ او ولد صالح يدعو له »(١٧٠) ٠

---

(١٦٨) انظر دولت عبد الكريم : رسالة الخوانق ص ٣٦ ٠

(١٦٩) السيد سابق : فقه السنة مج ٣ ص ٥١٥ ٠

(١٧٠) صحيح مسلم ج ٣ ص ١٢٥٥ ـ باب « ما يلحق الانسان من الثواب بعد وفاته » ٠

والمقصود بالصدقة الجارية « الوقف » .

ومعنى الحديث : ان عمل الميت ينقطع تجدد الثواب له الا فى هذه الأشياء الثلاثة لأنها من كسبه : فولده ، وما يتركه من علم ، وكذا الصدقة الجارية كلها من سعيه .

واذا لزم الوقف فانه لا يجوز بيعه ، ولا هبته ، ولا التصرف فيه بأى شىء يزيل وقفيته ، واذا مات الواقف لا يورث عنه لأن هذا هو مقتضى الوقف(١٧١) .

وقد وقف رسول الله ﷺ ، ووقف أصحابه المساجد ، والأرض ، والآبار ، والحدائق ، والخيل .

عن أنس رضى الله عنه قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وأمر ببناء المسجد .... قال : يا بنى النجار : ثامنونى بحائطكم هذا ؟(١٧٢) .

قالوا لا - والله لا نطلب ثمنه الا الى الله »(١٧٣) ، فأخذه الرسول وبناه مسجدا .

وعن سعد بن عبادة رضى الله عنه أنه قال : يا رسول الله ان أم سعد ماتت فأى الصدقة أفضل ؟ قال الماء . فحضر بئرا وقال : هذه لأم سعد(١٧٤) .

---

(١٧١) السيد سابق : فقه السنة مج ٣ ص ٥٢٢ .
(١٧٢) ثامنونى بحائطكم هذا : أى قرروا معى ثمنه - والحائط : هو البستان .
(١٧٣) صحيح مسلم ج ١ ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ - باب « ابتناء مسجد النبى صلى الله عليه وسلم .
(١٧٤) السيد سابق : فقه السنة مج ٣ ص ٥١٩ .

ولقد ازدهـر نظـام الوقف عند المسلمين ازدهـارا كبيرا ، وانتشر انتشـارا واسعا ، حتى كاد يشمل كل شىء من أراض زراعية ، وحوانيت ، ودور ، وأفـران ، ومصـانع ... الى غير ذلك مما يمكن أن يدر مورداً ثابتـا ، أو دخـلا منتظما ، يضمن استمرار ما وقفـه الواقف فى أداء رسـالته ، وتحقيق الغرض الذى حـدده لوقفـه دون حـاجة الى طلب المعـونة بين حين وآخـر ، أو دون التهـديد بالافـلاس والتوقف .

لذلك ظلت المؤسسات الكثيرة التى وقف عليهـا الواقفـون أوقافهم المختلفـة تقوم بدورها دون توقف عن أداء رسـالتها حتى عقب وفـاة مؤسسيها(١٧٥) .

ولا شـك أن هذا النظـام للوقف ، كان له أثـر كبير فى تحقيـق التكافل ، والتراحم ، والتعاطف بين أبنـاء الأمـة الاسـلامية ، ذلك لأنه قـام بمهـام متعـددة اجتماعية ، واقتصـادية ، وثقافية ... للطبقات الفقـيرة والمحـرومة والضعيفة .

فمن أغراضه الاجتماعية : القيـام بكافة وجـوه الاحسـان والبر ، والتصـدق على الفقـراء والمحتاجين ، والتوسعة على الناس وخاصة فى المناسبات الدينية كشهر رمضان ، وعيد الفطـر ، وعيد الأضحى .. أو فى أوقات الشدة والحاجة(١٧٦) .

كما كان من أغراضه انشاء المؤسسات المختلفة التى تؤدى أغراضـا اجتماعية وانسـانية متعـددة كانشـاء الحمامات للاستحمام ، والأسبلة

---

(١٧٥) د. سعيد عاشور : الحياة الاجتماعية ص ١٠٩ .
(١٧٦) أنظر ما كتبناه تحت عنوان « عناية المجتمع الاسلامى بالضعفاء والمحتاجين » ص ٢١٧ - ٢٢٢ .

لتوفير ماء الشرب لعابرى السبيل(١٧٧) ، والبيمارستانات لمعالجة المرضى وتوفير الرعاية الصحية(١٧٨) .

بل لقد وقف الخيرون أوقافا لتوفير ماء الشرب للدواب ، مما يدل على اتساع افق النظرة الاجتماعية للحضارة الاسلامية(١٧٩) .

ومن اغراضه الدينية : انشاء المساجد والجوامع ، وترتيب الوظائف الخاصة باقامة الشعائر الدينية كالامام ، والخطيب ، والمؤذن ، والمادح (المنشد) ، ومجمر المبخرة ، والوقاد (الذى يشعل القناديل) وأمين الزيت ، والقراء ... الخ .

وكذلك انشاء الخوانق ، والربط ، والزوايا ، والوقف على من بها من المتصوفة والموظفين ... الخ(١٨٠) .

ومن اغراض الوقف أيضا : الاهتمام بالناحية الثقافية :

وتمثل هذا فى انشاء مكاتب الأيتام لتعليمهم والانفاق عليهم ، وعلى مؤدبيهم وتقديم كافة وجوه الرعاية لهم(١٨١) .

---

(١٧٧) ما تزال بعض الأسبلة الأثرية قائمة بالقاهرة تسترعى النظر بفنها وجمال عمارتها .

(١٧٨) انظر ما كتبناه تحت عنوان « عناية المجتمع الاسلامى بالمرضى » ص ٢٢٦ - ٢٣١ .

(١٧٩) د. سعيد عاشور : الحياة الاجتماعية ص ١١٨ .

(١٨٠) أنظر د. محمد محمد أمين : تاريخ الأوقاف فى مصر فى عصر سلاطين المماليك ص ٢١٧ - ٢٩٣ .

(١٨١) أنظر ما كتبناه تحت عنوان « عناية المجتمع الاسلامي باليتيم » ص ٢٢٢ - ٢٢٦ .

وكذلك انشاء المدارس ، وصرف المعاليم للطلبة ، والاساتذة ، والمعيدين ، وتوفير كافة الخدمات لهم من مساكن ومكتبات وغذاء ... الخ(١٨٢) .

* وهكذا نستطيع القول بكل ثقة أن من سمات حضارتنا الاسلامية العظيمة - انها حضارة « تقوم على التكافل والتراحم » حيث يلتقى الفرد بالجماعة فى وفاق عظيم ، وحيث تتعاضد الجماعة الاسلامية ، وتتعاون وتتآسى فى كل صغيرة وكبيرة ، من أجل التحقق بأكبر قدر من التناغم والانسجام لدفع عجلة الحياة الاسلامية الى الأمام ، واعانتها على مواصلة الطريق .

ان توجيه الاسلام - للمجتمع الاسلامى دائما - أن يعتبر المسلمون انفسهم كأنهم أرباب سفينة واحدة - كما يصورهم نبيهم ومعلمهم عليه السلام ، وأنه يتوجب عليهم أن يتكاتفوا من أجل مجابهة الخطر والاستجابة للتحديات ، ومنع كل ما من شأنه أن يحدث ثغرة قد يتسرب منها الماء ، وقد يقود الجميع الى الغرق المحتوم(١٨٣) .

انه يتوجب عليهم أن يعملوا يدا واحدة متكافلين متعاونين من أجل أن تصل بهم السفينة الى مرفأ النجاة ، وشاطىء السلامة ، وهنا يتحقق تصوير رسول الله ﷺ للمجتمع الاسلامى بانه كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

والآن ننتقل للحديث عن سمة أخرى من سمات الحضارة الاسلامية وهى أنها « حضارة تقوم على التسامح » .

★ ★ ★

---

(١٨٢) انظر ما كتبناه تحت عنوان «عناية المجتمع الاسلامى بطلاب العلم» ص ٢٣٢ - ٢٣٤ .

(١٨٣) د. عماد الدين خليل : ملاحظات فى تاريخ المجتمع الاسلامى ص ٧١ .

الفصل السادس

حضارة تقوم على التسامح

ومن ابرز سمات الحضارة الاسلامية وخصائصها ـ انها « حضارة تقوم على التسامح » .

فخلق التسامح يبدو خلقا متاصلا ومتمكنا فى نفس الفرد المسلم ، والامة المسلمة ، وليس فى هذا الامر غرابة ، فتعاليم الاسلام ومعتقداته قوت هذا الخلق فى نفوس المسلمين ، وجعلته خصيصة من خصائصهم فى هذه الحياة ، ونستطيع أن نتبين هذه التعليمات ، وتلك المعتقدات فيما يلى :

(أ) دعوة الاسلام الى التسامح :

لقد جاء الاسلام ليشيد مجتمعا قائما على المودة والأخوة ، ولينتقل بالبشر خطوات فسيحات الى حياة مشرقة بالفضائل والآداب ، ومن ثم جاءت دعوته حارة الى العفو والتسامح ، وقبول اعذار الناس ، والتغاضى عن أخطائهم ، والتجاوز عن هفواتهم .

قال تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »(١) .

« ويسالونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون »(٢) ، « ان تبدوا خيرا ان تخفوه أو تعفوا عن سوء فان الله كان عفوا قديرا »(٣) .

---

(١) سورة الاعراف : آية ١٩٩ .
(٢) سورة البقرة : آية ٢١٩ .
(٣) سورة النساء : آية ١٤٩ .

وقال جل شانه : « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين »(٤) ٠

« وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا واصلح فاجره على الله انه لا يحب الظالمين ٠ ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل ٠ انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب اليم ٠ ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور »(٥) ٠

واعتبر الاسلام ان العفو والتسامح من الاسباب التى تسرع بصاحبها الى الجنة ـ قال تعالى : « وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين ٠ الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين »(٦) ٠

● وجاءت احاديث الرسول ﷺ لتؤكد هذه المعانى ، ولتكرس فى نفس المسلم والمجتمع الاسلامى صفات العفو ، والتسامح ، والرفق ، والحلم ٠٠٠

عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ان الله رفيق يحب الرفق ، ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف ، وما لا يعطى على سواه »(٧) ٠

---

(٤) سورة النحل : آية ١٢٦ ٠
(٥) سورة الشورى : الآيات ٤٠ ـ ٤٣ ٠
(٦) سورة آل عمران : الآيات ١٣٣ ، ١٣٤ ٠
(٧) صحيح مسلم ج ٤ ص ٤٥ ـ « باب فضل الرفق » ٠

وفى رواية : « ان الرفـق لا يكون فى شئ الا زانه ، ولا ينزع من شئ الا شـانه »(٨) .

وقال رسول الله ﷺ « من كظم غيظـا وهو قـادر على ان ينفـذه ، دعاه الله على رءوس الخـلائق يوم القيـامة حتى يخيـره فى أى الحـور شـاء »(٩) .

أجل ان الاسـلام يطالب اتبـاعه بتغليب الحـلم على الغضب ، وتغليب التسـامح على العقاب . عن عبـادة بن الصـامت قال رسول الله ﷺ « الا أنبئـكم بما يشرف الله به البنيـان ويرفـع الدرجات ؟ .

قالوا : نعم يا رسول الله . قال : تحـلم على من جهـل عليـك ، وتعفـو عمن ظلمـك ، وتعطى من حـرمك ، وتصـل من قطعـك » ـ رواه الطـبرانى .

وقد كان رسول الله ﷺ بين أصحابه مثـلا أعلى للخلق الذى يدعـو اليـه ، فهو يغـرس بين اصحابه هذه الأخـلاق السـامية بسـيرته العطرة قبـل أن يغـرسها بما يقول من حكم وعظات .

ولعـل خير من يؤكد سـعة صـدره ، وعظم سماحته ، وقوة حلمه ، ما شهد به خـادمه انس بن مالك رضى الله عنه ـ قال : خدمت رسـول الله ﷺ عشر سنين ، والله ما قال لى افا قط ، ولا قال لى لشئ . لم فعلت كذا ؟ وهلا فعلت كذا ؟(١٠) .

---

(٨) صحيح مسلم ج ٤ ص ٤٥ ـ « باب فضل الرفق » .
(٩) سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٤٠٠ ـ « باب الحلم » .
(١٠) صحيح مسـلم ج ٤ ص ١٨٠٤ « باب كان رسول الله ﷺ احسن الناس خلقا » .

وعن أنس رضى الله عنه أيضا : كنت امشى مع النبى ﷺ وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية ، فادركه اعرابى فجذبه جذبة شديدة ، حتى نظرت الى صفحة عاتق النبى ﷺ وقد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته ، ثم قال : يا محمد مر لى من مال الله الذى عندك . فالتفت اليه رسول الله وضحك ، ثم امر له بعطاء »(١١) .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه - قال : قام اعرابى فبال فى المسجد فتناوله الناس ، فقال لهم النبى ﷺ دعوه ، وهريقوا على بوله سجلا من ماء ، او ذنوبا من ماء ، فانما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين »(١٢) .

أجل تلك عظمة النفس الانسانية عندما تسمو على أخطاء الناس ، فتترفق وتلتمس الأعذار ، ويكون لها من روعة التسامح والتغاضى ما يقيل العثرات ويصفح عن التجاوزات .

ومن قصص العفو والتسامح التى لا مثيل لها بين الناس عفو رسول الله ﷺ عن زعيم المنافقين عبد الله بن أبى ، فان عبد الله هذا كان عدوا لدودا للمسلمين ، يتربص بهم الدوائر ، ويحالف عليهم الشيطان ، ويحيك لهم المؤامرات ، ولا يجد فرصة للطعن عليهم والنيل من نبيهم الا انتهزها .

وهو الذى أشاع قالة السوء عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ،

---

(١١) صحيح البخارى ج ٤ ص ٦٠ - « باب ما كان النبى ﷺ يعطى المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه » .
(١٢) صحيح البخارى ج١ ص ٦١ - « باب ترك النبى ﷺ والناس الأعرابي حتي فرغ من بوله في المسجد » .

وجعل المرجفين يتهامسون بالافك حولها ، ويهزون أركان المجتمع الاسلامى هزا بهذا الاتهـام الدنىء(١٣) .

وكان حـز الألم قاسيا فى نفس الرسول والصـحابة ، وكانت الغضاضة من هـذا التلفيق الجـرىء تمـلأ نفوسهم كآبة وغمـا ، حتى نزلت الآيات القـرآنية آخـر الأمـر تكشف مكـر المنـافقين ، وتفضح ما اجترحوا ، وتنوه بطهـر أم المؤمنـين ، ونقـاء صفحتها « ان الذين جـاءوا بالافـك عصـبة منـكم لا تحسـبوه شـرا لـكم بل هـو خـير لـكم لـكل امـرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذى تولى كبـره منهم له عذاب عظيم »(١٤)

ومرض عبد الله بن أبى ومات فى ذى القعدة بعد الانصراف من تبوك ، بعد ما ملأت رائحـة نفـاقه كل فج وجاء ولده الى رسول الله ﷺ يطلب منه الصفح عن أبيه فصفح ، وطلب منه أن يكفن فى قميصـه فمنحـه اياه ، ثم طلب منه أن يصـلى عليـه ويستغفـر له فلم يرد له الرسـول الرقيـق هذا السـؤال ، بل وقف أمام جثمان الطاعن فى عرضـه بالأمس يستدر له المغفـرة(١٥) لكن العدالة العليا حسمت الأمر فنزل قوله تعالى :

« استغفـر لهم أو لا تستغفـر لهم ان تستغفـر لهم سبعين مـرة فلن يغفرالله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لايهدىالقوم الفاسقين»(١٦)

ثم نزل قوله تعالى : « ولا تصـل على احد منهم مات أبدا »(١٧) .

---

(١٣) عن حديث الافك كما روته السيدة عائشة رضى الله عنها أنظـر البخارى : الجامع الصحيح ـ ج ٥ ص ٥٥ ـ ٦٠ ـ « باب حديث الافـك » .

(١٤) سـورة النـور : آية ١١ .

(١٥) أنظر صحيح البخارى ج ٢ ص ٧٦ ـ « باب الكفن فى القميص الذى يكف أو لا يكف » .

(١٦) سـورة التـوبة : آية ٨٠ .

(١٧) سـورة التـوبة : آية ٨٤ .

ومما يتصل بحادثة الافك أن قريبا لابى بكر كان يعيش على احسانه هو مسطح بن اثاثة ، لم يتورع عن الخوض فى عرض السيدة عائشة والتى يكفله ابوها ، فنسى بذلك حق الاسلام ، وحق القرابة ، وحق الصنيع القديم ، مما احفظ أبا بكر وجعله يحلف ان يترك قريبه هذا ولا يصله كما كان يصله .

فنزل قوله تعالى : « ولا يأتل اولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا اولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا الا تحبون ان يغفر الله لكم والله غفور رحيم »(١٨) .

فعاد ابو بكر رضى الله عنه بعطائه الاول قائلا : والله انى لاحب أن يغفر الله لى(١٩) .

وعن معاوية بن الحكم قال : بينا انا اصلى مع رسول الله ﷺ ، اذ عطس رجل من القوم ، فقلت : يرحمك الله ـ فرمانى القوم بابصارهم فقلت : واثكل امياه ما شانكم تنظرون الى ؟ .

فجعلوا يضربون بأيديهم على افخاذهم ، فلما رأيتهم يصمتوننى لكنى سكت فلما صلى رسول الله ﷺ ، فبابى هو وأمى ، ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه ، فوالله ما كهرنى ، ولا ضربنى ، ولا شتمنى ، قال : « ان هذه الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس ، انما هو التسبيح والتكبير ، وقراءة القرآن »(٢٠) .

---

(١٨) سورة النور : آية ٢٢ .
(١٩) أنظر صحيح البخارى ج ٥ ص ٦٠ ـ « باب حديث الافك » .
(٢٠) صحيح مسلم ج ١ ص ٣٨١ ، ٣٨٢ ـ « باب تحريم الكلام فى الصلاة ونسخ ما كان من اباحته » .

ان عظمة منهج الاسلام : انه تيقظ لكل ما يؤدى الى الجفاء والخلاف ، والتقاطع والتدابر بين المسلمين ، فنهى عن كل ما يؤدى الى ذلك كله ....

فاذا ما وقع الخطأ ، أو حدث التجاوز ، طالب الاسلام بالعفو والتسامح ، والحلم والرفق ، فكل بنى آدم ، خطاء ، وخير الخطائين التوابون .

قال ﷺ : « لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله اخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث »(٢١) .

وكان لكل هذه التوجيهات الأثر عند المسلمين ، فعاش المجتمع الاسلامى متسامحا ، مؤثرا دائما روح العفو على روح الانتقام ، وروح التسامح على روح القصاص .

وانعكست هذه الروح فى كل تصرف من تصرفاته ، وفى كل سلوك من سلوكه ، بل حتى فى ميدان « اقامة الحدود » كان الميل الى العفو والتسامح هو القاعدة ، فاى شبهة أو تراجع فى الاعتراف ، كان كفيلا بتغليب العفو ، وايثار السلامة ، تجاوبا مع قول الرسول ﷺ « ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فان كان له مخرج فخلوا سبيله ، فان الامام أن يخطىء فى العفو ، خير من أن يخطىء فى العقوبة »(٢٢)

وهذه حادثة وقعت لعلى بن أبى طالب يتجلى فيها فقهه فى الاسلام ، وتغليبه التسامح والعفو ـ على العقوبة واقامة الحد .

---

(٢١) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٨٣ ـ « باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر » .

(٢٢) سنن الترمذى ج ٤ ص ٣٣ ـ « باب ما جاء فى درء الحدود » .

اخــرج أبو يعلى عن ابى مطــر قال : رايت عليا رضى الله عنه أتى برجــل فقالوا : انه قد سرق جمــلا ، فقال : ما أراك سرقت ؟ قال : بلى ، قال : فلعــله شبه لك ؟ قال : بلى قد سرقت ، قال : فاذهب به يا قنبر . فشــد اصبعه وأوقد النــار وادع الجزار ليقطع ، ثم انتظر حتى أجىء .

فلما جاء قال له : أسرقت ؟ قال : لا . فتركه ، قالوا : يا امير المؤمنين لم تركتهوقد اقــر لك ؟ .

قال : آخــذه بقوله واتركه بقوله ، ثم قال على رضى الله عنه أتى رسول الله ﷺ برجل قد سرق ، فامــر فقطع يده ثم بكى ، فقلت لم تبكى ؟ قال : وكيف لا أبكى ؟ وامتى تقطع بين أظهركم .

قالوا : يا رسول الله . افلا عفوت عنــه ؟ .

قال : ذاك سلطان الســوء الذى يعفو عن الحــدود ، ولكن تعافوا الحــدود بينــكم(٢٣) .

ان روح الاسلام وفقهــه تبدو واضــحة فى هــذا التصرف ، فالتسامح وعدم الميــل الى القصــاص بنــاء على تراجع الرجــل . ملحظ دقيق فى فهم الاســلام ، الذى قال رسوله ﷺ « ادرءوا الحــدود بالشبهات » .

فاذا كان الاعتراف بابا لاقامة الحــد ، فان الانــكار هو الآخــر باب لمنــع الحــد .

وحســب الانســان ان يتيقظ فيــه الضمير الذى يحاسبه ويؤرقه ، ليعود الى ربه نادما مستغفــرا ، وهنــاك سيجد من لطف الله وفضــله ما يغفــر الزلات ، ويقيــل العثرات ، ويبــدل السيئات بالحسنات ، بشرط ان يؤدى حقوق النــاس ، ويطلب المغفــرة من رب المغفــرة .

---

(٢٣) محمد يوسف الكاندهلوى : حياة الصحابة ج ٢ ص ٤١٠ ــ دار الشهــاء

ولذلك كان أصحاب رسول الله ﷺ يعــاملون المخطىء أو المذنب بفقه الاسلام ، الذى يرى أن الانســان ربما ذلت قدماه فى لحظة من لحظــات الضعف ، فلا ينبغى له أن يقنط من رحمــة الله ، ولا ينبغى للآخــرين أن يقفوا بينــه وبين الله ، فيسبوه او يحقــروه ، وانما عليهم أن يبغضوا الذنب ، ولا يبغضــوا المذنب وأن يســألوا الله العفو والعــافية فى الدين والدنيــا والآخــرة .

روى أن أبا الدرداء رضى الله عنه مــر على رجــل قد أصــاب ذنبا ، فكانوا يسبونه .

فقال أرأيتم لو وجدتموه فى قليب ألم تكونوا مستخرجيه ؟ .

قالوا : بلى ، قال : فلا تسبوا أخاكم واحمــدوا الله الذى عافاكم .

قالوا : أفلا تبغضــه ؟ .

قال : انما أبغض عمــله فاذا تركه فهو أخى(٢٤) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : اذا رأيتم أخــاكم قــارف ذنبا ، فلا تكونوا أعوانا للشيطان عليه ، تقولوا : اللهم اخــزه ـ اللهم العنه ـ ولكن ســلوا الله العــافية .

فانا أصحاب محــد ﷺ كنا لا نقول فى أحــد شيئا حتى نعــلم علام يموت ، فان ختم له بخيــر علمنــا أنه قــد أصــاب خيــرا ، وان ختم له بشر خفنــا عليــه(٢٥) .

أجــل انها رقــة الاســلام ، وحقيقة الاخــوة التى تجعل المسلم يحب لأخيه ما يحب لنفســه ، كما أمــر بذلك رسول الله ﷺ .

---

(٢٤) الكاندهلوى : حياة الصحابة ج ٢ ص ٤١٣ .
(٢٥) الكاندهلوى : المرجع السابق نفس الصفحة .

(ب) نظرة المسلمين الى الدنيا :

ومما قوى روح التسامح عند المسلمين نظرتهم الى هذه الدنيا ، ذلك أن المسلم لا ينظر الى هذه الدنيا باعتبارها غاية آماله ، ومنتهى رجائه ، وانما ينظر اليها على انها مطية للآخرة ، وأن الآخرة هى الغاية الاسمى ، والمقصد الاهم الذى يستعد له ويعمل من أجله ·

ومن ثم فهو يعيش فى هذه الدنيا متعلقا بالآخرة ، مؤمنا بها ، متأكدا من انها دار الجزاء والحساب ، والثواب والعقاب ، وان عمله فى الدنيا هو الذى يحدد مصيره فى الآخرة قال تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون »(٢٦) ·

وقال : « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير · الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم احسن عملا وهو العزيز الغفور »(٢٧) ·

نعم ان الله تعالى جعل العمل رسالة الوجود ، ووظيفة الاحياء ، وجعل السباق فى احسانه سر الخليقة ، ودعامة الحساب ·

ان الاسلام يعقد صلة وثيقة بين فعل الخير فى الدنيا ، وما يعقبه من سعادة فى الآخرة ، كما يعقد الصلة نفسها بين اقتراف الشرور واستحقاق العذاب الأليم ·

قال تعالى : « ان الله لا يصلح عمل المفسدين · ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون »(٢٨) ، وقال « ان الذين آمنوا وعملوا

---

(٢٦) سورة التوبة : آية ١٠٥ ·
(٢٧) سورة الملك الآيات : ١ ، ٢ ·
(٢٨) سورة يونس : الآيات ٨١ ، ٨٢ ·

الصالحات لهم جنات النعيم • خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم »(٢٩) •

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره • ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »(٣٠) •

وبالاضافة الى اهتمام المسلم بحسن العمل ، وفعل الخير - كان اهتمامه كذلك أن يعيش فى هذه الدنيا راضيا متسامحا ، مدركا انه اذا ضاع حقه فى هذه الدنيا - فلن يضيع فى الآخرة ، وانه ان ضاع عند الناس فلن يضيع عند الله •

ان هذه العقيدة جعلت المسلم يعيش فى هذه الدنيا ومن أكبر سماته العفو والصفح والتسامح لانه يثق انه ان فاته جزاءه العاجل - فلن يفوته جزاءه الآجل ، وان هذه الدنيا هى دار الاختبار والابتلاء ، وان الآخرة هى دار الثواب والجزاء •

قال تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين »(٣١) وقال تعالى أيضا : « والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون • ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا انفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون »(٣٢) •

اجل ان يوم القيامة هو يوم الفصل والجزاء « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه »(٣٣) ، ومن ثم فقد عاش المسلم غالبا محتسبا أمره

---

(٢٩) سورة لقمان : الآيات ٨ ، ٩ •
(٣٠) سورة الزلزلة : الآيات ٧ ، ٨ •
(٣١) سورة الانبياء : آية ٤٧ •
(٣٢) سورة الاعراف : الآيات ٨ ، ٩ •
(٣٣) سورة النبأ : آية ٤٠ •

عند ربه ، موقنا أن عدالة الله ستخط مصائر كل انسان ، وأن الجنة او النار هى جزاء أى عمل ، وذلك كله اضعف من روح الانتقام والقصاص عند المسلم لأن مظلمته لن تضيع هباء ، وانما سيلقى جزاءه عليها عند ربه .

ولا شك ان هذه العقيدة الراسخة فى نفس كل مسلم تدعم فيه روح الصفح ، والعفو ، والتسامح .

● ولا يعنى هذا ابدا قبول المسلم للظلم ، أو الرضا بالهوان والاذلال أو الرضوخ للقهر والاستبداد ، فتلك معان أخرى يرفضها الاسلام ، ولا يرضى بها ، قال تعالى : « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك ماواهم جهنم وساءت مصيرا »(٣٤) .

(د) موقف الاسلام من غير المسلمين :

ومما قوى روح التسامح كذلك عند المسلمين ـ موقف دينهم الكريم من غير المسلمين .

فقد جاء الاسلام ليجعل أساس معاملته للآخرين قائما على الرفق واللين والتسامح ، فهو لم يرغم الآخرين ارغاما على اعتناق هذا الدين ، وانما اقر « حرية التدين » وتأكد هذا فى قوله تعالى :

« وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »(٣٥)

وقال : « ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا »(٣٦) ،

---

(٣٤) سورة النساء : آية ٩٧ .
(٣٥) سورة الكهف : آية ٢٩ .
(٣٦) سورة الانسان : آية ٢٩ .

وقال : « لا اكـراه فى الدين قـد تبـين الرشـد من الغى »(٣٧) ، وفى العهـد المكى خوطب رسول الله ﷺ بقوله : « ولـو شـاء ربـك لآمـن من فى الأرض كلهم جميعـا افانت تكـره النـاس حتى يكونوا مؤمنين »(٣٨)

● بل لقد اعتبر الاسـلام انه لا يصـلح اسـلام انسـان الا اذا كان قائما عن اخـلاص صـادق ، وقناعة تامة ، دون ما اكـراه أو ضغط ؛ ولذلك كان المنـافق وهو من يدعى الاسـلام ولكنه غير صـادق فى ادعائه ـ فى الدرك الأسـفل من النـار ، قال تعالى : « ان المنـافقين فى الدرك الأسـفل من النـار »(٣٩) .

ولذلـك كانت وسـائل انتشـار الاسلام هى : الكلمـة الطيبـة ، والأسـوة الحسنة ، والاقنـاع المجـرد ...

وفى مواجهـة الاسـلام لأعـدائه ـ كان القتـال هو المرحلة الأخيرة التى كان المسلمون يلجـاون اليهـا ، بعد أن تضيق بهم السبل ، ولا يكون امامهم سـواها للدفاع عن أنفسهم ودينهم .

● فقانون الاسـلام الدائم فى مواجهة أعدائه : أن على المسلمين أن يعرضوا على أعدائهم قبل أى معركة يدخلونها : الدعوة الى الاسـلام ـ فان رفضوا عرض المسلمون عليهم دفع الجـزية ـ فان رفضوا دفع الجزية ، فلا مناص اذن من الدفاع عن النفس والدين وقتال اعداء الاسلام .

ولنستمع الى توجيهات رسول الله ﷺ لأصحابه الذين يرسلهم لقتـال اعـداء الاسـلام ليلتزموا بها قبل واثناء المعركة .

« كان رسول الله ﷺ اذا امـر أميرا على جيش أو سرية أوصـاه فى

---

(٣٧) سـورة البقـرة : آية ٢٥٦ .
(٣٨) سـورة يـونس : آية ٩٩ .
(٣٩) سـورة النسـاء : آية ١٤٥ .

خاصته بتقوى الله ، ومن معه من المسلمين خيرا ، ثم قال : اغزوا باسم الله . فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدا .

واذا لقيت عدوك من المشركين ، فادعهم الى احدى ثلاث خصال ـ او خلال ـ فايتهن ما اجابوك ، فاقبل منهم وكف عنهم :

ثم ادعهم الى الاسلام : فان اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين ، واخبرهم انهم فعلوا ذلك ، فلهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين ، فان أبوا أن يتحولوا منها فاخبرهم انهم يكونون كاعراب المسلمين ، يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ، ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء الا ان يجاهدوا مع المسلمين .

فان هم ابوا فسلهم الجزية ـ فان هم اجابوك ، فاقبل منهم وكف عنهم .

فان هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم(٤٠) .

ونود أن نلقى الأضواء على هذه المراحل الثلاث لنتعرف على سماحة الاسلام ، وتسامحه مع الآخرين .

اولا : الدعوة الى الاسلام :

الدعوة الى الاسلام هى المرحلة الاولى فى مواجهة الاعداء ، فاذا دخلوا من عرض عليهم الاسلام فى الاسلام ـ أصبحوا يعاملون معاملة المسلمين ويصبح لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين .

---

(٤٠) صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٥٧ ـ « باب تامير الامام الامراء على البعوث ووصيته اياهم بآداب الغزو وغيرها » .

ثانيا : طلب الجـــزية :

عندما يعرض المسلمون على أعدائهم الدخول فى الاسـلام فيرفضون ـ ينتقل المسلمون الى المرحلة الثانية وهى « **طلب الجـزية** » ٠

والجـزية : هى مقـدار من المـال يدفعـه كل شخص قـادر على حمـل السـلاح ٠

وهى ليست من مستحدثات الاسـلام ، بل عرفت قبل ذلك ، فقـد عـرفها اليونان ، والرومان ، والفرس ، والبيزنطيون ، وكان لكل دولة نظـام خاص فى توزيع تلـك الضريبة ، وكيفيـة جبايتهـا ، وتحـديد قيمتهـا (٤١) ٠

وقـد فـرضت الجـزية فى الاسـلام بقـول الله تعـالى : « **قـاتلوا الذين لا يؤمنـون بالله ولا باليـوم الآخـر ولا يحـرمون ما حـرم الله ورسـوله ولا يدينـون دين الحـق من الذين أوتـوا الكتـاب حتى يعطوا الجـزية عن يد وهم صـاغرون** »(٤٢) ٠

وقد أطلق على هؤلاء الذين يدفعون الجـزية « **أهـل الذمـة** » ٠

وسموا بهـذا الاسـم : لانهم دفعوا الجـزية ، فامنوا على أرواحهم واموالهم واعـراضهم ، وأصبحوا فى ذمة المسلمين ٠

---

(٤١) انظر د٠ حسن ابراهيم حسن ، د٠ على ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ٢٠١ ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٥٩ م ـ الطبعة الثانية ، د٠ بدوى عبد اللطيف عوض : النظام المـالى الاسلامى المقارن ص ٣١ ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ـ القاهرة ـ ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م ٠

(٤٢) سـورة التـوبة : آية ٢٩ ٠

من تجب عليهم الجـزية :

تجب الجزية على الرجال دون النسـاء والصبيان ... ولا تؤخذ الجـزية من المسـكين الذى يتصـدق عليـه ، ولا من اعمى لا حـرفة له ولا عمـل ، ولا من ذمى يتصـدق عليـه ، ولا من مقعد . والمقعد الزمن اذا كان لهما يسـار اخـذ منهما ، وكذلك الاعمى وان كانوا مسـاكين يتصـدق عليهم اهـل اليسـار منهم لم يؤخذ منهم .

وكذلك اهل الصوامع ان كان لهم غنى ويسـار ، وان كانوا قد صيروا ما كان لهم لمن ينفقـه على الديارات ومن فيهـا من المترهبين والقـوام ، أخـذت الجـزية منهم ، يؤخذ بها صـاحب الدير ، فان انكـر صـاحب الدير الذى ذلك الشيء فى يده وحلف على ذلك بالله وبما يحلف به مثـله من اهل دينه ما فى يده شيء من ذلك ترك ولم يؤخـذ منه شيء .

ولا تؤخـذ الجـزية من الشيخ الكبير الذى لا يستطيع العمل ولا شيء له ، وكذلك المغـلوب على عقـله لا يؤخذ منه شيء .

وليس فى مواشى اهـل الذمة من الابل ، والبقـر ، والغنم ، زكاة ، والرجـال والنسـاء فى ذلك سـواء »(٤٣) .

لمـاذا فـرضت الجـزية ؟

وهذه الجـزية التى فرضت على اهـل الكتاب من اليهود والنصارى ومشركى غير العـرب « كانت من البسـاطة بحيث لم تثقـل كاهلهم » كما اعترف بذلك المستشرقون المنصفون(٤٤) .

---

(٤٣) أبو يوسف (يعقوب بن ابراهيم ـ صاحب الامام أبى حنيفة) : كتاب الخـراج ص ١٢٢ ، ١٢٣ ـ دار المعـرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنـان .

(٤٤) توماس أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٧٧ ، ترجمة د. حسن ابراهيم حسن ، د. عبد المجيد عابدين ، اسماعيل النحـراوى ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٧٠ م .

● وقد فرضها المسلمون على أهل الذمة كدليل على حسن النية تجاه المسلمين وان أهـل الكتاب لا يضـمرون العـدوان أو الأذى للمسلمين .

وبرغم ان المبلغ الذى حدد للجـزية كان بسيطا فقد جعل الخليفـة عمـر بن الخطاب الجزية ثلاث درجـات .

الأغنيــــــاء : ويدفع الواحد منهم (٤٨ درهما) ثمانية وأربعين درهما(٤٥) .

متوسطو الحال : ويدفع الواحد منهم (٢٤ درهما) اربعة وعشرين درهمـا .

الفقـــــراء : ويدفع الواحد منهم (١٢ درهما) اثنى عشر درهما .

وربما دفعت الجـزية بالدينار ـ فكانت دينـارا ـ أو دينـارين ـ أو ثلاثة دنانير فى البـلاد التى عملتها الذهب(٤٦) .

● وكانت الجـزية ايضـا مقـابل الانتفاع بخدمات الدولة ومرافقها العـامة مع المسلمين كالقضاء والشرطة وغيرهما .

والمرافق العـامة تحتـاج الى نفقـات يدفع المسلمون قسطها الأكبر ، ويسهم أهل الكتاب بالجـزية كجـزء من تكاليف هذه المرافق(٤٧) .

● وكانت الجزية كذلك مقابل الزكاة التى يدفعها المسلمون .

ونرد على الذين يقولون ان البعض دخـل فى الاسـلام هـروبا من الجـزية بقول المستشرق أرنولد وهو يدفـع هـذه الشبهة « وعندئذ كان

---

(٤٥) أبو يوسف : الخراج ص ١٢٢ . والدرهم = ٢١ مليما تقريبا . انظر أرنولد : الدعوة الى الاسلام هامش ص ٧٨ .
(٤٦) انظر متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٧٨ .
(٤٧) د. أحمد شلبى : المجتمع الاسلامى ص ١٦٤ ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٨٠ م .

على هؤلاء الذين يتحولون الى الاسلام ، أن يؤدوا بدلا من الجزية - الصدقات الشرعية - وهى الزكاة التى كانت تفرض سنويا على معظم انواع الممتلكات المنقولة والعقارية »(٤٨) .

● وكان من اسباب دفع الجزية أيضا اعفاء أهل الذمة من الجندية .

حيث كان القادرون من اهل الكتاب لا يكلفون بحمل السلاح والدفاع عن البلاد ، بل يقوم المسلمون بذلك ، ولهذا كانت الجزية نظير اعفاء أهل الذمة من هذه المهمة(٤٩) .

وقد سجل التاريخ أن بعض أهل الكتاب قاموا بنصيبهم فى الدفاع احيانا فسقطت عنهم الجزية .

ذكر البلاذرى « لما جمع هرقل للمسلمين الجموع ، وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ، ردوا على أهل حمص ما كانوا اخذوا منهم من الخراج ، وقالوا : شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فانتم على أمركم .

فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم .

ونهض اليهود فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الا أن نغلب ونجهد ، فاغلقوا الأبواب وحرسوها .

وكذلك فعل أهل المدن التى صولحت من النصارى واليهود ، وقالوا : ان ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا الى ما كنا عليه ، والا فانا على أمرنا ما بقى للمسلمين عدد .

---

(٤٨) الدعوة الى الاسلام : ص ٧٧ ، ٧٨ .
(٤٩) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٧٧ .

فلما هزم الله الكفرة ، واظهر المسلمين ، فتحوا مدنهم ، واخرجوا المقلسين فلعبوا وأدوا الخراج »(٥٠) .

وفى هذا أيضا رد على من يقول بأن الجزية تؤخذ من أهل الذمة اذلالا لهم ، فالحق أنها جزاء أماننا لهم ، وفى مقابل حمايتهم .

الرفق بأهل الذمة :

وقد أمرت الشريعة الاسلامية بالرفق بأهل الذمة ، وعدم ظلمهم ، أو ايذائهم ، وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم ، ولا يؤخذ شىء من أموالهم الا بحق يجب عليهم ... الخ هذه التوجيهات التى تؤكد روح التسامح فى الاسلام(٥١) .

ثالثا : القتال :

اذا عرض المسلمون على أعدائهم الدخول فى الاسلام فرفضوا ، فعرضوا عليهم دفع الجزية فرفضوا .

فليس أمام المسلمين عندئذ من حيلة الا أن ينتقلوا الى المرحلة الثالثة وهى القتال .

وقد شرع الجهاد والاذن بالقتال للمسلمين لاثنتى عشرة ليلة مضت من صفر فى السنة الثانية للهجرة : للدفاع عن الحق ، وحماية الدعوة فقط، ولم يفرض عليهم(٥٢) .

---

(٥٠) فتوح البلدان : ق ١ ص ١٦٢ .

(٥١) أبو يوسف : الخراج ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٥٢) أنظر ابن القيم (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر) : زاد المعاد فى هدى خير العباد ج ٣ ص ٧٠ ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، الزرقانى (محمد بن عبد الباقى) : شرح المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للقسطلانى ج ١ ص ٤٤٨ ـ دار الطباعة ـ القاهرة ـ ١٢٩١ هـ .

فنزل قول الله تعالى : « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير • الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله »(٥٣) •

وهذه الآية هى اول ما انزل فى امر القتال ، وبعد أن جاء الاذن بالقتال نبه النبى الى ان قتاله انما هو للدفاع فقط ، وأنه لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين • واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم والفتنة اشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين • فان انتهوا فان الله غفور رحيم • وقاتلوهم حتى لا تكونوا فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين • الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين »(٥٤) •

فقوله « الذين يقاتلونكم » تعليق للحكم بانهم يقاتلوننا فدل على أن هذا علة الأمر بالقتال ـ ثم « ولا تعتدوا » •

والعدوان : مجاوزة الحد ـ فدل على أن قتال من لم يقاتلنا عدوان ـ ويدل عليه أيضا قوله بعد هذا « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » فدل على انه لا تجوز الزيادة •

---

(٥٣) سورة الحج : الآيات ٣٩ ، ٤٠ •
(٥٤) سورة البقرة : الآيات ١٩٠ ـ ١٩٤ •

ثم قال : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » ـ الفتنة تحويل المسلم عن دينه قسرا كما كان المشركون يفعلون بالمستضعفين ، ومقاتلتهم حتى تنكسر قواهم ويعجزوا عن الفتنة ، ولم يقل سبحانه قاتلوهم حتى يسلموا ٠

« ويكون الدين لله » وهذا يحصل اذا ظهرت كلمة الاسلام ، وكان حكم الله ورسوله غالبا(٥٥) :

وبذلك لم يكن الرسول ﷺ يتعرض الا لكفار قريش دون سائر العرب ٠

* فلما اتحد مشركو العرب فى عدائهم للاسلام ، وجمعهم الحقد على الرسول ، والبغض لدينه أمر الله بقتال المشركين كافة(٥٦) بقوله تعالى « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلوكم كافة »(٥٧) ٠

* ولما نقض ـ يهودالمدينة ـ العهد الذى أخذه الرسول ﷺ عليهم ، وانضموا الى مشركى قريش لقتاله ﷺ ـ نزل قوله تعالى « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين »(٥٨) ٠

* وان الناظر لآيات القتال بصفة عامة فى القرآن الكريم ـ يرى أن القتال فى الاسلام لم يعرض الا لسببين اثنين :

- الدفاع عن النفس ٠
- وتامين الدعوة واستقرار الدولة ٠

---

(٥٥) أنظر محمد الغزالى : مائة سؤال عن الاسلام ج ١ ص ١٠٨ ٠
(٥٦) أنظر الزرقانى : شرح المواهب ج ١ ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ ٠
(٥٧) سورة التوبة : آية ٣٦ ٠
(٥٨) سورة الأنفال : آية ٥٨ ٠

وهكذا يكون الجهاد الذى شرعه الاسلام ، وخاض المسلمون معاركه ـ أشرف أنواع الجهاد وأقدسها ، لأنه جهاد الدفاع عن الحق والنفس ، ولأنه جهاد الظالمين الطغاة .

ومن هنا فان ما يردده أعداء الاسلام قديما وحديثا ، ان الاسلام انتشر بحد السيف دعوى باطلة ، لا تقوم على بحث منصف ، ونظرة متأنية عادلة بل ان الحقيقة الواضحة هى : **أن الاسلام انتصر على السيف** .

ان الاستدلال العلمى ، والاستقراء التاريخى للحروب التى اشتبك فيها الاسلام على عهد رسول الله ﷺ ـ أثبتت أنها كانت فريضة **لحماية الحق ، ورد المظالم ، ومنع الفتنة ، وقمع الطغاة ، وكسر الجبابرة** .

وان المعارك التى يبدو ظاهرها الهجوم لم يكن الهجوم فيها الا على سبيل المبادرة بالدفاع ـ بعد التأكد من نكث العهد ، ونية الاضرار على قتال المسلمين ، وهو ما يسمى فى لغة العصر **« الدفاع الوقائى »** .

- أجل ان الاسلام يكره القتال ، والعنف ، ولكن القتال فى الاسلام ضرورة لحماية الحق ،والوقوف فى وجه المعتدين ، فهو قتال أكره المسلمون عليه اكراها لنصر الحق ، والقضاء على الباطل حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله وهذه المعانى نلمسها فى قول الله تعالى : **« كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون »**(٥٩) .

---

(٥٩) سورة البقرة : آية ٢١٦ .

وكان الرسول ﷺ يخاطب اصحابه قائلا : « يا أيها النــاس ، لا تتمنوا لقــاء العــدو ، واســألوا الله العــافية ، فاذا لقيتمــوهم فاصبروا ، واعلمــوا أن الجنــة تحت ظــلال السيوف »(٦٠) ٠

● ولو أن النــاس تركوا المسلمين فى دعــة واطمئنــان ، ولم يحاجزوا بينهم وبين دعــوتهم بالحــق ، ما تعــرض المؤمنون لأحد لألا يكون اعتــداء والله لايحب المعتــدين ٠

فما كانت الحــرب لاكــراه ، وما كانت لحمــل على الدين ، ولو كان الاســلام هو الدين الحــق ٠

● ولقد أمــر الله بعــدم التعــرض لمن يســالمون المؤمنين ، قال تعالى : « فــان اعتزلوكم فلم يقــاتلوكم والقــوا اليــكم السـلم فما جعــل الله لــكم عليهم ســبيلا »(٦١) ٠

« يا أيها الذين آمنــوا اذا ضــربتم فى ســبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى اليــكم الســلام لست مؤمنــا تبتغــون عــرض الحيــاة الدنيا فعنــد الله مغــانم كثيــرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليــكم فتبينوا ان الله كان بمــا تعمــلون خبيــرا »(٦٢) ٠

● فاذا ما وقعت الحــرب ، واصبحت حتمية لا مناص منها ، فان هناك آدابا وتوجيهات كثيرة أمــر الاســلام ــ المسلمين ــ أن يلتزموا بها ٠ ونشــير الى بعضها فيما يلى :

---

(٦٠) صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٦٢ ــ « باب كراهة تمنى لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقــاء » ٠
(٦١) ســورة النســاء : آية ٩٠ ٠
(٦٢) ســورة النســاء : آية ٩٤ ٠

آداب الاسلام فى القتال :

هنـاك آداب كثيرة أمـر بها الاسـلام ، وحث رسول الله ﷺ المسلمين لكى يلتزموا بها فى قتالهم ، وهى كلها آداب تعكس أخـلاق الاسـلام وقيمه الرفيعة فى التسـامح والنبل والانسانية .

من ذلك ما كان يوصى به رسول الله ﷺ من يرسلهم للقتال فيقول لهم « قاتلوا من كفـر بالله ، اغـزوا ولا تغـلوا ، ولا تغـدروا ، ولا تمثـلوا ولا تقتـلوا وليـدا »(٦٣) .

فالاسـلام ينهى عن الغـلول ومعنـاه : الخيـانة فى الغنـم وعن ابى هريرة رضى الله عنـه قال : قام فينـا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكـر الغلول فعظمه وعظم أمـره(٦٤) ...

وينهى عن الغـدر - أى نقض العهـد ويقول الرسول فى حـديث آخـر « اذا جمـع الله الاولين والآخـرين يوم القيـامة ، يرفـع لكل غادر لواء ، فقيـل : هذه غـدرة فـلان بن فلان »(٦٥) .

وينهى عن المثـلة - أى تشويه القتلى بقطـع الانوف والآذان مثلا .

عن عمران بن حصين قال : « كان رسول الله ﷺ يحثنـا على الصدقة، وينهانا عن المثـلة »(٦٦) .

---

(٦٣) صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٥٧ - « باب تامير الامام الأمـراء على البعوث ووصيته اياهم بآداب الغزو وغيرها » .
(٦٤) صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٦١ - « باب غلظ تحريم الغلول » .
(٦٥) صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٥٩ - « باب تحريم الغدر » .
(٦٦) سنن أبي داود ج ٣ ص ٥٣ - « باب فى النهى عن المثلة » .

وينهى عن قتال من لا يشترك فى القتال مثل الشيوخ الذين لا يشتركون فى المعركة بالسلاح أو بالرأى ، والعمال والاجراء ، ومثل النساء والصبيان ... عن ابن عمر قال : « وجدت امرأة مقتولة فى بعض المغازى ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان»(٦٧) .

كما نهى عن التعذيب أو احراق العدو بالنار :

عن محمد بن حمزة الأسلمى عن ابيه ان رسول الله ﷺ امره على سرية . قال : فخرجت فيها وقال : « ان وجدتم فلانا فاحرقوه بالنار » فوليت فنادانى فرجعت اليه فقال : « ان وجدتم فلانا فاقتلوه ، ولا تحرقوه ، فانه لا يعذب بالنار الا رب النار »(٦٨) .

ونهى الاسلام عن التخريب ، وأمر بدفن قتلى العدو حتى لا يتركوهم نهبا للوحوش أو الطير ، وأمر بالمحافظة على العهد والوفاء به ... الخ هذه الآداب الراقية ، والتوجيهات الرشيدة التى تؤكد سمو الاسلام وعظمة تعاليمه .

* والحقيقة التى نود أن نؤكد عليها ـ أننا عندما نمعن النظر ، ونطيل التفكير فى تاريخ الاسلام ـ نجد أن الأعمال العسكرية لم تنشر الاسلام أبدا ، وانما مهدت له الطريق ، أو فتحت الباب أمامه ، بعد أن أزاحت من طريقه تلك القوى الطاغية الباغية التى كانت تقف فى وجهه ، وتناصبه العداء وتحول بين الناس وبين الدخول فيه بالقوة والقهر .

---

(٦٧) صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٦٤ ـ « باب تحريم قتل النساء والصبيان فى الحرب » .

(٦٨) سنن أبى داود ج ٣ ص ٥٤ ، ٥٥ ـ « باب فى كراهية حرق العدو بالنار » .

فجاءت تلك الأعمال العسكرية لتتيح للمسلمين فرصة عرض الدين ، ولتتيح للناس فرصة التفكير فى هذا الدين دون ارهاب أو عنف ، ثم يكون بعد ذلك ما يقرره كل انسان بقناعته ، ووفق ارادته الحرة ، واختياره المجرد .

- هذا هو موقف الاسلام من غير المسلمين عموما ـ وهو موقف يتسم بالرفق واللين والتسامح الذى لا نظير له ...

- اما موقف الاسلام من اتباع الديانات السماوية السابقة خصوصا ـ فقد بلغ درجة من التسامح واللين ـ كان ينبغى على أتباع الديانات السماوية السادقة من اليهود والنصارى أن يقدروها ، وأن يستوعبوا دلالاتها ومراميها .

ولو انهم استوعبوا ذلك وكانوا صادقين مع انفسهم ومع دينهم ـ لدخلوا فى الاسلام .

ـ او على الأقل لتعاملوا مع المسلمين بنفس روح الود والتسامح التى عاملهم المسلمون بها ، ولكان من الممكن ان يتغير وجه التاريخ كله .

ولكن العلاقات للأسف سارت فى اتجاه آخر غير ما كان يريده الاسلام ، وينشده المسلمون ...

وبرغم روح التعصب ، وعدم الانصاف التى لاقاها المسلمون غالبا فى معاملاتهم مع غيرهم عبر عصور التاريخ ـ فقد ظل المسلمون عبر عصورهم محتفظين بسماحتهم وتسامحهم ـ مما جعل ذلك خصيصة من خصائصهم ، وسمة واضحة من سمات حضارتهم .

وهذا ما نود أن نلقى عليه المزيد من الأضواء فى الصفحات التالية .

نظرة الاسلام الى الديانات السماوية السابقة :

كانت نظـرة الاســلام الى الديانات السماوية الســابقة قائمة على المـودة والســماحة ·

حيث أمــر الاســلام المســلمين بالايمــان بـكل نبى ارسـله الله ، وكل كتــاب أنزله على رسـول من رسـله الســابقين ·

وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى : « والذين يؤمنــون بما انزل اليـك وما أنزل من قبـلك وبالآخـرة هم يوقنــون · اولئـك على هــدى من ربهم وأولئـك هم المفلحــون »(٦٩) ·

« آمن الرسول بما أنــزل اليــه من ربه والمؤمنــون كل آمن بالله وملائـكته وكتبــه ورسـله لا نفـرق بين أحــد من رسـله وقالوا ســمعنا واطعنــا غفــرانك ربنــا واليـك المصير »(٧٠) ·

« قـولوا آمنــا بالله وما أنزل الينــا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقـوب والأسـباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيــون من ربهم لا نفـرق بين أحــد منهم ونحن له مســلمون »(٧١) ·

« ان الذين يكفــرون بالله ورسـله ويريدون ان يفــرقوا بين الله ورسله ويقــولون نؤمن ببعض ونكفــر ببعض ويريدون أن يتخــذوا بين ذلــك ســبيلا · اولئــك هــم الكافــرون حقــا واعتــدنا للكافــرين عــذابا مهينــا »(٧٢) ·

---

(٦٩) ســورة البقــرة : الآيات ٤ ، ٥ ·
(٧٠) ســورة البقــرة : آية ٢٨٥ ·
(٧١) ســورة البقــرة : آية ١٣٦ ·
(٧٢) ســورة النســاء : آية ١٥٠ ، ١٥١ ·

« الذين كذبوا بالكتاب وبما ارسلنا به رسلنا فسوف يعلمون . اذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يسجرون »(٧٣) .

* كما ورد فى القرآن الكريم أكثر من حديث عن الكتب السماوية . ووصفت التوراة بالهدى والنور « انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور »(٧٤) .

والهدى والرحمة : « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون »(٧٥) .

والفرقان والضياء : « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين »(٧٦) .

كما وصف الانجيل بالهدى والنور والموعظة « وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين »(٧٧) .

وهكذا كانت نظرة الاسلام الى الديانات السماوية السابقة نظره قائمة على المودة والتسامح فهو يرى أن الأنبياء جميعا يأخذون من مشكاة واحدة ، ويدعون الى اله واحد .

فدين الله فى حقيقة الأمر هو بنيان واحد ، عملت فيه أيدى الأنبياء جميعا ، وما أدق تعبير رسولنا محمد ﷺ وهو يعبر عن هذا

---

(٧٣) سورة غافر : الآيات ٧٠ ـ ٧٢ .
(٧٤) سورة المائدة : آية ٤٤ .
(٧٥) سورة القصص : آية ٤٣ .
(٧٦) سورة الانبياء : آية ٤٨ .
(٧٧) سورة المائدة : آية ٤٦ .

المعنى فيقول : « ان مثلى ومثل الانبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فحسنه وجمله الا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يلفون به ، ويعجبون له ويقولون :

هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فانا اللبنة وانا خاتم النبيين »(٧٨) .

ولم يقتصر الاسلام على هذه النظرة الودية والمتسامحة تجاه الديانات السماوية الأخرى ، وانما جاءت توجيهاته واضحة صريحة فى الحض على معاملة أهل الذمة معاملة طيبة ويتضح ذلك فيما يلى :

توجيهات الاسلام فى معاملة أهل الذمة :

أن توجيهات الاسلام فيما يتصل بأهل الذمة لم تقتصر فقط على تلك النظرة المتسامحة ازاء الأنبياء الذين أرسلوا ، والكتب التى أنزلت عليهم كما ذكرنا .

وانما جاءت توجيهات الاسلام لتدعوا المسلمين الى الاحسان الى أهل الذمة ومعاملتهم معاملة طيبة قائمة على الانصاف والعدل ، قال تعالى : « لا ينهاكم الله عند الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين . انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون »(٧٩) .

ويقول الرسول ﷺ « من ظلم معاهدا ، أو انتقصه حقه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس ، فانا حجيجه يوم القيامة » .

---

(٧٨) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٧٩٠ ـ « باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين » .
(٧٩) سورة الممتحنة : الآيات ٨ ، ٩ .

كما إباح الاسلام للمسلمين أن يؤاكلوا أهل الذمة — بل وان يصاهروهم ، ولا شك أن ذلك قمة التسامح والمودة ، حيث سمح الاسلام للمسلم وغير المسلم أن يجمعهما بيت واحد وطعام واحد .

قال تعالى : « وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم » ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتموهن اجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى اخدان ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين »(٨٠) .

كما امر الاسلام بان تكون وسيلة المسلمين مع اليهود والنصارى — رغم انحرافهم بالعقيدة — هى الاقناع ، والدعوة بالحكمة ، والموعظة الطيبة ، والمجادلة بالتى هى أحسن .

قال تعالى : « ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتى هى احسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذىانزلالينا وانزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون »(٨١) .

ويقول : « فلذلك فادع واستقم كما امرت ولا تتبع اهواءهم وقل آمنت بما انزل الله من كتاب وامرت لاعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير »(٨٢) .

وامر الاسلام بحسن الصحبة — فقد يدخل الابن الاسلام مثلا ويظل والداه على غير الاسلام — وهنا يدعو الاسلام — الابن — أن

---

(٨٠) سورة المائدة : آية ٥ .
(٨١) سورة العنكبوت : آية ٤٦ .
(٨٢) سورة الشورى : آية ١٥ .

يظل على علاقته الطيبة بوالديه رغم اختلاف الدين قال تعالى :
« وان جاهداك على ان تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا »(٨٣) .

ومن تسامح الاسلام مع أهل الكتاب الذين يعيشون فى بلاد اسلامية ، أنه أباح لهم ما اباحته لهم اديانهم ، وان حرمها الاسلام على المسلمين فليس هناك من حرج على أهل الكتاب أن يشربوا الخمر - او يأكلوا لحم الخنزير وليس للمسلمين ان يمنعوهم من ذلك(٨٤) .

معاملة الرسول لأهل الذمة :

كان رسول الله ﷺ بين اصحابه مثلا اعلى فى التسامح مع اهل الذمة ، وقد اكد رسول الله ﷺ ذلك ذلك بسيرته وسلوكه قبل أن يؤكده باوامره وتوجيهاته .

وتتضح روح التسامح بصورة واضحة جلية فى تلك المعاهدات التى عقدها مع النصارى واليهود بعد ان تمكن منهم ناسيا تاريخهم الطويل فى الكيد والعداء للاسلام .

فبالنسبة لنصارى نجران مثلا عقد الرسول معهم عهدا بلغ قمة التسامح والانصاف ، حيث لم يفرض فيه سوى جزية عينية متواضعة ... وقد جاء فيه :

« ... ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم وصلواتهم ، لا يغيروا اسقفا عن اسقفيته ، ولا راهبا عن رهبانيته ، ولا واقفا عن وقفانيته ، وكل ما تحت ايديهم من قليل أو كثير وليس

---

(٨٣) سورة لقمان : آية ١٥ .
(٨٤) د. أحمد شلبى : المجتمع الاسلامي ص ١٦٢ .

ربا ولا دم جاهلية ، ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين لنجران ، ومن أكل ربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة ، ولا يؤاخذ احد منهم بظلم آخر ، وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة النبى ابدا حتى ياتى الله بامره ان نصحوا واصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم »(٨٥) ٠

وذكر البلاذرى ان يهود نجران دخلوا ايضا فى هذا الصلح(٨٦)

وهكذا عاملهم الرسول ﷺ بتسامح فذ ، فقد اعطاهم الأمان الكامل على انفسهم ، ودينهم ، وارضهم ، واموالهم ، وبيعهم — يشمل هذا غائبهم وحاضرهم ٠

كما منحهم الحرية الكاملة فى اختيار اساقفتهم ورهبانييهم لا يتدخل المسلمون فى ذلك ٠

كما اقام فيهم العدل والانصاف وانه لا يؤاخذ أحدا بذنب الآخر ٠٠٠

فهل نجد صورة للعدل والرفق والتسامح انصع او اكثر اشراقا من هذا ؟ ؟

حقا انها روح الاسلام التى تعفو وتصفح ، وتعدل وتنصف ٠٠٠

وبالنسبة لليهود نشير ايضا الى هذا العهد الذى عقده الرسول ﷺ مع بنى جنبة — وهم يهود بمقنا — القريبة من ايلة يقول فيه :

---

(٨٥) ابن سعد (محمد بن سعد — كاتب الواقدى) : الطبقات الكبرى ج ١ قسم ٢ ص ٣٦ — دار التحرير — القاهرة — ١٣٨٨ هـ / نوفمبر ١٩٦٨ م ، البلاذرى : فتوح البلدان ق ١ ص ٧٧ ، ٧٨ ؛
(٨٦) فتوح البلدان — ق ١ ص ٧٨ ٠

« أما بعد فقد نزل على ايتكم راجعين الى قريتكم ، فاذا جاءكم كتابى هذا فانكم آمنون ، لكم ذمة الله وذمة رسوله ، وان رسول الله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم ، وان لكم ذمة الله وذمة رسوله لا ظلم عليكم ولا عدى ، وان رسول الله جاركم مما منع منه نفسه » .

ثم وضح لهم ما ينبغى عليهم أن يدفعوه للمسلمين ... ويعقب ذلك بقوله :

« ... وانكم برئتم بعد من كل جزية أو سخرة ، فان سمعتم وأطعتم فان على رسول الله أن يكرم كريمكم ، ويعفوا عن مسيئكم ... وأن ليس عليكم أمير الا من انفسكم او من اهل رسول الله ... »(٨٧) .

وكتب لجماعة أخرى من اليهود وهم (بنو غاديا) « أن لهم الذمة ، وعليهم الجزية ، ولا عداء ولا جلاء »(٨٨) .

وكتب كذلك لبنى عريض كتابا آخر يحدد فيه ما ينبغى عليهم أن يدفعوه للمسلمين لقاء حمايتهم لهم وعدم ظلمهم(٨٩) .

كما كتب رسول الله ﷺ لأهل جربا واذرح كتابا يقول فيه : « هذا كتاب من محمد النبى لأهل جربا واذرح : انهم آمنون بامان الله وامان محمد ، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل عليهم »(٩٠) .

● وهكذا جاءت هذه المعاهدات كلها لتحدد ما ينبغى على اليهود أن يدفعوه للمسلمين من جزية ، وعندئذ يعاملهم المسلمون

---

(٨٧) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ ق ٢ ص ٢٨ .
(٨٨) ابن سعد : المصدر السابق ص ٢٩ .
(٨٩) ابن سعد : نفس المصدر ص ٢٩ ، ٣٠ .
(٩٠) ابن سعد : نفس المصدر ص ٣٧ ، ٣٨ .

باقصى حـدود الرفـق والعـدل والتسـامح ، فتعطى حـريتهم كامـلة فى البقـاء على دينهم ، وتوفير الأمـان والحمـاية من المسلمين لهم ، وعدم الظـلم أو العـدوان ، والعفـو عن المسىء والمذنب منهم ، وعـدم التدخل فى حيـاتهم الخاصـة ...

وهكذا ضرب رسول الله ﷺ اروع الأمثـال فى العـدل والتسـامح فى معـاملة أهـل الكتـاب .

وقد روى أنه كان يحضـر ولائمهم ، ويعـود مرضـاهم ، ويشـيع جنـازاتهم ، ويزورهم ويكـرمهم .

وروى انه لـما زاره وفـد نصـارى نجـران فـرش لهم عبـاءته واجلسهم عليهـا .

وكان يقترض من أهـل الكتـاب نقـودا ، ويرهن عندهم أمتعته - حتى انه توفى ودرعه مرهون عن بعض يهود المدينـة فى دين عليـه ، وكان يفعـل ذلك لا عجـزا من اصحابه عن اقراضـه اذ كان منهم الموسرون الذين هم مستعدون لأن يضحوا بانفسهم وأموالهم فى مرضـاة نبيهم — بل كان يفعـل ذلك تعليما للمسلمين وارشـادا(٩١) .

معاملة المسلمين لأهل الذمة خلال عصر الراشدين :

وفى عصر الخلفاء الراشدين — عامل المسلمون أهـل الذمـة معـاملة كريمة طيبة كانت بحق امتدادا لـما شهده عصر النبوة .

ولأن عصر الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه (١٣ — ٢٣ هـ / ٦٣٤ — ٦٤٤ م) قد شهد فتوحات اسـلامية واسـعة فقد وضـع رضى الله عنه كثيرا من الأسس التى حكمت عـلاقة المسلمين باهل الذمة فيما بعد .

---

(٩١) انظر د. أحمد شلبى : المجتمع الاسلامى ص ١٦٢ .

لقد كان الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أعرف الحكام بطبيعة الاسلام ، وادراهم بما يكنه هذا الدين للبشر جميعا من عطف وود ، ولذلك كان مسلكه قائما على تعاليم الاسلام فى الرفق والتسامح مع أهل الذمة .

روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر على قوم قد اقيموا فى الشمس فى بعض أرض الشام . فقال : ما شأن هؤلاء ؟ فقيل له : اقيموا فى الشمس فى الجزية . قال : فكره ذلك ، ودخل على اميرهم وقال انى سمعت رسول الله ﷺ يقول «من عذب الناس عذبه الله»(٩٢) .

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بطريق الشام وهو راجع فى مسيره من الشام على قوم قد اقيموا فى الشمس يصب على رءوسهم الزيت فقال : ما بال هؤلاء ؟ فقالوا عليهم الجزية لم يؤدوها ، فهم يعذبون حتى يؤدوها .

فقال عمر : فما يقولون هم وما يعتذرون به فى الجزية ؟ . قالوا : يقولون لا نجد . قال : فدعوهم . لا تكلفوهم ما لا يطيقون ، فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تعذبوا الناس ، فان الذين يعذبون الناس فى الدنيا يعذبهم الله يوم القيامة » وامر بهم فخلى سبيلهم(٩٣) .

ومر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بباب قوم وعليه سائل يسأل : وكان شيخا كبيرا ضرير البصر ، فضرب عمر عضده من خلفه وقال له : من أى أهل الكتاب انت ؟ فقال يهودى . قال فما الجأك الى ما ارى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن . قال فاخذ عمر بيده ، وذهب به الى منزله ، فرضخ له بشىء من المنزل (أعطاه شيئا مما وجده) .

---

(٩٢) أبو يوسف : الخراج ص ١٢٥ .
(٩٣) أبو يوسف : الخراج ص ١٢٥ .

ثم أرسل الى خازن بيت المـال فقال : انظر هذا وضرباءه ، فوالله ما انصفناه ان أكلنـا شبيبته ثم نخـذله عند الهـرم « انمـا الصـدقات للفقـراء والمسـاكين » ، والفقـراء : هم المسلمون ، وهذا من المسـاكين من أهـل الكتاب ، ووضـع عنـه الجـزية وعن ضربائه(٩٤) .

ومـر عمر وهو فى أرض الشام بقوم مجذومين من النصارى ، فامـر آن يعطوا من الصـدقات ، وان يجـرى عليهم القوت بانتظام(٩٥) .

وكان فيما تكلم به عمـر بن الخطاب رضى الله عنـه عنـد وفـاته : « أوصى الخليفـة من بعـدى بذمة رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بعهـدهم ، وأن يقـاتل من ورائهم ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم(٩٦) .

ولمـا كان عصر الخلفـاء الراشدين ـ عصر فتوحات كثيرة وتوسعات هائلة ، فقد حـرص المسلمون على اعطـاء الذميين حـريتهم الدينيـة كاملة ، وعدم ارغـام احـد منهم على الدخول فى الاسـلام ، كما حرص المسلمون على اعطـائهم الأمـان لانفسـهم ، وامـوالهم ، وكنائسـهم ، وصلبانهم ... ، وان لا يضـار أحد منهم ... ما داموا يدفعون الجزية .

وهذا نص المعـاهدة التى أمضـاها الخليفـة عمـر بن الخطـاب رضى الله عنـه مع رسـل « سفـرنيوس » اسقف بيت المقـدس نقـدمها كنموذج لموقف المسلمين مع أهـل الذمة :

« بسم الله الرحمـن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمـر امـير المؤمنين أهل ايليـاء من الأمـان ، اعطـاهم أمانا لأنفسـهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسـائر ملتهـا ، أنه لا تسـكن

---

(٩٤) أبو يوسف : الخـراج ص ١٢٦ .
(٩٥) البلاذرى : فتوح البلدان ق ١ ص ١٥٣ .
(٩٦) أبو يوسف : الخـراج ص ١٢٥ .

كنائسهم ولا تهـدم ، ولا ينتقص منهـا ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضـار أحد منهم ، ولا يسكن بايليـاء معهم أحـد من اليهود .

وعلى أهـل ايليـاء أن يعطوا الجـزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخـرجوا منهـا الروم واللصوت (اللصوص) ، فمن خـرج منهم فانه آمن على نفسـه وماله حتى يبلغوا مأمنهم .

ومن أقـام منهم فهو آمن ، وعليـه مثـل ما على أهـل ايليـاء من الجـزية ، ومن أحب من أهـل ايليـاء أن يسـير بنفسـه وماله مع الروم ، ويخلى بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم .

ومن كان بهـا من أهـل الأرض مما شـاء منهم قعد ، وعليـه مثـل ما على أهـل « ايليـاء » من الجـزية ، ومن شـاء سـار مع الروم ومن شـاء رجـع الى أهــله ، وأن لا يأخـذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم .

وعلى ما فى هذا الكتاب عهـد الله وذمة رسوله ، وذمة الخلفـاء ، وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذى عليهم من الجـزية »(٩٧) .

وهذا نص آخـر للمعاهدة التى أبرمهـا خالد بن الوليد مع أهـل الحـيرة ، والذى أرسـله الخليفة عمـر بن الخطاب .

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتـاب من خالد بن الوليد لأهـل الحـيرة ، أن خليفة رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنـه أمـرنى أن أسـير بعد منصرفى من أهـل اليمامة ـ الى أهـل العـراق من العـرب والعجم بأن أدعـوهم الى الله جـل ثنـاؤه ، والى رسـوله عليـه السـلام ، وأبشرهم بالجنة ، وأنذرهم من النـار .

---

(٩٧) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٦٠٩ .

فان اجابوا فلهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين .

وانى انتهيت الى الحيرة ، فخرج الى اياس بن قبيصة الطائى فى اناس من أهل الحيرة من رؤسائهم ، وانى دعوتهم الى الله . والى رسوله .

فابوا أن يجيبوا فعرضت عليهم الجزية أو الحرب .

فقالوا : لا حاجة لنا بحربك ، ولكن صالحنا على ما صالحت عليه غيرنا من أهل الكتاب فى اعطاء الجزية .

وانى نظرت فى عدتهم فوجدت عدتهم سبعة آلاف رجل ، ثم ميزتهم فوجدت من كانت به زمانة الف رجل فاخرجتهم من العدة ، فصار من وقعت عليه الجزية ستة آلاف ، فصالحونى على ستين الفا .

وشرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذى أخذ على أهل التوراة والانجيل : أن لا يخالفوا . ولا يعينوا كافرا على مسلم من العرب ولا من العجم ، ولا يدلوهم على عورات المسلمين ، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه الذى أخذه أشد ما أخذه على نبى من عهد أو ميثاق او ذمة .

فان فتح الله علينا فهم على ذمتهم ، لهم بذلك عهد الله وميثاقه وأدوه الى المسلمين فلهم ما للمعاهد وعلينا المنع لهم .

فان فتح الله علينا فهم على ذمتهم ، لهم بذلك عهد الله وميثاقه أشد ما أخذ على نبى من عهد أو ميثاق ، وعليهم مثل ذلك لا يخالفوا .

فان غلبوا فهم فى سعة يسعهم ما وسع أهل الذمة ، ولا يحل فيما امروا به يخالفوا وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل ، أو أصابته

أفـة من الآفات ، أو كان غنيـا فافتقـر وصـار أهـل دينـه يتصـدقون عليـه طرحت جـزيته ، وعيـل من بيت مال المسلمين وعيـاله ما أقـام بدار الهجـرة ودار الاسـلام .

فان خرجوا الى غير دار الهجرة ودار الاسـلام فليس على المسلمين النفقـة على عيـالهم ، وأيما عبد من عبيـدهم أسـلم أقيم فى أسـواق المسلمين فبيـع بأعلى ما يقـدر عليهم فى غير الوكس ولا تعجيـل ودفع ثمنـه الى صـاحبه .

ولهم كل ما لبسـوا من الزى الا زى الحـرب من غير أن يتشبهـوا بالمسلمين فى لباسهم ، وأيما رجـل منهم وجـد عليه شىء من زى الحـرب سئل عن لبسـه ذلك ، فان جـاء منـه بمخـرج والا عوقب بقدر ما عليه من زى الحـرب .

وشرطت عليهم جبـاية ما صالحتهم عليـه حتى يؤدوه الى بيت مال المسلمين عمالهم منهم ، فان طلبوا عـونا من المسلمين اعينوا به ومئـونة العـون من بيت مال المسلمين(٩٨) .

ونلاحظ من صـور التسـامح والرفـق فى العهد ما يؤكد معـاملة المسلمين الكريمة لغيرهم ، والتى لا نجد لها نظيرا فى التاريخ كله .

فقـد أخـرج خالد بن الوليد الف رجـل من مجمـوع سبعة آلاف رجـل ليعفيهم من الجـزية ، كما اعفى من الجـزية من يضعف عن العمل، أو يصيب مـرض ، أو فقـر ، بل ان سـماحة المسلمين جعلت هؤلاء جميعا ومن يعولونهم فى رعاية المسلمين يعولونهم ويقدمون لهم من ألوان الرعاية ما يحفظ عليهم حياتهم بل وكرامتهم .

---

(٩٨) أبو يوسف : الخـراج ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

نعم فان أحدا لا يضيع ابدا فى المجتمع الاسلامى الصحيح حتى ولو كان غير مسلم .

فهل هناك مثالية أو انسانية اكثر من هذا أو مثلها قرانا عنها فى التاريخ ؟؟ .

لا . لا . فهذه الصورة المشرقة بالفضائل ، المتالقة بالقيم والمثل كانت تظهر فى وقت اتسم بالتعصب الشديد بعضه تجاه بعض ، بل وكله تجاه الاسلام .

كما نلاحظ فى العهد ايضا حرية لبس ازيائهم ما عدا التشبه بزى الحرب ... ، ومعاونة المسلمين لهم ان اقتضت الحاجة ذلك ... وهذا كله يعكس تسامح المسلمين ومعاملتهم الكريمة لغيرهم .

معاملة المسلمين لأهل الذمة عبر العصور المتعاقبة :

لقد وضعت اسس العلاقات التى تحكم المسلمين باهل الذمة خلال عصرى النبوة والراشدين كما اشرنا .

وهى علاقات قامت على اسس الرفق ، واللين ، والتسامح ... كما اتضح أيضا .

وظلت هذه الأسس ، وتلك المبادىء هى التى تحدد علاقات المسلمين باهل الذمة ، وتحركهم دوما الى التمسك بها .

والحق أن موقف المسلمين من أهل الذمة اخذ يتالق بالمزيد من صيغ التعامل الانسانى ، وصور العلاقات الطيبة عبر العصور .

ومع انتشار الاسلام فى كل البلاد التى فتحها المسلمون ، ظل المسلمون دوما حريصين على أن يعاملوا أهل الذمة معاملة كريمة

طيبـة ، واتاحوا لهم أن يحتـلوا مواقعهم الاجتماعية ، والاقتصـادية ، والوظيفيـة ٠ ٠ ٠ في اطار مبدأ تكافؤ الفـرص والعـدالة بما لم تعرفه أمة من الأمم عبر تاريخ البشرية كلها ٠

وهـذا موضوع يطـول فيـه الحـديث ، وتؤكده وقائع العصـور ، وحقائق التاريخ ، بمـا يملأ الصحاف ـ وهـذه بعض الاشارات التى تؤكد هذه الحقيقة ، وسوف نعتمـد فى ابرازها بصـورة رئيسية على ما قـاله المستشرقون المنصفون من باب « وشهد شـاهد من أهلهـا » وحتى لا يكون هنـاك مجـال للاتهـام بالتحيز والتعصب ، او الانسياق وراء العاطفة ٠

(أ) تمتع أهل الذمة بكثير من مناصب الدولة الاسلامية :

ان الاسـلام يقيم نظمه الاجتماعية على أسـاس الاختلاط والمشاركة ، ولا يرى حـرجا فى ان يشتغل مسـلم عنـد اهـل الكتاب او يشتغل اهل الكتاب عند مسـلم ٠

روى الطبرانى عن كعب بن عجـرة أنه اشتغل عند يهـودى فسقى له ابله كل دلو بتمـرة وأخبر النبى ﷺ بذلك فما انكر عليه شيئا ٠

ولـا فتح المسلمون الأوائل أقطـار الدنيا المعـروفة يومئذ ابقـوا الموظفين فى اعمالهم الأولى ، فلم يكرهوا احـدا منهم على إسلام ولم يفصلوا رجـلا من عمـله بكفران(٩٩) ٠

لقد فتح الطـريق امـام أهـل الذمة للوصول الى أعلى المنـاصب بدءا من الكتابة فى الدواوين وانتهـاء بمركز الوزارة الخطير نفسه ٠

---

(٩٩) محمد الغزالى : التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام ص ٥٥ ـ دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ٠

● فممن تقلد ديوان الجيش من النصارى فى الدولة العباسية مالك ابن الوليد ـ قلده اياه الخليفة المعتضد بالله (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ ـ ٩٠٢ م)(١٠٠) ٠

● كما إن الخليفة المعتمد على الله (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ / ٨٧٠ ـ ٨٩٢ م) قلد اسرائيل النصرانى أمر تنظيم الجيش(١٠١) ٠

● كما تقلد أهل الذمة منصب الولاية ففى عهد الخليفة المعتضد كان عمير بن يوسف والى الانبار مسيحيا(١٠٢) ٠

● وقد بلغ التسامح الاسلامى قمته عندما تقلد امر الوزارة بعض أهل الذمة ـ ومنهم أبو العلاء صاعد بن ثابت فى أيام الخليفة العباسى المتقى بالله (٣٢٩ ـ ٣٣٣ هـ / ٩٤٠ ـ ٩٤٤ م) وكان ابو العلاء هذا من النصارى(١٠٣) ٠

= كما ان يعقوب بن كلس وهو يهودى (ويقال انه أسلم) تولى الوزارة فى مصر للعزيز بالله الفاطمى(١٠٤) ٠

= واستوزر الخليفة العزيز بالله الفاطمى عيسى بن نسطورس النصرانى ٠

واستناب بالشام يهوديا اسمه منشا ، فاعتز بهما النصارى واليهود وآذوا المسلمين ٠

---

(١٠٠) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ج ٤ ص ١٣٨ ـ دار الهلال ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ م ٠

(١٠١) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٨٢ ، جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ج ٤ ص ١٣٨ ٠

(١٠٢) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٨٢ ٠

(١٠٣) جرجى زيدان : تاريخ التمدن ج ٤ ص ١٣٨ ٠

(١٠٤) أنظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٧ ص ٢٧ ـ ٣٥ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٣٩ ٠

فكتب أهـل مصر رقعـة وجعلوها في يد صورة عملوها من الورق ؛ واقعـدوا الصـورة في طـريق العـزيز والرقعة بيدها وفيها :

« بالذى أعـز اليهود بمنشـا ، والنصـارى بعيسى بن نسطورس ؛ واذل المسلمين بك الا كشفت ظلامتى ؟ » .

فلما رآها العزيز علم ما اريد ، فقبض على الرجلين وصادرهما (١٠٥)

= وكان نصر بن هـارون ـ وهو مسيحى ـ كبيـر وزراء عضد الدولة البويهى الذى حـكم العـراق وجنوبى فارس من سنة « ٣٣٧ ـ ٣٧١ هـ »(١٠٦) .

= وفى الاندلس اتخذ الخليفة عبد الرحمن الناصرى (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ / ٩١٢ ـ ٩٦١ م) وزيرا وسفيرا من اليهود هو حسداى بن شبروط ، كما كان منهم نفر من أهـل ثقـة ابنـه الحـكم المستنصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ/ ٩٦١ ـ ٩٧٦ م) مثـل ابراهيم بن يعقوب الطليطلي الذى كان يرسـله فى مهـام كثيرة فى أوربا(١٠٧) .

● كما كانت الترجمـة فى المجـال الثقافى من نصيبهم ، وكانت بعض الوظـائف الادارية ، والكتـابية فى المجـال الادارى من نصيبهم كذلك(١٠٨) .

● نعم لقد كثرت مناصب أهـل الذمة فى الدولة الاسـلامية ، وقد عبر عن هـذه الحقيقـة مستشرق منصف هو آدم متز عندما قال « ومن

---

(١٠٥) أنظر ابن الاثير : الكامل ج ٧ ص ١٧٦ .
(١٠٦) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٨٢ .
(١٠٧) د. حسين مؤنس : عالم الاسلام ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .
(١٠٨) أنظر جرجى زيدان : ج ٣ ص ١٧١ ـ ١٨٣ ـ تحت عنوان ـ « الكتب التى ترجمت فى النهضة العباسية » ؛

الامور التى نعجب لها كثرة عـدد العمـال والمتصرفين غير المسلمين فى الدولة الاسـلامية فكان النصـارى هم الذين يحكمون المسلمين فى بـلاد الاسـلام »(١٠٩) .

هـل رأينـا تسـامحا كهذا التسـامح ؟؟.

لا .. لا .. ان هذا لا يحـدث الا فى المجتمـع الاسـلامى ، مجتمع التسـامح والانصـاف وليت الآخـرين قابلوا هـذه الروح بروح مماثلة ، ولكن صفات الجحـود والنـكران كانت هى السمات الغـالبة للأسف فى كثير من الأحيان كما سـنرى .

(ب) تمتع أهل الذمة بمكانة اجتماعية واقتصادية طيبة :

وكما تمتع أهـل الذمة بكثير من مناصب الدولة الاسـلامية المهمـة عبر العصور المتعـاقبة ، فقد تمتعوا بمكانة اجتماعية كريمة ، ومسـتوى اقتصادى مرموق فى الدولة الاسـلامية ، وقد أتيح لهم أن يتحـركوا فى ساحات النشـاط الاقتصـادى والمـالى بحرية تكاد تكون مطلقة ، فنمـوا ثرواتهم ، وارتفعوا بمستوياتهم الاجتماعية بما يوازى قدراتهم على العمل والنشـاط ، وملأوا بهـذا وذاك مسـاحة واسـعة من ميـدان النشـاط الاقتصادى والمـالى جنبا الى جنب مع مواطنيهم المسلمين(١١٠) .

وكانت لهم قـدم راسـخة فى الصـنائع التى تدر الأرباح الوافـرة فكانوا صيارفة ، وتجـارا ، وأصحاب ضياع ، وأطباء(١١١) .

ولعلنـا لا نبالغ اذا ما قلنـا أن بعض الأنشطة المـالية والاقتصادية كادت أن تصبح من اختصاص أهل الكتاب ، فقد كان معظم الصيارفة ،

---

(١٠٩) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٨٧ .
(١١٠) د. عماد الدين خليل : ملاحظات فى تاريخ المجتمع الاسلامى ص ٤٢ .
(١١١) مـتز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٦٨ .

والجهـابذة فى الشـام مثـلا يهودا على حين كان أكثر الأطبـاء ، والكتبة نصـارى(١١٢) .

وكان رئيس النصـارى ببغداد هو طبيب الخليفـة ، كما كان للخلفاء والأمـراء الأطباء من أهل الذمـة(١١٣) .

(هـ) تسـامح عـام وشـامل :

لا شك أن الحديث يطول لو حاولنا استقصـاء الصـور المتـألقة ، والنماذج المتعددة لتسـامح المسلمين مع أهـل الذمة والمعـاملة الكريمـة التى عوملوا بها ، فقد كان تسـامحا عـاما شـاملا يمثل تيارا متدفقـا بالنبـل ، والانسـانية التى لا نظير لها فى التاريخ قديمه وحديثه ، وهذه بعض صور التسامح ينطق بها مستشرق منصف فيقول : « لم تكن الحكومة الاسـلامية تتدخل فى الشعائر الدينيـة لأهل الذمة .

بل كان يبلغ من بعض الخلفـاء أن يحضـروا مواكبهم وأعيـادهم ويامـروا بصيانتهم .

كما كان يسمح للنصـارى ببنـاء كنائس جـديدة ، وفى عام ٣٠٠هـ / ٩١٢ م ثار المسلمون فهدموا كنيسـة بنـاها النصـارى فى تنيس فأعـان السلطان النصـارى حتى بنوا الكنيسـة .

وكان أهل الذمة يعاملون فى مارستانات بغـداد معاملة المسلمين .

كما دفن المسلمون والنصـارى معـا أحيـانا ..

---

(١١٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٨٣ .
(١١٣) أنظر متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٦٨،٩٤ ، جرجى زيدان : تاريخ التمدن ج ٤ ص ١٢٨ .

ولم يكن يوجد فى المدن الاسلامية أحياء مخصصة لليهود والنصارى بحيث لا يتعدونها(١١٤) ٠

ويؤكد « متز » كذلك أن اغلب أهل الذمة انما كانوا يدفعون الحد الأدنى للجزية وكان التسامح الاسلامى الفذ يتعالى ويسمو على هذا الاحتيال والتهرب رغم ثراء أغلبيتهم يقول آدم متز : « على أن غالبية دافعى الجزية كانوا يدفعون الحد الأدنى حتى ان بنيامين يقول (ان اليهود فى كل بلاد الاسلام يدفعون دينارا واحدا) ـ وكذلك يقول بتاحيا : (ان اليهود فى العراق لا يدفعون شيئا للخليفة ، وانما يدفع الواحد منهم فى كل عام دينارا واحدا لرأس الجالوت) »(١١٥) ٠

ثم يقول : « وقد ظلت الجزية بوجه عام عند المقدار الذى فرضته الشريعة ، وانما كانت تتغير تغيرا يسيرا بحسب تغير العملة »(١١٦) ٠

وبرغم أن الجزية كانت مبلغا تافها كما ذكرنا فقد ذكر متز : « انها كانت تؤخذ مقسطة على ستة أجزاء أو خمسة أو أربعة أو ثلاثة أو اثنين »(١١٧) ٠

كما أعفى منها العجزة ، والشيوخ ، والأطفال ، والنساء ، ورجال الدين ٠٠٠ كما ذكرنا وهذا فى الواقع هو أقوى دليل على سماحة الاسلام وتسامح المسلمين ٠

وقد ساعد تسامح الاسلام على اشاعة روح الاخاء فى المجتمع الاسلامى بين المسلمين وغير المسلمين ٠

---

(١١٤) أنظر متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٦٩، ٧٠، ٧٣، ٧٤، ٧٥ ٠
(١١٥) الحضارة الاسلامية : ج ١ ص ٧٨ ٠
(١١٦) المرجع السابق ص ٧٩ ٠
(١١٧) نفس المرجع ص ٨٠ ٠

وان المطلع على كتاب « تاريخ دمشق » لابن عساكر ، أو كتاب « المواعظ والاعتبار » للمقريزى مثلا يسترعى نظره ذلك العدد الكبير من الكنائس والأديرة والهياكل الخاصة بأهل الكتاب فى دمشق والقاهرة ، والتى سمح لهم بالاحتفاظ بها ومباشرة طقوسهم فيها .

ومن بين ثنايا الكتب الكثيرة ، نخرج بفكرة واضحة عن مدى الحرية التى تمتع بها النصارى واليهود فى المدن الاسلامية في ممارسة كافة الوان النشاط الاقتصادى وغير الاقتصادى ، حتى جمعوا الثروات الطائلة ، وتقلدوا أرقى المناصب فى الدولة .

وحسبنا ما نصادفه فى المصادر من أن المسلمين وأهل الذمة فى المدينة الواحدة كانوا يتبادلون التهانى ، ويتهادون بالحلوى فى أعياد كل طائفة ... الخ هذه المظاهر الاجتماعية التى تعكس سماحة المسلمين ، وتؤكد المودة بين الفريقين غالبا(١١٨) .

اننا نؤكد بكل ثقة ويقين أن هذا التسامح العام والشامل فى كل مكان من أرض الاسلام عبر العصور المتعاقبة هو الذى أبقى أعدادا من المسيحيين واليهود فى كل بلد أسلامى .

ففيما عدا الجزيرة العربية لم يخل بلد اسلامى من جماعات كبيرة أو صغيرة من المسيحيين وأعداد أصغر من اليهود .

وفى بعض البلاد كمصر يكون السكان المسيحيون ــ وهم الأقباط ــ واحدا على أحد عشر من مجموع السكان .

وكانت نسبتهم فى الشام قريبة من ذلك قبل الحروب الصليبية ، ثم زادوا على هذه النسبة فى أثناء تلك الحروب وبعدها .

---

(١١٨) د. سعيد عاشور : الحياة الاجتماعية فى المدينة الاسلامية ص ٩٦ ، ٩٧ .

وفى الأندلس كانت نسبتهم عالية ، حتى أن أعدادهم كانت تعادل أعداد المسلمين فى بعض النواحى مثل طليطلة ولشبونة .

وفى العـراق كانت هنـاك جماعات منهم معظمهم من « النساطرة » من بقايا نصـارى الحيرة وحـران .

وكان هناك الأرمن فى شمالى العـراق ومسيحيتهم بقيـة من سيطرة الدولة البيزنطية على تلك النواحى .

وقـد اندمجت الجماعات المسيحية من أهـل البلاد الاسـلامية فى الحيـاة الاسـلامية العـامة فاستعربوا لســانا ، وفـكرا ، حتى كتبهم المقدسة ترجمت الى العـربية وبهذه اللغـة أقيمت الصـلوات فى الكنائس والمعـابد(١١٩) .

كما اندمج اليهـود فى المجتمع الاسـلامى فى بقيـة السكان ، واختلطوا بهم واستعربوا فى كل شىء .

وقد دلت مجموعات الوثائق اليهودية المعـروفة باسم « الجنيزة » . على أن يهـود البـلاد الاسـلامية كانوا بالفعـل قـد استعربوا تمـاما ، واندمجوا فى الحيـاة العـامة حولهم ، ولم يبدأ انفصـالهم عن السكان الا فى العصر الحديث فى ظـل الاسـتعمار عنـدما شعروا بأن السيادة السياسية أصبحت فى أيدى الأوربيين .

كما دلت على أن يهود البـلاد العـربية والاسـلامية ، كانوا يعيشون فى تسـامح تام ، حتى وصـلوا الى مكانة طيبـة من الغنى والجـاه ، وشغلوا الوظائف الرئيسية لا فى بلاد الاندلس وحدها بل فى كثير من

(١١٩) د. حسين مؤنس : عالم الاسلام ص ٢٥٠ ، ٢٥١ .

البلاد الاسلامية الأخرى ، ولم يصل اليهود الى مثل هذا الوضع فى أى مجتمع غير المجتمع الاسلامى فى العصور القديمة والوسطى(١٢٠)٠

وحتى لايطول بنا الحديث ، سننهى حديثنا بشهادتين لرجلين مسيحيين ، اطلعا على التاريخ ، فبهرهما ما فيه من انصاف المسلمين وتسامحهم مع أهل الذمة ، فكانت هذه العبارات التى ننقلها بالنص دون تعليق ، تاركين ما تعطيه من انطباعات ، وما تحمله من دلالات على معطيات هذا التيار المتدفق بالتسامح الاسلامى ٠

يقول فيليب حتى فى كتابه « تاريخ العرب » :

« تمتع أهل الذمة بقسط وافر من الحرية لقاء تاديتهم الجزية والخراج ، وارتبطت بالفعل قضاياهم من الأمور المدنية والجنائية القضائية برؤسائهم الروحانيين الا اذا كانت القضية تمس المسلمين ٠٠٠٠

لقد كانت ميسون زوجة معاوية نصرانية ، كما كان شاعره نصرانيا ، وكذلك كان طبيبه ، وأمير المال فى دولته » ٠٠٠

« ٠٠٠ وتقلد النصارى واليهود مناصب هامة فى دوائر المال والكتابة والمهن الحرة ، وتمتعوا فى ظل الخلافة بقسط وافر من الحرية ، ونالوا كثيرا من التساهل والعطف »(١٢١) ٠٠٠

ويقول سير توماس أرنولد فى كتابه « الدعوة الى الاسلام » تحت عنوان : « المسيحيون فى ظل الحكم الاسلامى » ما يلى :

---

(١٢٠) د٠ حسين مؤنس : المرجع السابق ص ٢٥١ ، ٢٥٢ ٠

(١٢١) انظر فيليب حتى : تاريخ العرب المطول ج ١ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ج ٢ ص ٤٣٢ - ٤٣٨ دار الكشاف - بيروت - ١٩٦٥ م - الطبعة الرابعــة ٠

« ولما كان المسيحيون يعيشون فى مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ، ناعمين بمثل هذا التسامح الذى منحهم حرية التفكير الدينى ،تمتعوا وخاصة فى المدن بحالة من الرفاهية والرخاء فى الأيام الأولى من الخلافة .

وقد توسع معاوية (٤١ - ٦٠ هـ / ٦٦١ - ٦٨٠ م) فى الحاق المسيحيين بخدمته ، وحذا حذوه فى ذلك أفراد آخرون من البيت المالك ، وطالما شغل المسيحيون مناصب عالية فى بلاط الخليفة ، مثل الاخطل وهو عربى نصرانى كان شاعرا للبلاط .

ومثل أبى القديس يوحنا الدمشقى مستشار الخليفة عبد الملك (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م) .

وكان فى خدمة الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ - ٨٤٢م) اخوان مسيحيان بلغا منزلة سامية عند أمير المؤمنين : أحدهما يدعى سلمويه ، ويظهر انه كان يشغل منصبا قريب الشبه من منصب الوزير فى العصر الحديث ، وكانت الوثائق الملكية لا تتخذ صفة التنفيذ الا بعد توقيعه عليها .

على حين عهد الى اخيه ابراهيم بحفظ خاتم الخليفة ، كما عهد اليه بخزانة بيوت الأموال فى البلاد .

وكان المنتظر من طبيعة هذه الأموال وتصريفها ان يوكل أمر الاشراف عليها الى رجل من المسلمين .

وقد بلغ من ميل الخليفة الشديد الى ابراهيم انه عاده فى مرضه الاخير ، وغمره الحزن عند وفاته ، وأنه أمر فى يوم تشييع جنازته باحضار جثمانه الى القصر حيث اقيمت له الطقوس المسيحية فى خشوع مهيب .

واختار عبد الملك عالما من مدينة الرها يدعى أثناس مؤدبا لأخيه عبد العزيز ، وقد رافق أثناس هذا تلميذه الى مصر عندما عين واليا عليها ٠

وهناك جمع ثروة طائلة ، قيل انه امتلك أربعة آلاف من العبيد ، كما ملك كثيرا من الدور والبساتين ، وكان الذهب والفضة « كأنها الحصى » ، وكان أولاده يأخذون من كل جندى دينارا عندما يتسلم راتبه ، ولما كان جيش مصر قد بلغ حينذاك ٣٠٠٠٠ (ثلاثين ألف) جندى ، فانه من الممكن أن نكون فكرة عن الثروة التى جمعها أثناس خلال الاحدى والعشرين سنة التى قضاها فى هذه البلاد ٠

وفى نهاية القرن الثامن نرى رجلا يدعى أبا نوح كاتب أبى موسى ابن مصعب والى الموصل قد استغل نفوذه القوى لمصلحة بنى جلدته من المسيحيين ٠

وفى عهد المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ - ٩٠٢ م) كان عمر ابن يوسف والى الأنبار مسيحيا ٠

وقد وافق الخليفة على تقليده هذه الولاية ، بحجة أن النصرانى فى نظره أجدر بأن يستخدم اذا وجد صالحا ، اذ أن هناك أسبابا قوية لتفضيل النصرانى على غيره من اليهود أو المسلمين أو المجوس ٠

وعهد الموفق ، وكان صاحب السلطان المطلق فى عهد أخيه المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ / ٨٧٠ - ٨٩٢ م) أمر تنظيم الجيش الى مسيحى يدعى اسرائيل ٠

واتخذ ابنه المعتضد نصرانيا آخر كاتبا له ، وهو ملك بن الوليد ٠

وفى عصر متأخر تولى فى أيام المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ - ٩٣٢ م) نصراني آخر أمر ديوان الجيش ٠

كما كان نصر بن هـارون مسيحيا ، وكان كبير وزراء عضد الدولة البويهى (٣٣٧ ـ ٣٧١ هـ / ٩٤٩ ـ ٩٨٢ م) الذى حكم العـراق وجنوبى فـارس ٠

وقد ظلت دواوين الحكومة ، وخاصـة ديوان الخـراج فترة طويلة مكتظة بالمسيحيين والفرس ، وظلت الحال فى مصر على هذا النحو حتى زمن متأخـر جدا حيث كان السـواد الأعظـم من المسيحيين يحتـكرون أمثال هذه المناصب احتـكارا يكاد يكون تاما ٠

وكثيرا ما جمـع الأطبـاء المسيحيون بوجه خاص ثروات ضـخمة ، ولقوا تكريما كبيرا فى بيوت العظماء ٠

فجبريل الذى اتخذه الخليفة هارون الرشيد طبيبـا خاصـا ، كان مسيحيا نسطوريا ، بلغ ايراده السنوى ٨٠٠٠٠٠ (ثمانمائة الف درهم ، من أمـلاكه الخاصـة ، فضـلا عن راتب قـدره (٢٨٠٠٠٠ درهم) فى السنة مقابل عنـايته بمعالجـة الخليفـة ٠

وكان الطبيب الثـانى وهـو نصرانى أيضـا يتقـاضى (٢٢٠٠٠ درهم) فى السـنة ٠

وكان المسيحيون يجمعون أمـوالا وفـيرة من احترافهم الصـناعة والتجـارة ٠

والواقع أن هـذه الثروة هى التى طالمـا اثارت طمـع الدهمـاء الذى يقوم على الحسد وهو شعور دفـع المتعصبين من المسلمين الى انتهاز هذه الفرصـة لاضطهادهم وايقـاع الظلم بهم(١٢٢) ٠

---

(١٢٢) اننا ننقـل كلام أرنولد كما هو من باب الأمانة العلمية وان كنا لا نتفق مع بعض ما يقوله ، وفي رأيي أن القضية ليست قضية حسد ، أو تعصب بقدر ما هى قضية استفزاز الأقلية وتجبرها وتجاوزاتها ٠

أضف الى ذلك أن الطوائف غير الاسلامية قد تمتعت بسلطات تكاد تكون تامة لأن الحكومة وضعت فى أيديهم التصرف فى شئونهم الداخلية تصرفا مطلقا .

وكان رؤسائهم الرومانيون يباشرون واجباتهم القضائية فى القضايا الخاصة بأبناء دينهم فحسب .

ولم يتعرض أحد لمعظم كنائسهم واديارهم الا فى المدن الكبيرة حيث تحول بعضها الى مساجد ، وهو تصرف كان من العسير أن يعترض عليه نظرا لتزايد عدد المسلمين الهائل وما كان يقابله من تناقص فى المجتمع المسيحى »(١٢٣) .

أثر التسامح الاسلامى فى نشر الاسلام :

والذى نريد ان نؤكده هنا - أن عظمة الاسلام ، وتسامح المسلمين واخلاقهم الكريمة مع غيرهم ، هذا بالاضافة الى فساد المعتقدات الأخرى أو انحرافها عن وحى الله الصحيح ... ، وما لمسته الشعوب من خير ونفع فى شرائع الاسلام ومبادئه ...

كل هذا جعل كثيرا من الناس يدخلون فى الاسلام أفواجا ، لا خوفا من سيوف المسلمين ، ولا هروبا من الجزية ... كما يزعم أعداء الاسلام ، والقاصرون الذين لم يقرأوا التاريخ أو يستوعبوا حقائقه وأحداثه .

وانما اعجابا واقتناعا بهذا الدين العظيم ، واعجابا وانبهارا بهؤلاء المسلمين الأوائل الذين كانوا نماذج متألقة ، وصور مشرقة لتعاليم الاسلام ، ومثله العليا ، وقيمه الفاضلة .

---

(١٢٣) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٨١ - ٨٣ .

ونحن هنا سنعتمد على شهادة مستشرق منصف هو السير توماس ارنولد ، فان هذا الرجل نطق بهذه الحقيقة أكثر من مرة في كتابه القيم « الدعوة الى الاسلام » فدعونا نصغ السمع لهذا الرجل وهو يتحدث عن انتشار الاسلام ، وكيف أن انتشاره كان عن اقتناع ورضا ، وليس عن طريق الاكراه أو القوة .

يقول ارنولد : « ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب ، بأن القوة لم تكن عاملا حاسما في تحويل الناس الى الاسلام ، فمحمد نفسه قد عقد حلفا مع بعض القبائل المسيحية ، وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في اقامة شعائرهم الدينية ، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم في أمن وطمأنينة »(١٢٤) .

ثم يتحدث عن أن سماحة الاسلام أعطت للمسيحيين حرية الاختيار بين البقاء على دينهم ، أو الدخول في الاسلام فليس في الأمر ضغط أو اكراه ، ويستشهد على هذه الحقيقة بأن المسيحيين ظلوا على مسيحيتهم وبين ظهرانيهم حتى العصر العباسي ، دون أن يحاول المسلمون ارغام أحد على الدخول في الاسلام ، فهذه هي شهادة التاريخ المنصف فلنستمع اليه وهو يقول :

« ان الأخبار الخاصة بزوال المسيحية من بين القبائل العربية النصرانية التي كانت تقيم في بلاد العرب الشمالية لا تزال بحاجة الى شيء من التفصيل ، والظاهر أنهم قد انتهوا الى الامتزاج بالمجتمع الاسلامي الذي كان يحيط بهم عن طريق ما يسمونه (الاندماج السلمي) الذي تم بطريقة لم يحسها أحد منهم .

---

(١٢٤) الدعوة الى الاسلام ص ٦٥ .

ولو أن المسلمين حاولوا ادخالهم فى الاسلام بالقوة عندما انضووا بادىء الأمر تحت لواء الحكم الاسلامى ، لما كان من الممكن أن يعيش المسيحيون بين ظهرانيهم حتى عصر الخلفاء العباسيين »(١٢٥) .

وبعد أن بهرته الأمثلة الكثيرة التى تؤكد تسامح المسلمين مع أهل الكتاب يقول :

« ومن هذه الأمثلة التى قدمناها آنفا عن ذلك التسامح الذى بسطه المسلمون الظافرون الى العرب المسيحيين فى القرن الأول من الهجرة ، واستمر فى الأجيال المتعاقبة ، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التى اعتنقت الاسلام ، انما فعلت ذلك عن اختيار وارادة حرة »(١٢٦) .

ثم يبين حالة العرب المسيحيين فى ظل الحكم المسيحى للدولة البيزنطية ، وكيف أن هذا الحكم السىء القائم على التعصب المقيت ، والعنف ... كان سببا من أسباب الترحيب بالمسلمين فيقول :

« ومن أجل هذا استقبلوا بالرضا ـ بل بالحماسة ـ هؤلاء السادة الجدد الذين وعدوهم بالتسامح الدينى ... »(١٢٧) .

ويتحدث عن « فتح العرب لبلاد الشام وفلسطين » ، وكيف كانت حفاوة الناس هناك باستقبال المسلمين . فكتب يقول مستشهدا بما ذكره الأزدى ، والبلاذرى : « ولما بلغ الجيش الاسلامى وادى الأردن ، وعسكر أبو عبيدة فى فحل ، كتب الأهالى المسيحيون فى هذه البلاد الى العرب يقولون « يا معشر المسلمين ، أنتم أحب الينا من الروم ، وان

---

(١٢٥) المرجع السابق ص ٦٨ .
(١٢٦) نفس المرجع ص ٦٩ ، ٧٠ .
(١٢٧) الدعوة الى الاسلام ص ٧٢ .

كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا وارأف بنا ، وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا » ـ ويتحدث عن أهل حمص فيقول :

« وغلق أهل حمص ابواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب اليهم من ظلم الاغريق وتعسفهم »(١٢٨) .

ثم يقول : « وهكذا كانت حالة الشعور في بلاد الشام ابان الغزوة التي وقعت بين سنتي ٦٣٣ ، ٦٣٩ م والتي طرد فيها العرب الجيش الروماني من هذه الولاية تدريجيا ... »(١٢٩) .

وكتب أرنولد تحت عنوان « تسامح العرب وعهودهم » ليؤكد هذه الحقيقة المتألقة في تلك العبارة « أما ولايات الدولة البيزنطية ، التي سرعان ما استولى عليها المسلمون ببسالتهم ، فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة ... »(١٣٠) .

وهذه حقيقة مؤكدة فليس هناك من حكم مثالي عرفته البشرية كهذا الحكم الذي عرف عن المسلمين خلال عصورهم الاولى ، وهذا في الحقيقة كان من اهم الاسباب في تحول الناس الى الاسلام .

ولذا كتب أرنولد يعبر عن هذه الحقيقة تحت عنوان « أسباب تحول المسيحيين الى الاسلام » فأكد في عبارات قاطعة واضحة قائلا : « واذا نظرنا الى التسامح الذي امتد على هذا النحو الى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الاسلامي ، ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن

---

(١٢٨) أنظر نفس المرجع ص ٧٣ .
(١٢٩) نفس الصفحة السابقة .
(١٣٠) الدعوة الى الاسلام ص ٧٤ .

السيف كان العامل فى تحويل الناس الى الاسلام بعيدة عن التصديق . ومن ثم لم يكن بد من أن نلتمس بواعث اخرى غير ذلك الباعث الذى أوحى بالاضطهاد ... »(١٣١) .

أجل فليس هناك سيف ، أو عنف ، أو اضطهاد ـ بل هناك رفق ، وصفح ، وتسامح وهذا ما يؤكده هذا المستشرق المنصف عندما يقول فى صفحة أخرى .

« ومما يدل على أن تحول المسيحيين الى الاسلام لم يكن راجعا الى الاضطهاد ، ما وقفنا عليه من الشواهد التاريخية الأصلية ، وهو أنه فى الوقت الذى شغر فيه كرسى البطرقية ، تمتع المسيحيون بالحرية التامة فى اقامة شعائرهم وسمح لهم باعادة بناء كنائسهم بل ببناء كنائس جديدة ، وتخلصوا من القيود التى حتمت عليهم أن يركبوا الحمير والبغال ، وحوكموا فى محاكمهم الخاصة ، على حين اعفى الرهبان من دفع الجزية ، ومنحوا امتيازات معينة »(١٣٢) .

ثم يتحدث عن انتشار الاسلام فى شمال افريقيا فكتب تحت عنوان « أسباب تدهور المسيحية ليست راجعة الى تعصب المسلمين » ما يؤكد أنه ليس هناك تعصب على الاطلاق ولذا نراه يقول : « .. أما ما يتعلق باضطهاد دينى حدث فعلا ، فان المؤرخين لم يذكروا عنه الا شيئا قليلا ، وان بقاء الكنيسة المسيحية الوطنية بعد الفتح أكثر من ثمانية قرون ، لشاهد على روح التسامح التى استطاعت وحدها أن تجعل مثل هذا البقاء أمرا ممكنا »(١٣٣) .

ويتحدث « ارنولد » عن « انتشار الاسلام بين مسيحيى اسبانيا » فيوضح كيف انتشر المذهب الكاثوليكى هناك ، وانهم لم يسمحوا بانتشار

---

(١٣١) الدعوة الى الاسلام ص ٨٨ .
(١٣٢) نفس المرجع ص ١٣٠ .
(١٣٣) نفس المرجع ص ١٤٤ .

أي مذهب آخر غير المذهب الكاثوليكي ، ومن ثم « اضطهدوا اليهود الذين كانوا طائفة كبيرة العدد في أسبانيا ، وصدرت الأوامر المشددة ضد كل من امتنع عن الدخول في المسيحية ، وكان من أثر هذه الاضطهادات أن رحب اليهود بالعرب .. وعدوهم مخلصين لهم مما حل بهم من المظالم فساعدوهم على فتح أبواب المدن ... »(١٣٤) .

ثم يكتب تحت عنوان « تسامح العرب وأثرهم في المسيحيين » فيقول :

« أما عن حمل الناس على الدخول في الاسلام ، أو اضطهادهم بأية وسيلة من وسائل الاضطهاد ، في الأيام الأولى التي أعقبت الفتح العربي ، فاننا لا نسمع عن ذلك شيئا . وفي الحق أن سياسة التسامح الديني التي أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الديانة المسيحية كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد ... »(١٣٥) .

لقد أطلنا صحبة الرجل وهو يواصل أحاديثه عن انتشار الاسلام ، وتسامح المسلمين ولذلك فنحن نكتفي بهذه اللمحات من كتاب « الدعوة الى الاسلام » للمستشرق المنصف توماس أرنولد .

والحق أن ما ذكرناه من لمحات لا يغني عن متابعة هذا الكتاب ، الذي سطره صاحبه بعد أن بهرته الحقائق الساطعة ، فاقر بها بعيدا عن التعصب والمكابرة التي وقع تحت وطأتهما كثير من المستشرقين الآخرين .

لقد جاءت شهاداته الكثيرة عبر الكتاب ، وثائق انصاف ؛ وشهادات حق للاسلام العظيم ، وللمسلمين المتسامحين ، الذين استطاعوا بهذه

---

(١٣٤) الدعوة الى الاسلام ص ١٥٤ ، ١٥٥ .
(١٣٥) نفس المرجع ص ١٥٧ .

الاخـلاق ان ينشروا دينهم ، وان يرفعوا راياته خفـاقة عالية فوق أرض الله الواسعة ، كما استطاعوا ان يقيموا حضـارة مثـالية اتسمت بالتسـامح والرفـــق .

اتهــامات باطـــلة

لقد تحدثنا عن موقف الاسلام من أهـل الذمة ، وعرفنا أنه كان قائما على حسن المعـاملة ، والتسـامح الذى لا نجد له نظيراً فى التاريخ ـ ويكفى ان نشير الى دلالة المصطلح نفسه « أهـل الذمـة » ـ والذى يعنى ان المسلمين ينظرون الى ـ اليهود والنصـارى ـ باعتبـارهم أمـانة فى ذمة المسلمين ، ينبغى الحرص عليهم ، والاهتمام بأمـرهم ، والقيـام بما يفرضه الدين الاسلامى ازاءهم من حقوق والتزامات .

ورغم هذا الموقف الواضح ـ فان البعض يحلو لهم التشويه وتزييف الحقائق ، وتحريف الكلم عن مواضعه عمـدا فى محـاولة خبيثه للاساءة للاسـلام ، واتهـامه بالتعصب تجـاه أهل الذمة .

● وفى هذا الاطـار يذكرون بعض الآيات التى يتناولونها بمنطـق « يا أيها الذين آمنوا لا تقـربوا الصـلاة » ويسكتون فى محـاولة رخيصة للكذب على الاسـلام بانه ينهى عن الصـلاة .

وفى هذا الاتجاه المنحـرف ، وبهذه الروح المغشوشة يذكـرون فى هذا الاطار مثـلا قول الله تعالى :

«يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ...»(١٣٦)

وقوله : « كيف وان يظهـروا عليـكم لا يرقبـوا فيـكم الا ولا ذمـة يرضونكم بافواههم وتابى قلوبهم »(١٣٧) .

---

(١٣٦) سـورة المـائدة : آية ٥١ .
(١٣٧) سـورة التـوبة : آية ٨ .

والحق أن هذه الآيات لا تعنى تعصبا من الاسلام ، لأنها واردة فى المعتدين على الاسلام والمحاربين لأهله ، وتنفير أفراد الأمة من معاونة خصومها واجب يتردد فى كل عصر ، والاسلام يدفع عن نفسه اذا هوجم ، ويامر بمسالمة من يتركونه وشأنه ، غير متعرضين لسير دعوته فى الارض ، ولا صادين احدا عن الدخول فيها فاذا وجد من يعوق دعوته ، او يعتدى عليها اشتبك معه الاسلام فى حرب حتى يؤمن طريقه فحسب .

ولنلق الأضواء على هذه الآيات حتى تتضح حقيقة موقف الاسلام .

فأما الآية الأولى : « لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » فليس معناها ان الاسلام ينهى نهيا جازما عن مصادقة اليهود والنصارى ، ويوجب قطع علائقهم ، ويهدد المسلم الذى يصادقهم بالانفصال عن الاسلام والتحق باليهودية والنصرانية .

فالمعنى بهذا التعميم باطل ، والآيات اللاحقة بهذه الآية المرتبطة بها فى موضوعها تحدد الموضوع بجلاء لا يحتمل خلطا .

فاليهود والنصارى فى هذه الآية — قوم يحاربون المسلمين فعلا ، وقد بلغوا فى حربهم منزلة من القوة جعلت ضعاف الايمان يفكرون فى التحبب اليهم ، والتجمل معهم فنزلت هذه الآية ، ونزل معها ما يفضح نوايا المتخاذلين فى الدفاع عن الدين الذى انتسبوا اليه .

« فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله ان يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى انفسهم نادمين »(١٣٨) .

---

(١٣٨) سورة المائدة : آية ٥٢ .

ثم تستطرد الآيات فى توصية المؤمنين بتدعيم صفوفهم أمام المتربصين والمتهجمين ، تطالبهم بمقاطعة المحاربين للاسلام من أهل الكتاب ، مسوغة هذه المقاطعة بأنها رد للعدوان .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار اولياء واتقوا الله ان كنتم مؤمنين . واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا »(١٣٩) .

فهل هناك ضير على دين ما اذا منع اتباعه من مصادقة الذين يتهكمون بتعاليمه ويسخرون من شعائره ؟؟(١٤٠) .

اما قوله تعالى : « كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة » .

فالآية قبلها مباشرة تشرحها : « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله الا الذين عاهدتهم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم »(١٤١) .

فالمعنى الذى لا يضطرب عاقل فى ادراكه ان المقصود بالآية هم الوثنيون المهاجمون للاسلام ، الناكثون بعهودهم معه(١٤٢) .

● ومن الاتهامات الباطلة أيضا ما ينسب الى الخليفة العظيم عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، بأنه وضع عددا من القيود التى حالت بين أهل الذمة ، وبين اقامة شعائرهم الدينية فى حرية وطلاقة :

---

(١٣٩) سورة المائدة : الآيات ٥٧ ، ٥٨ .
(١٤٠) أنظر محمد الغزالى : التعصب والتسامح ص ٤٠ — ٤٢ .
(١٤١) سورة التوبة : آية ٧ .
(١٤٢) محمد الغزالى : التعصب والتسامح ص ٤٢ ، ٤٣ .

وهذا هو العهد الذى اطلق عليه « عهـد عمـر » :

« هذا كتاب لعبد الله عمـر بن الخطـاب امير المؤمنين من نصـارى مدينة كذا ومدينة كذا ، لـما قدمتم علينـا ، وقد سالناكم الامان لانفسنا ، وذرارينا ، وأموالنـا ، على الا نحـدث فى مدينتنا ولا حولهـا كنيسة ، ولا ديرا ، ولا قـلاية ، ولا صـومعة راهب ، ولا نجـدد منها ما خرب ، ولا ما كان منها فى خطط المسلمين فى ليـل أو نهـار .

وان توسع على من مـر بنـا من المسلمين فى الضيافة ثلاث ليـال ، ولا نترك فى كنائسنا ولا منـازلنا جاسوسـا ، ولا نكتم عينـا للمسلمين ، ولا نعلم أولادنا القـرآن ، ولا نظهـر شرعنا ، ولا ندعو اليه أحـدا ، ولا نمنـع أحـدا من ذوى قـرابتنا من الدخول فى الاسـلام اذا رأوا ذلك ، وان نوقـر المسلمين ، ونقوم لهـم فى مجـالسنا اذا أرادوا الجـلوس ، ولا نتشبه بهم فى شىء من لباسهم فى قلنسـوة ولا عمـامة ولا نعـل ، ولا فـرق شعر ، ولا نتكلم بكلامهم ، ولا نتسمى باسمائهم ، ولا نتكنى بكنيتهم ، ولا نركب بالسروج ، ولا نتقلد بالسيوف ، ولا نتخـذ شيئا من السـلاح ، ولا نعمـله ، ولا نحمـله معنـا ، ولا ننقش على خواتمنـا بالعـربية .

ولا نبيع الخمـور ولا نسقيها أحـدا ، وأن نجـز مقـاديم رؤسنا ، ونجعل الزنانير على أوسـاطنا ، ولا نظهـر صلباننا وكتبنا فى شىء من طـرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب النواقيس فى شىء من كنائسنا الا ضربا خفيفـا ، ولا نرفـع أصواتنا بالقـراءة فى شىء بحضرة المسلمين ، ولا نرفـع أصواتنا مع موتانا ، ولا نظهـر النيران فى شىء من طـرق

المسلمين ، ولا أسواقهم ، ولا نظهر باعوثا(١٤٣) ولا شعانين(١٤٤) ، ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ، ولا نطلع على منازلهم ... ولا نضرب أحدا من المسلمين .

شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان ، فان نحن خالفنا عن شيء مما شرطناه لكم على أنفسنا فلا ذمة لنا ، وقد حل منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق »(١٤٥) .

وقد علق المستشرق المنصف أرنولد على « عهد عمر » بقوله : « أن دي غويه ، وكيتاني ـ قد اقاما الدليل الذى لا يدع مجالا للشك على ان هذه القيود قد استحدثت فى بعض العصور المتأخرة » .

ويرد كذلك بأن « أول من ذكر هذه الوثيقة ابن حزم المتوفى حول منتصف القرن الخامس الهجرى ، وتمثل شروطها ما كان فى العصور المتأخرة من تصرفات أشد تعصبا ، وأبعد عن التسامح ـ ثم يقول ـ والحق أن هذه الشروط لم تعد أن تكون نظما قد طبقت بصفة مطردة ، وكان الأمر بوجه عام يتطلب سورة من التعصب الدينى لاجابة أى مطلب لتبيطق هذه الشروط ، وهناك شواهدكثيرة تبين أن المسيحيين قلما كانوا فى عهد الفتوح الاسلامية الأولى يشكون مما يضعف من قوة دينهم »(١٤٦) .

---

(١٤٣) الباعوث : جمع بواعث (سريانية) قال صاحب المنجد : صلاة فى طلب المطر ـ صلاة ثانى عيد الفطر أنظر ابن الاخوة : معالم القربة ص ٩٥ هامش ١ .

(١٤٤) شعانين (عيد الشعانين) وهو يوم دخول السيد المسيح الى أورشليم راكبا على آتان ويقع فى الأحد السابع من الصوم الكبير . أنظر ابن الاخوة : معالم القربة ص ٩٥ هامش ٢ .

(١٤٥) ابن الاخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ص ٩٤ ، ٩٥ ؛

(١٤٦) الدعوة الى الاسلام ص ٧٥ ، ٧٧ .

● وبالاضافى الى ما قاله هذا المستشرق المنصف نقول أنه لا أصل لهذه الشروط فى مصادر الفقه الاسلامى ، أو فى كتب الشريعة والسيرة والتاريخ التى يعتد بها(١٤٧) .

فالوصية العمرية اذن - وثيقة مشكوك فى أمرها ، ومن المؤكد انها وضعت فى العصور المتأخرة ونسبت الى عمر(١٤٨) .

ولعل ما ذكرناه قبل ذلك من حقائق ووقائع عن تسامح الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما يدحض هذه الادعاءات ، ويرد تلك المفتريات(١٤٩) .

ان معاملة الاسلام لمن لا يدينون به من أهل الذمة ، قامت منذ العصر الأول على قاعدة اصيله لم يثر حولها نقاش كمبدأ مشروع ، ولم يضطرب تطبيقها على توالى الأزمنة ، الا فلتات شاذة لا يجوز الاكتراث بها أو الالتفات اليها ، هذه القاعدة تقوم على أن « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » .

وقد إستقرت الأقليات فى العالم الاسلامى دهورا فى ظل هذا المبدأ العادل ، بينما بادت الأقليات الاسلامية فى الغرب لأنها لم تجد مثل هذه المعاملة النبيلة(١٥٠) .

---

(١٤٧) محمد الغزالى : التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام ص ٥١ .
(١٤٨) د. حسين مؤنس : عالم الاسلام ص ٢٥٤ .
(١٤٩) انظر ما كتبناه من قبل تحت عنوان « معاملة المسلمين لأهل الذمة خلال عصر الراشدين » ص ٢٨٢ .
(١٥٠) محمد الغزالى : التعصب والتسامح ص ٤٨ .

أسباب القلاقل التى كانت تقع بين المسلمين وأهل الذمة :

لقد عاش أهل الذمة دائما فى المجتمع الاسلامى مواطنين كراما ، وقاسموا المسلمين مر الحياة وحلوها وتمتعوا بكثير من مناصب الدولة الاسلامية كما رأينا .

كما تمتعوا بمكانة اجتماعية واقتصادية طيبة .

وعاملهم المسلمون بتسامح ورفق لا نظير له فى تلك العصور كما أسلفنا .

واذا كانت قد حدثت بعض القلاقل والاضطرابات فى المجتمع الاسلامى بين المسلمين واهل الذمة فاننا نتلمس أسباب ذلك فيما يلى :

● أولا : ان ذلك انما كان يحدث من بعض الحكام الذين لم يفهموا الاسلام فهما صحيحا ، فلم يطبقوا تعاليمه تطبيقا سليما ، ولذلك نؤكد أن هذا الأذى نفسه انما وقع من هؤلاء الحكام على المسلمين أيضا ، وأصابهم مثل ما اصاب اهل الذمة .

ونلمس هذا فيما حدث من اخطاء مثلا فى عهد المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ - ٨٦١ م) .

فان هذا الخليفة كما اضطهد المسيحيين ، اضطهد المسلمين كذلك . فاعتدى على المعتزلة ... ، كما أمر بحبس الشيعة وضربهم(١٥١) ...

وهكذا كان المسلمون واهل الذمة معا يدفعون ثمن اخطاء الحكام الذين لا يفقهون الاسلام ، ولا يحسنون تطبيق تعاليمه .

---

(١٥١) أنظر ابن الاثير : الكامل ج ٥ ص ٢٧٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ ، ٣٠٤ .

لم تعود الأمور بعد ذلك الى سابق عهدها من التسامح ، والانصاف ، والرفق ولذلك يعبر أرنولد عن هذه الحقيقة فيقول « ومما هو جدير بالملاحظة ان مؤرخى الكنيسة النسطورية - التى لم يكن بد من أن تقاسى الكثير من هذا الاضطهاد - يعدونه أمرا حديث العهد انفرد به المتوكل وانتهى بوفاته »(١٥٢) .

ومثل هذا الكلام يقال عن الخليفة الحاكم بأمر الله فى مصر (٣٨٦ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢٠ م) .

فانه كما اضطهد اليهود والنصارى ، اضطهد المسلمين كذلك خاصة من أهل السنة ، مما يعنى خللا فى هذه الشخصية غير السوية - اكثر منه تعصبا تجاه أهل الذمة(١٥٣) .

● ثانيا : أن من أسباب هذه القلاقل والاضطرابات : تعصب بعض اهل الذمة وأستفزازهم لمشاعر المسلمين .

وقد عبر عن هذه الحقيقة بعض المؤرخين المنصفين - من ذلك ما ذكره « متز » عندما نقل عن ابن المعتز شكواه حوالى عام ٢٩٠ هـ من مغالاة النصارى فى البغال والسروج ، ومن تحكمهم فى المسلمين ، ويعتبر هذا من علامات ظهور المسيخ الدجال(١٥٤) .

ويقول فى موطن آخر « وكانت الحركات التى يقصد بها مقاومة النصارى مواجهة أولا الى محاربة تسلط أهل الذمة على المسلمين وسيطرة أهل الذمة شىء لا يحتمله المسلم الحق »(١٥٥) .

---

(١٥٢) الدعوة الى الاسلام ص ٩٦ .
(١٥٣) أنظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٩٢ - ٢٩٨ ، د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٠٦ - ٢٠٩ ، ٢٢٠ - ٢٢٣ .
(١٥٤) الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٨٥ .
(١٥٥) المرجع السابق ص ٨٨ .

وبعد أن ذكر متز قليلا من المشاغبات بين المسلمين وأهل الذمة ، عقب على ذلك بقوله « وهذه الحوادث قليلة جدا بالقياس الى بلاد المشرق كلها على سعتها »(١٥٦) .

ثم نراه بعد ذلك يتحدث عن أسباب تلك المنازعات والفتن التى قامت أحيانا بين المسلمين والمسيحيين فى مصر فيقول بالحرف الواحد عن بعض أسبابها :

« أن أكثر الفتن التى وقعت بين النصارى والمسلمين بمصر ـ نشأت عن تجبر المتصرفين الأقباط »(١٥٧) .

ويقول المستشرق « أرنولد » أيضا فى هذا الصدد :

« والحق انه يمكن ان تكون هذه المراسيم (يقصد مراسيم اقصاء المسيحيين عن الوظائف العامة) راجعة بوجه عام ... الى سخط شائع اثاره السلوك الخشن المتجبرف الذى يسلكه الموظفون المسيحيون .. »(١٥٨) .

كما يقول معبرا عن هذه الحقيقة أيضا .

« ويظهر أن أمثال سورات الاضطهاد هذه ، قد اثارها فى بعض الحالات ، هؤلاء المسيحيون الذين شغلوا مناصب عالية فى خدمة الحكومة ، من جراء اساءة استعمال سلطتهم ، فاثاروا على انفسهم بظلمهم المسلمين شعورا قويا من الاستياء .

---

(١٥٦) نفس المرجع ص ٩٣ .
(١٥٧) نفس المرجع ص ٩٤ .
(١٥٨) الدعوة الي الاسلام ص ٩٥ .

وقد قيل انهم استغلوا مناصبهم العالية فى سلب أموال المؤمنين ، ومضايقتهم ، ومعاملتهم بشىء كثير من الغلظة والقحة ، وتجريدهم عن أراضيهم وأموالهم .

وقد تقدم المسلمون بالشكوى الى الخليفة المنصور ، والمهدى ، والمأمون ، والمتوكل ، والمقتدر .. والى كثير من خلفائهم ..»(١٥٩).

ولنصغ السمع جيدا الى ما أوردته مصادرنا التاريخية(١٦٠) من آهات اليمة ، وزفرات حزينة ، لما آل اليه أمر « اليهود » ، وتجبرهم ، وتحكمهم فى الأغلبية المسلمة في مصر خلال العصر الفاطمى .

اجل فها هو الشاعر يدعو الناس فى تهكم حزين ، واستنكار اسيف الى اعتناق اليهودية ، طالما انها هى الوسيلة الى السلطان والمجد فيقول :

يهود هذا الزمان قد بلغوا ... غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم ... ومنهم المستشار والملك
يا اهل مصر انى قد نصحت لكم ... تهودوا قد تهود الفلك

ويتحدث المقريزى(١٦١) عن ما فعله « النصارى » فى مصر خلال العصر الفاطمى كذلك ، وكيف انهم اتصفوا بـ « التجبر » ، وبالغوا فى اظهار الفخر ، وتظاهروا بالملابس العظيمة ، وركبوا البغلات الرائعة ، والخيول المنومة بالسروج المحلاة واللجم الثقيلة ، وضايقوا المسلمين فى أرزاقهم ، واستولوا على الأحباس الدينية والأوقاف الشرعية ،

---

(١٥٩) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٩٧ ، ٩٨ .
(١٦٠) السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ج ٢ ص ١٥٢ ، ١٥٣ - القاهرة - ١٢٩٩ هـ .
(١٦١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٤٠٦ .

واتخذوا العبيد والمماليك والجوارى من المسلمين والمسلمات ، وصودر بعض كتاب المسلمين ، فالجاته الضرورة الى بيع أولاده وبناته ، فيقال انه اشتراهم بعض النصارى وفى ذلك يقول ابن الخلال

اذا حكم النصارى فى الفروج	وغالوا بالبغال وبالسروج
وذلت دولة الاسلام طرا	وصار الامر فى أيدى العلوج
فقل للاعور الدجال هذا	زمانك ان عزمت على الخروج

ويصف ابن الاخوة ـ فى القرن الثامن الهجرى ـ حال أهل الذمة فى المجتمع الاسلامى فيقول :

« ان دورهم صارت تعلو على دور المسلمين ومساجدهم ، وصاروا يدعون بالنعوت التى كانت للخلفاء ، ويكنون بكناهم ، فمن نعوتهم الرشيد ... وابو الحسن ... وابو الفضل ، وقد جاوزوا حد أقدارهم ، وتظاهروا بأقوالهم وافعالهم ، واظهرت منهم الايام طبائع شيطانية مكنتها وعضدتها يد سلطانية ، فركبوا مركوب المسلمين ، ولبسوا احسن لباسهم ، واستخدموهم فرأيت (اليهودى والنصرانى) راكبا يسوق بمركبه ، والمسلم يجرى فى ركابه ، وربما تضرعوا وتذللوا له ليرفع عنهم ما أحدثه عليهم (١٦٢) .

هل يمكن أن نجد لذلك نظيرا فى خارج ديار المسلمين ؟؟

انه فى ظلال الحكم الاسلامى كانت المناصب من الوزارة فما دونها للاكفاء من اليهود والنصارى ، وكان ينبغى لهؤلاء أن يقدروا اليد الطيبة التى امتدت اليهم بالحسنى ، وأن يحفظوا الجميل للاكثرية المسلمة التى سمحت لهم بالوصول الى أعلى مكانة اجتماعية واقتصادية ، وبسطت أياديها بالمودة والتسامح .

---

(١٦٢) معالم القربة فى أحكام الحسبة ص ٩٦ ـ ٩٧ .

ولكننا نأسف كل الأسف ، ونأسى كل الأسى لهذه القلة المدللة ، التى لم تتورع عن ايذاء المسلمين واذلالهم ، ومحاباة طوائفهم محاباة استفزت مشاعر الكثرة المسلمة .

وكان ذلك بلا شك سببا مهما من اسباب القلاقل والاضطرابات التى شهدتها العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة أحيانا .

● ثالثا : ومن أسباب هذه القلاقل بين المسلمين وأهل الذمة أيضا ـ

« اعتداءات الأوربيين المسيحيين على المسلمين » وتعصبهم ضد المسلمين ، مما كان يستفز المشاعر الاسلامية ويهيجها نحو المسيحيين ، خاصة وأن بعضهم فى بلاد المسلمين كانوا يبدون تعاطفا مع اخوانهم الأوربيين ، بل لربما اتصلوا بهم وخانوا أبناء وطنهم المسلمين .

ونستقى هذه الحقيقة أيضا عن لسان المستشرقين ، ونستشهد بهم غالبا دون سواهم ، حتى لا يكون هناك مجال للاتهام بالتحامل أو الافتئات .

يعبر « متز » عن هذه الحقيقة فيقول « ولما جاءت انتصارات الروم على المسلمين حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى ، كان لها صداها فى مصر ، فلما ورد الخبر بأن الروم دخلوا الشام عام ٣٤٩ هـ / ٩٦٠ م وقتلوا وخربوا ـ هاج المسلمون على النصارى ، ووقعت صبيحته فى الجامع العتيق بعد صلاة الجمعة ، فهاج الرعاع ونهبوا كنيستين »(١٦٣) .

ويقول أيضا « ولما غزا الامبراطور نقفور جزيرة اقريطش فى العام التالى ، ووصل خبر ذلك الى مصر ، ثار المسلمون ، وقصدوا

---

(١٦٣) الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٩٤ .

كنيســة ميخــائيل التى للملكية بقصر الشمع ، فشعثوها وخربوها ، وظلت مغلقــة مدة طويلة وأبوابها مطمورة بالتراب »(١٦٤) .

ويذكــر « توماس أرنولد » فى هذا الصدد أيضــا موضحا أن من أسباب القلاقل بين المسلمين والمسيحيين « الظروف السياسية التى سادت هذا العصر » ويقول :

« وطالمــا تـجشم المسيحيون فى ظل الـحكم الاســلامى المتاعب بسبب ما أضمره الغــرباء من الـحــكام المسيحيين من ســوء الظــن فى العقيــدة الاســلامية ، كما ظهــر ذلك فى علاقاتهم بامــراء المسلمين .

وهذه الـحـالة تفسر لنــا ما ارتكبه الامبراطور البيزنطي نقفــور من غدر ، وجعلت اسم المسيحى مبغضا الى هارون الرشيد » .

ثم يتحدث ارنولد موضحا مواقف بعض المسيحيين الـخاطئة ، وغير الوفيــة تجــاه أوطانهم فيقول « ويمكن أن نرجــع كثيرا من اضطهادات المسيحيين فى البـلاد الاســلامية ، اما الى الشـك فى ولائهم التى كانت تثيــره دســائس المسيحيــين الغــرباء ، وأعــداء الاســلام وتدخلهم فى شئونهم أو الى الشعور السىء الذى أثاره ذلك المسلك القــائم عى الخيانة والقســوة الذى ظهــر به هؤلاء الأجانب نحو المسلمين »(١٦٥) .

ويقول ايضــا :

« وفى عصر متاخر ، اتهم المسيحيون فى زمن الـحــروب الصليبية باتصــالهم بالصليبيين اتصــالا ينطوى على الـخيــانة فجلبوا على أنفسهم قيــودا شــديدة الـحــرج ، ليس من العــدل ان نصفهــا بانهــا اضطهــاد دينى »(١٦٦) .

---

(١٦٤) نفس المرجع ص ٩٤ .
(١٦٥) الدعوة الى الاسلام ص ٩٥ ، ٩٦ .
(١٦٦) نفس المرجع ص ٩٨ .

إن التاريخ يؤكد أن المسلمين عاملوا أهل الذمة من المسيحيين واليهود بكل تسامح ، ومودة ، ورفق ، ولين .

ومن ثم فإن المرء يأسف كل الأسف عندما يرى صور الجحود والنكران من بعضهم ، فهذه المشاهد التى تكررت أحيانا من بعض النصارى الذين كانوا يتعاطفون مع الرومان ضد المسلمين ، ويظهرون الشماتة ان وقع للمسلمين مكروه ـ هذه المشاهد ـ انما تؤكد انحراف المشاعر من قوم يستظلون بالراية الاسلامية ، ويعيشون فى مجتمع عاملهم بكل صنوف الرفق والوان التسامح(١٦٧) .

كما انها كانت السبب فى بعض ألقلاقل التى وقعت بين المسلمين والمسيحيين ، والتى جعلت المسلمين احيانا يفرضون عليهم زيا خاصا لان بعضهم كانوا يتجسسون لمصلحة أعداء المسلمين .

ويقول الشيخ محمد الغزالى موضحا سبب لجوء بعض الحكام المسلمين لالزام أهل الذمة بزى خاص بهم فيقول « ومسالة افراد النصارى بزى خاص ، وشارات معينة ، ليست حكما دينيا ، وانما هى تشريع سياسى أوحت به ضرورات عسكرية »(١٦٨) .

● وقد تكررت مواقف بعض النصارى كذلك اثناء الحروب الصليبية ، ووقعت من بعضهم حوادث تدل على التحدى ، والتواطؤ مع العدو(١٦٩) .

---

(١٦٧) أنظر ما كتبه الشيخ محمد الغزالى فى كتابه « التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام » تحت عنوان « بطر المدللين » ص ٢٨١ ـ ٢٨٨ .

(١٦٨) التعصب والتسامح ص ٢٨٥ .

(١٦٩) أنظر ما كتبه الشيخ محمد الغزالى فى كتابه « التعصب والتسامح » تحت عنوان « الصليبيون ونصارى المشرق » ص ٢٨٨ ـ ٣٠١ .

● ويمكن أن يذكر المرء هاهنا أيضا - المواقف العدائية التى اتخذها نصارى الشام ، والجزيرة ، والعراق ... خلال محنة الغزو المغولى - حيث رحبت جماعة منهم بالغزاة ، وتآمرت معهم ضد مواطنيهم المسلمين .

فاحتضنهم الغزاة ، واستخدموهم فى فرض هيمنتهم ، واتخذوهم مخالب لتمزيق أجساد المسلمين الذين عاشوا معهم بحرية واخاء عبر القرون الطوال(١٧٠) .

اننى هنا لا أريد أن أنكأ الجراح ، أو أتحدث عن هذه الحوادث والمواقف ، فليس ذلك هدفا من أهداف البحث ...

فنحن لا نريد بعث هذه الصور الكريهة التى تستفز المشاعر ، وتوغر الصدور فى وقت نحتاج فيه الى وحدة الصف وجمع الكلمة .

وانما أريد فقط أن أبرز تسامح الأمة الاسلامية ، وأن المسلمين ما افتاتوا يوما على غير المسلمين .

وأن حماقات واخطاء الغير كانت هى السبب غالبا فى اثارة القلاقل ، وبروز الفتن ، ونشوء الاضطرابات ... وقد تأكد ذلك عبر التاريخ كله .

● رابعا : ومن اسباب هذه القلاقل بين المسلمين وأهل الذمة أيضا ، المنازعات العادية التى يمكن أن يقع مثلها بين مسلم ومسلم ، أو بين مسيحى ومسيحى ، ويهودى ويهودى ، ولكن عوامل الاثارة تشعل الموقف، وتضخم النزاع .

● خامسا : ونضيف الى جملة الأسباب السابقة ، انها تصرفات رعاع وسوقة لا تعكس تعصب المجتمع الاسلامى بقدر ما تعكس طيش

(١٧٠) د. عماد الدين خليل : المجتمع الاسلامى ص ٤٥ .

هؤلاء الزعاع ، والحكومة ليس لهـا يد فى تلك الاضطرابات التى تحدث بين العـامة ، ومن ثم فليس هنـاك مبرر على الاطـلاق للاتهام بالتعصب.

ونختم حديثنـا عن هذا الموضـوع بالتاكيد على ان هذا الموضـوع صيغ غالبـا بطـريقة مبالغ فيها وهذا المعنى هو ما عبر عنـه المستشرق أرنولد عندما قال « ولا يجـوز أن نتخـذ الاحـكام التى قد تضفها فئة متعصبـة من رجـال الدين مقياسا لمـا قامت به الحـكومات المدنيـة من تصرفات ، ولن نصـادف شيئا من النجـاح اذا اردنا التحقيق من هـذه الفكرة التى جعلت من الممكن وقـوع هذه الصـور المنطوية على المبالغة فيمـا عاناه المسيحيون من متاعب فى ظـل الحـكم الاسـلامى » والتى صورها هؤلاء الكتاب »(١٧١) .

التعصب سمة غير المسلمين :

لقـد عشنا فى جو التسـامح الاسـلامى ، وتعـرفنا على تسـامح المسلمين عبر العصور المتعـاقبة ، واذا كان الشىء بضـده يعـرف ، فسوف اختم حديثى فى هذا الفصـل باشـارات سريعـة عن التعصب الذى سـاد المجتمعات غير الاسـلامية ، لنتعـرف من خـلال هذه الاشـارات مـدى السـماحة التى جـاء بها الاسـلام ، ومدى التسامح الذى اتسم به المسلمون عبر عصـور التاريخ اذا ما قارناهم بغيرهم :

التعصب بين المذاهب المسيحية :

اذا قـرانا تاريخ الكنيسـة المسيحية عبر العصـور ، فسوف نجـد أن اضطهاد المخـالفين كان صبغة عـامة للمسيحية منذ تحولت الى دولة ، على يد الامبراطور الوثنى قسطنطين .

---

(١٧١) الدعوة الى الاسلام ص ٩٧ .

ولم يكن اضطهاد أولئك المخالفين عملا فرديا ، يبدو حينا ويختفى أحيانا ، بل كان سياسة ثابتة حاسمة تستهدف افناء الخصوم ، ومحو آثارهم محوا ، وكانت المذابح العامة ، والقوانين الصارمة التي توحي بها تدبر وتنفذ بوحشية بالغة(١٧٢) .

يقول أبو الحسن الندوى « ثارت حول الديانة (النصرانية) وفي صميمها مجادلات كلامية ، وسفسطة من الجدل العقيم شغلت فكر الأمة ، وأستهلكت ذكاءها .. ، وتحولت في كثير من الأحيان حروبا دامية ، وقتلا وتدميرا وتعذيبا ، واغارة وانتهابا واغتيالا ، وحولت المدارس والكنائس والبيوت معسكرات دينية متنافسة ، واقحمت البلاد في حرب أهلية ، وكان أشد مظاهر هذا الخلاف الديني ، ما كان بين نصارى الشام والدولة الرومانية ، وبين نصارى مصر ، أو بين (الملكانية) و (المنوفيسية) بلفظ أصح .

فكان شعار الملكانية عقيدة ازدواج طبيعة المسيح .

وكان المنوفيسيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة ، وهي الالهية التي تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية ، كقطرة من الخل تقع في بحر عميق لا قرار له .

وقد اشتد الخلاف بين الحزبين في القرنين السادس والسابع ، حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين ، أو كأنه خلاف بين اليهود والنصارى ، كل طائفة تقول للأخرى أنها ليست على شيء ..

وحاول الامبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) .. جمع مذاهب الدولة وتوحيدها ، وأراد التوفيق ... ولكن القبط نابذوه العداء ... ووقع

---

(١٧٢) محمد الغزالي : التعصب والتسامح ص ٩٠ .

اضطهاد فظيع على يد قيرس فى مصر استمر عشر سنين وقع خلالها ما تقشعر منه الجلود ، فرجال كانوا يعذبون ثم يقتلون اغراقا ، وتوقد المشاعل وتسلط نارها على الاشقياء حتى يسيل الدهن من الجانبين الى الارض ، ويوضع السجين فى كيس مملوء من الرمل ويرمى به فى البحر ، الى غير ذلك من الفظائع »(١٧٣) .

ويتحدث غوستاف لوبون مصورا أوضاع مصر تحت حكم الرومان ، ومدى اضطهاد الرومان واستبدادهم بالمصريين بسبب اختلاف المذهب الدينى بينهما فى طبيعة السيد المسيح فيقول :

« واكرهت مصر على انتحال النصرانية ، وهبطت بذلك الى دركات الانحطاط مقتدارا فمقدارا الى أن جاء العرب .. ، وكان اشد البؤس والشقاء ما تعانيه مصر التى غدت ميدان قتال للمذاهب النصرانية وكانت هذه المذاهب تكثر فى ذلك الزمن وتتلاعن وتتقاتل ، وكانت مصر التى اكلتها الانقسامات الدينية ، ونهكتها مظالم الحكام تحقد أشد الحقد على سادتها (الروم) ، وكانت تعد من يحرونها من أيدى قياصرة بالقسطنطينية منقذين ، فحفظ هذا الشان للعرب »(١٧٤) .

وهذا التعصب الشديد بين المذاهب المسيحية بعضها مع البعض الآخر ، هو ما جعل المستشرق « متز » يكتب تحت عنوان « الاسلام اكثر تسامحا مع طوائف النصارى من الدولة الرومانية الشرقية » فقال « أن الكنيسة الرسمية فى الدولة الرومانية الشرقية قد ذهبت فى مضاداتها للمسيحيين الذين يخالفون رجالها فى التفكير ، أبعد مما ذهب اليه الاسلام (لعله يقصد بعض حكام المسلمين) بالنسبة لاهل الذمة » .

---

(١٧٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٣٩ ، ٤٠ .
(١٧٤) د. غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٢٠٨ - ترجمة عادل زعيتر - عيسى البابى الحلبى - القاهرة - ١٩٦٩ م .

ويضرب مثلا لذلك بانه « لما اعاد الامبراطور نقفور افتتاح بلاد الشام فى القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى - كان مما وعد به أهل الشام وامنهم به ، أن يحميهم من مضايقة كنيسة الدولة ، ولكنه رغم هذا الأمان ، لم يأل جهدا من مضايقة اليعقوبيين ، فاضطرهم مثلا الى الخروج من انطاكية ، ولذلك نجد مؤرخى اليعقوبيين يصفون البطارقة الذين عينتهم الدولة فى انطاكية بانهم أضل من فرعون ، وأشد كفرا بالله من بختنصر »(١٧٥) .

التعصب بين المسيحيين واليهود :

وكان هناك تعصب شديد بين المسيحيين واليهود كذلك .

ففى السنة الأخيرة من حكم فوكاس سنة ٦١٠ م أوقع اليهود بالمسيحيين فى انطاكية ، فارسل الامبراطور قائده « ابنوسوس » ليقضى على ثورتهم ، فذهب وأنفذ عمله بقوة نادرة ، فقتل الناس جميعا ، قتلا بالسيف ، وشنقا واغراقا وتعذيبا ، ورميا للوحوش المفترسة ، وحدث ذلك بين اليهود والنصارى مرة بعد مرة ؛

وفى أيام « فوقا » ملك الروم ، بعث كسرى ملك فارس جيوشه الى بلاد الشام ومصر ، فخربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام .. وقتلوا من النصارى أمة كبيرة ... وساعدهم اليهود فى محاربة النصارى ، وتخريب كنائسهم ...

ثم ثارت اليهود بمدينة صور .. وتواعدوا على الايقاع بالنصارى وقتلهم ، فكانت بينهم حرب اجتمع فيها من اليهود نحو عشرين الفا وهدموا كنائس النصارى خارج صور فقوى النصارى عليهم وكاثروهم ، فانهزم اليهود هزيمة قبيحة ، وقتل منهم كثير ...

---

(١٧٥) الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٧١ .

ولما هزم هرقل ملك الروم - الفرس - وسار من القسطنطينية ليمهد ممالك الشام ، ومصر ، ويجدد ما خربه الفرس ... دخل القدس ... فوجد المدينة وكنائسها وقمامتها خرابا ، فساءه ذلك وتوجع له ، واعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس وايقاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس ، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس ... وحثوا هرقل على الوقيعة بهم ... فمال الى قولهم ، واوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها ، حتى لم يبق فى ممالك الروم بمصر والشام منهم الا من فر واختفى(١٧٦) ...

هذه صور من نماذج التعامل بين اليهود والمسيحيين ، وفيها يظهر التعصب المقيت ، والعداء الواضح الذى كان بينهما ، والقسوة والضراوة فى مواجهة كل منهما للآخر .

تعصب المسيحيين تجاه المسلمين :

برغم ما ذكرناه من موقف الاسلام الودود والمتسامح مع الديانات السماوية السابقة ، فقد لقى المسلمون من الحكومات المسيحية الاوربية كثيرا من التعصب والأذى على امتداد التاريخ .

وهذا موضوع يطول فيه الحديث ، ويحتاج الى بحث مستقل ، لكننا هنا نشير اشارات سريعة للغاية الى تعصب هؤلاء الاوربيين تجاه المسلمين ، وكما ورد على لسان المنصفين من الاوربيين انفسهم ، تحاشيا لأى اتهام بالتحامل والتعصب من ناحيتنا .

يتحدث غوستاف لوبون عن ضروب القسوة والهمجية التى كانت طابع الصليبيين فى حروبهم مع المسلمين فيقول :

---

(١٧٦) أنظر الندوى : ماذا خسر العالم ص ٤٥ - ٤٧ .

« ويدل سلوك الصليبيين فى جميع المعارك على أنهم من أشد الوحوش حماقة ، فقد كانوا لا يفرقون بين الحلفاء والأعداء ، والأهلين العزل والمحاربين ، والنساء والشيوخ والأطفال ، وقد كانوا يقتلون وينهبون على غير هدى »(١٧٧) .

ويواصل غوستاف لوبون حديثه المليء بالمواجع والآلام نقلا عن الراهب التقى روبرت عما فعله الصليبيون فى مدينة « مارلت » التركية فيقول :

« وكان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل ... ، وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ويقطعونهم اربا اربا ، وكانوا لا يستبقون انسانا ، وكانوا يشنقون أناسا كثيرين بحبل واحد بغية السرعة ... وكان قومنا يقبضون على كل شيء يجدونه فيبقرون بطون الموتى ... وكانت الدماء تسيل كالانهار ... ثم أحضر بوهيموند جميع الذين اعتقلهم فى برج القصر ، وأمر بضرب رقاب عجائزهم وشيوخهم وضعافهم ، وبسوق فتيانهم وكهولهم الى انطاقية (انطاكيا) لكى يباعوا فيها ... »(١٧٨) .

ثم يواصل غوستاف لوبون حديثه الدامى عما فعله الصليبيون فى القدس ، مقارنا ذلك بما فعله المسلمون من قبل عندما دخلوا المدينة ، ليسجل على قومه عارا لا يمكن أن تمحوا الايام أثره ، ووحشية وهمجية تتضاءل امامها كل وحشية أخرى ، ومن أسف أن هذه الروح المتعصبة القاسية لم تتغير حتى الآن فى مواجهة الاوربيين مع المسلمين فلنستمع الى حديثه الذى يأخذ بنياط القلوب :

---

(١٧٧) حضارة العرب ص ٣٢٥ .
(١٧٨) حضارة العرب — نفس الصفحة .

« استولى الصليبيون على القدس فى ١٥ من يوليه سنة ١٠٩٩ م، وقد جاء ... أن القديس جورج تراءى للصليبيين من جبل الزيتون ، وانه حرضهم على القتال ، فانقضوا على أسوار القدس واقتحموها .

وكان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب نحو النصارى حين دخلها منذ بضعة قرون ، قال كاهن مدينة لوبوى ـ ريموند داجيل « .. عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها ، ... قطعت رؤوس بعضهم ، فكان هذا اقل ما يمكن ان يصيبهم ، وبقرت بطون بعضهم ، فكانوا يضطرون الى القذف بانفسهم من اعلى الأسوار ، وحرق بعضهم فى النار فكان ذلك بعد عذاب طويل ، وكان لا يرى فى شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وارجلهم ، فلا يمر المرء الا على جثث قتلاهم ، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا ... » .

وروى ذلك الكاهن .. خبر ذبح عشرة آلاف مسلم فى مسجد عمر فكتب يقول :

« لقد افرط قومنا فى سفك الدماء فى هيكل سليمان ، وكانت جثث القتلى تعوم فى الساحة هنا وهنالك » .

ولم يكتف الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك ، فعقدوا مؤتمرا اجمعوا فيه على ابادة جميع سكان القدس ، من المسلمين واليهود وخوارج النصارى الذين كان عددهم نحو ستين الفا ، فافنوهم على بكرة ابيهم فى ثمانية أيام ، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولدا ولا شيخا »(١٧٩) .

---

(١٧٩) أنظر غوستاف لوبون : حضارة العرب ٣٢٦، ٣٢٧ .

ماذا نقول عن هذا الحقد الدفين ، والتعصب المقيت ؟؟ .

وهل نستطرد فى الحديث عن هذه المشاهد الحزينة ، والصور الكئيبة التى تدمى النفس وتجرح القلب وتهز المشاعر ؟؟؟ .

اننا لا نريد ان نسترسل مع هذا التاريخ المؤلم ، الذى سطر فصوله تعصب مجنون ، وحقد موتور ، وسوف نوقف القلم لكيلا يتحدث عما فعله النصارى بالمسلمين فى الاندلس ، وما فعلته قوى الاستعمار الحديث فى آسيا وافريقيا مع المسلمين وما يزالون . . . ، بل وما يفعله اليهود فى فلسطين المسلمة ... وما تلقاه الاقليات المسلمة فى كل بلد تحكمه حكومات غير اسلامية ... .

اجل سوف نوقف القلم عن هذا الحديث ، فله بحث غير هذا البحث ، وحديث غير هذا الحديث .. ولكننا فقط نشير الى هذا الليل الطويل من المآسى والمحن ، ومن التعصب والحقد ، ليبدو لنا وسط هذا الظلام الكثيف الذى خيم على دنيا الناس عبر العصور المتعاقبة ـ نور الاسلام فى صفائه وبهائه ، وفى سماحته ورقته ، هذا الاسلام الذى انشأ حضارة رائدة فذة ، لم تعرف الدنيا لها نظيرا فى برها وعدلها ، وفى سماحتها وتسامحها ، وليكون ذلك بحق وصدق احدى سماتها وخصائصها فى التاريخ الانسانى ..

* * *

الخـاتمــــة

لقد قضينا وقتـا طيبـا ، ولحظـات سعيدة ، مع هذه الصفحات المشرقة ، واللمحـات المتألقـة عن حضارتنا الاسلامية العظيمة .

هذه الحضارة الخيرة المعطاءة ، التى أعلت كرامة الانســان ، ورفعت قــدره ، وارتقت بمكانته ، حتى استحق بجـدارة أن يكون خليفـة لله فى أرضــه .

ومما لا شــك فيــه أن هــذه الدراسـة قد كشفت لنـا عن كثير من نواحى هذه الحضــارة الثرية ، وأبانت عن عـديد من جوانبها الوضيئة ، وأكدت كثيرا من الحقــائق والنتائج نشير اليها فيما يلى :

أولا : أن مفهوم الحضــارة الاسلامية كان مفهوما صحيحا ناضجا ، لأنه جمــع بين الجـانب المــادى والمعنوى للانســان والحياة .. ومن ثم فقــد لبت الحضــارة الاســلامية مطالب الانسـان المــادية والروحيــة ، وأقامت بينهما توازنا يتمشى مع الفطـرة التى فطر الله النـاس عليهــا ، وبذلك تجنبت الحضــارة الاسـلامية الاتجـاهات الخاطئـة للحضـارات الأخــرى ، وهى تلك الحضارات التى ركزت على الجانب المـادى للانسان والحيــاة فقط ، بينما أهملت جانب الروح وتلك الحضــارات التى ركزت على الجانب الروحى أو المعنوى فقط ، وأهملت عالم الحس والمــادة .

ثانيــا : أن الانســان هو محــور أى حضــارة ، وهو صاحب التفاعل بما يملك من أنشطة ، وقدرات هــائلة جسدية وروحية ، توجهها مجموعة المفاهيم والتصــورات عن الحيــاة ، وكلما ارتقت هــذه المفــاهيم وتلك التصــورات ، ارتقــت حضــارته وســمت ، فاذا انحطت تلك المفــاهيم والتصورات ، انحطت حضــارته وتدهورت ، وأدركتهــا عوامل التحلل والانهيـار .

ثالثا : ان الحضارة الاسلامية ـ ارتبطت بالاسلام ارتباطا وثيقا ، وأنها قامت على اساس هذا الدين الذى أنزله الله على نبيه محمد ﷺ ، ومن هنا كانت اسس وملامح تلك الحضارة هى تعاليم القرآن الكريم ، وتوجيهات المصطفى ﷺ واعماله .

وان هذا الارتباط هو الذى ميز الحضارة الاسلامية ، وأعطاها خصائصها المتفردة فى التاريخ ، وذلك لأن الاسلام هو المنهج الربانى الذى جاء شاملا لكل نواحى الحياة ، مستوعبا لكل ما فيه خير الانسان ومصلحته ، محققا التوازن العظيم بين كل متطلبات البشر وحاجياتهم ..

فالاسلام اذن هو الأصل الأصيل ، والركن المتين الذى قامت عليه هذه الحضارة فى مفاهيمها وفلسفتها وسلوكياتها وقيمها ..

ولأن الاسلام قد استوعب الحياة طولا وعرضا ، فقد امست الحضارة الاسلامية حضارة ثرية ، متسعة الآفاق باتساع آفاق الاسلام وشموله .

رابعا : أن الحضارة الاسلامية ـ حضارة مثالية فذة ـ ليس لها نظير فى دنيا الحضارات ، وقد تميزت بسمات وخصائص كثيرة ، لا يستطيع انسان أن يستوعبها ، أو يحيط بها ، وذلك لأن انجازاتها الحضارية هائلة فى عالم الحس والمادة .. ، وهائلة فى نفس الوقت فى عالم الروح والمعنويات والفضائل .

ومن ثم فغاية ما يقف عنده باحث ما ـ ان يلقى الأضواء على بعض جوانب هذه الحضارة الثرية ـ وهذا ما قامت به الدراسة .

خامسا : وضحت الدراسة ان من سمات الحضارة الاسلامية وخصائصها ـ انها حضارة « تتسم بالروح الدينية القوية » .

وقد ظهرت هذه الروح الدينية وتاكدت فى كثير مما تركه المسلمون من مظاهر الحضارة ، والحق ان الشخصية الاسلامية ظلت على امتداد التاريخ شخصية متدينة ، تيمم وجهها شطر بارئها ، وتعمل على مرضاة خالقها ، ويضع فى اعتبارها أن هناك جزاء وحسابا ، وثوابا وعقابا ، وان كل انسان سيلقى ما قدمت يداه ... .

لهذا كان الدين دائما يحتل مكانة كبيرة فى حياة الفرد المسلم ، والأمة المسلمة وقد تجلى هذا فى كل ناحية من نواحى حياتها ، وفى كل صغيرة وكبيرة من أمورها ، وقد افاضت الدراسة فى شرح ذلك كله بالتفصيل .

سادسا : اكدت الدراسة ايضا ـ أن من سمات الحضارة الاسلامية وخصائصها ـ انها حضارة « تقوم على عمارة الدنيا والاقبال على الحياة » .

وهذه هى روعة الحضارة الاسلامية وتفردها ، فربما يتصور البعض ان الحضارة الاسلامية اهتمت بالآخرة فقط ، واهملت جانب الدنيا ، ومن ثم جاءت هذه الدراسة لتبين خطأ هذه الفكرة .

فالحضارة الاسلامية لم يكن شأنها شأن الحضارات الأخرى التى اهتمت بجانب على حساب الجانب الآخر ، وعملت فى ناحية لتهمل الناحية الأخرى .

لقد كان المسلمون يعملون لدنياهم كما كانوا يعملون لآخراهم . ولذلك فكما قلنا ان عمل المسلمين لآخرتهم ظهر فى كل ناحية من نواحى الحياة .

نقول فى الوقت نفسه أن عمل المسلمين لدنياهم ظهر فى كل ناحية من نواحى الحياة .

وقد وضحت الدراسة بالتفصيل كيف ازدهرت الزراعة
وتفوقت الصناعة
وتقدمت التجارة في بلاد
المسلمين .

وكيف انطلق المسلمون الى كل مكان من أرض الله الواسعة يشيدون ، ويعمرون ، ويملأون الدنيا حركة وعملا ، برا وبحرا ، مستجيبين في هذا كله لتعاليم عقيدتهم ، وتوجيهات دينهم .

سابعا : لقد استطاعت الحضارة الاسلامية أن تحقق التوازن الفذ ، والتناسق الرائد ، والانسجام الفريد ، بين العمل للدنيا ، والعمل للآخرة .

لقد استطاعت العقلية الاسلامية الواعية فى عصور الازدهار والتألق الحضارى - أن تنجح فى تحقيق المعادلة الصعبة ، والتى اخفقت فى تحقيقها حضارات كثيرة سابقة ولاحقة .

معادلة الجمع والتآلف بين الدنيا والآخرة ، وبين العمل للعاجلة والعمل للآجلة واصبح أمر المسلم كما عبر عنه أحد الشعراء :

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه   ولا عمل الدنيا عن الدين شاغله

أو كما جاء فى الاثر « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

أجل لقد استوعب المسلمون بفقه وسعة ادراك - أن دينهم العظيم لم يخاصم الدنيا من أجل الآخرة ، أو خاصم الآخرة من أجل الدنيا .

فالعلاقة بينهما ليست علاقة تناقض أو تضاد ، وانما هي علاقة تآلف وانسجام وامتزاج ..

ومن ثم أكدت الدراسة أن المسلمين كما عملوا لآخرتهم ـ عملوا لدنياهم .

وكما أقبلوا على دينهم ـ أقبلوا على دنياهم ، وتمتعوا بطيباتها ، مستلهمين تعاليم ربهم ، وروح دينهم فى التوسط والاعتدال غالبا .

لقد قرأ المسلمون فى كتاب ربهم هذا النداء الطيب للتمتع بطيبات الحياة الدنيا « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون » (سورة البقرة : آية ١٧٢)

ومن ثم رأينا المسلمين يأخذون بحظوظهم من الطعام والشراب ، ومن التزين والتجمل ورأيناهم يتأنقون فى بناء مساكنهم ويخرجون الى المتنزهات الطبيعية من الحدائق والأنهار ، ورأيناهم يتركون آثارهم فى الفنون المختلفة ...

أجل رأينا ذلك كله فيما يقوم به المسلمون ..

ولكننا رأينا أيضا ـ وفى نفس الوقت ـ أن ذلك كله كان يتم فى اطار التعليمات والتوجيهات والآداب الاسلامية غالبا ...

لقد رأينا ما تركته الحضارة الاسلامية من مؤسسات دينية كثيرة ..

ولكننا رأينا أيضا ـ وفى نفس الوقت ـ ما تركته من مؤسسات أخرى ادارية ، وصحية ، واجتماعية ، واقتصادية ، وعلمية كثيرة ..

ورأينا الى جانب هذا وذاك أخلاقا ، وقيما ، وفضائل ...

يا لله لهذه الحضارة الرائدة فى عصور ازدهارها ..

لقد حققت فعلا معادلة التوازن والوفاق بين الدنيا والآخرة ، وبين الروح والجسد ، وفى تناسق نادر ، وانسجام متفرد ، لم تحققه اى حضارة أخرى فى التاريخ كله .

ثامنا : بينت الدراسة كذلك أن من سمات الحضارة الاسلامية وخصائصها - انها حضارة « تقوم على التكافل والتراحم » .

وقد تاكد ذلك بما ذكرته الدراسة من وقائع وحقائق مستلهمة من واقع الحياة الاسلامية وتاريخها ..

فاذا كانت المجتمعات خارج ديار الاسلام قديما وحديثا قد عانت من التمايز والتظالم والجور كما فصلنا - فان أمة الاسلام عاشت عصور ازدهارها بروح الاخاء والتكافل والتراحم والتعاون ، وذلك لان تعاليم الاسلام وتوجيهاته وضعت من القواعد والمبادىء ما يحقق هذه الغاية ، ويؤدى الى تلك النتيجة كما فصلنا .

وقد استجاب المسلمون لهذه التعاليم ، وتلك التوجيهات ، ولذلك رأينا فى المجتمع الاسلامى من صور التراحم والتكافل ، ومن نماذج التعاون والاخاء ، ما يشرق له وجه الحضارة الاسلامية ، وتعلو به هامتها أن ذكر للمروءة والنبل والانسانية حديث .

أجل لقد أمسى تيار التكافل والتراحم والتعاون والاخاء - تيارا قويا هادرا فى بحر الحضارة الاسلامية الزاخر بالخير والعطاء .

ولقد أكدت الدراسة بحق وصدق - أن هذا الذى نقوله ليس عبارات انشاء ، أو صياغات ادباء ، وانما كان واقعا حيا ملموسا ، أكده التاريخ ، وأكده ما تركته الحضارة الاسلامية من نظم وآثار ومؤسسات كانت تقوم بهذه الأدوار الاجتماعية والانسانية النبيلة .

وقد غاصت دراستنا فى أعمـاق بحـر التاريخ الاسـلامى ، وأخرجت من درره وجواهره ما ملأ الصحاف ، وقدمت من الصور الوضيئة والمشرقة ـ ما شـمل كل جانب ، وأحـاط بكل ناحيـة .. فهنـاك اهتمام وعنـاية ورعاية للضعفاء ، والايتـام ، والمرضى ، وطـلاب العـلم ، والغرباء ، والنســاء المطلقات والارامل ... ولكل محتاج لعون أو مساعدة .

بل انها تركت نظام الوقف ليكون القيـام بهذه المهـام كلهـا موصولا ومتتابعا عبر الأزمنـة والاجيـال .

الا نضر الله وجه هذه الحضـارة المثالية ، التى أعلت قدر الانسان ، وصانت حيـاته من كل ما يخدش كرامته ، أو يجـرح كبرياءه ، أو يمس احســاسه ..

فهل عـرفت الدنيـا قوما بلغت حساسيتهم فى دنيـا التكافل والاخاء والتراحم كما بلغته هذه الأمة الاسلامية ؟؟

ان ذلك لا يمكن أن يتأتى الا فى هذه الأمـة المحمدية ، التى رباها القـرآن ، وهذبها الاسـلام ، وجعلها الله خير امة أخـرجت للناس ان هى التزمت بتعـاليم دينها ، وقامت برسـالتها ومسئوليتها فى هذه الحياة .

تاسعا : وامتدادا للحديث عن سمات الحضـارة الاسـلامية وخصائصها ـ تحدثت الدراسـة كذلك عن سمة وخصيصة أخرى وهى أنها « حضـارة تقـوم على التسـامح » .

واذا كانت الدنيـا قديما وحديثا قد ابتليت بالتعصب والقسوة ـ فان الحضـارة الاسـلامية تطـل بوجهها المتسـامح كواحة وارفـة الظلال وسط صحراء محـرقة .

وقد أكدت الدراسة أن خلق التسامح أمسى خلقا متأصلا ومتمكنا في نفس الفرد المسلم والأمة المسلمة .

وقد بدا هنا واضحا جليا في علاقات المسلمين مع غير المسلمين ، فقد ظل يحكم هذه العلاقات قانون دائم يقوم على الرفق واللين والتسامح .

كما ظهر هذا بصورة أوضح في علاقات المسلمين بأصحاب الديانات السماوية السابقة - حيث مد الاسلام لهم يد المودة والسماحة ، فأمر المسلمين بالايمان بكل نبي أرسله الله ، وكل كتاب أنزله على رسول من رسله السابقين .

وأرسى رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم من مبادىء التسامح والرفق والعطف على أهل الذمة ما أصبح نموذجا يحتذى ، وقاعدة يتبعها المسلمون عبر عصورهم المتعاقبة .

وأمست هذه المبادىء ، وتلك الأسس - تشكل مسارا وطريقا يسلكه المسلمون زمنا وراء زمن ، وعصرا وراء عصر .

ومما يؤكد هذا الوجه المتسامح للحضارة الاسلامية والذى لا نجد له نظيرا في دنيا الناس - أن الأغلبية المسلمة في المجتمع الإسلامي الكبير هيأت للأقلية من أهل الذمة ما جعلها تتبوأ أرفع مناصب الدولة ، وتتمتع بمكانة اجتماعية ، واقتصادية مرموقة .

ومما يعجب له المرء ويأسف له أسفا بالغا - أن بعض أهل الذمة لم ينصفوا هذه الروح السمحة التي بسطت مودتها وعطفها ، ولم يقدروا هذه اليد الطيبة التى امتدت لهم بالحسنى ، ولم يحفظوا الجميل لهذه الأكثرية المسلمة ، وقد شرحنا ذلك كله بالتفصيل .

● ماذا نقول عندما نقرأ تاريخنا وتاريخ غيرنا .. ؟

هل نقول ان المسلمين قد اضرتهم سماحتهم .. او انهم وصلوا فى تسامحهم الى حد الغفلة المعيبة ؟؟ .

أم نقول ان أعداء الاسلام لهم لنيل طويل حالك من التعصب الشديد ، والحقد الدفين على الاسلام واهله ، وانهم لم يحرروا انفسهم يوما من هذا التعصب والحقد ؟؟

اننا لا نريد ان ننكأ الجراح ، ونعيد الى الاذهان تلك الصور المؤلمة ، ولكننا فقط نود أن ننبه ونحذر ، وان نقول ان التسامح اذا لم يقترن به فهم شديد لنفسية الخصم ، وحكمة في التعامل معه ، كان ذلك بلاهة وغفلة غير محمودة العقبى .

● وأخيرا فهذه بعض سمات وخصائص الحضارة الاسلامية فى عصور ازدهارها ، وهناك سمات وخصائص أخرى ـ تفردت بها هذه الحضارة الخيرة المعطاءة التى عم خيرها وفضلها شتى آفاق الأرض ، وانتفعت بها الانسانية فترة طويلة من الزمن ، واسأل الله ان يعيننى على تناولها فى دراسات لاحقة ـ لتنال هذه الحضارة العظيمة مكانها ومكانتها فى عالم اليوم .

الا ان الانسانية فى حاجة الى عودة هذه الحضارة مرة ثانية بعد أن اخفقت كل الحضارات الاخرى فى التوجه السليم لما فيه خير الانسان وسعادته .

ان الحضارة الاوربية المعاصرة تقود الانسانية نحو الهاوية ـ بعد ان اخفقت فى كبح جماح الشر بين ابنائها ، ويكفى أن نقول انها صنعت

على كوكبنا الأرضى من وسائل الدمار والخراب ما يمكنه من القضاء على كل مظاهر الحياة على وجه الأرض عدة مرات .

ان الحل الوحيد لأزمة الحضارة المعاصرة - هو تحول القيادة العالمية ، وانتقال دفة الحياة من اليد الآثمة الخرقاء التى أساءت استعمالها - الى يد اخرى طاهرة نقية تقية هى يد المسلمين الصادقين فى دينهم ، المخلصين لربهم ، القائمين برسالتهم .

ان هذا التحول هو الذى يمكن ان يغير وجه التاريخ ، ويحول مجرى الأمور ، وينقذ العالم من المصير المظلم الذى ينتظره .

فهل يفيق المسلمون من غفلتهم ، ويعودوا للتمسك بدينهم الذى هو سر قوتهم ليبعثوا حضارة الاسلام مره أخرى - لتكون طوق النجاة لانسانية معذبة ، وصمام الأمان لعالم يسير نحو الهاوية ؟؟

ان قانون الله فى خلقه معروف ، وسنته فى عباده لا تتغير وصدق الله العظيم اذ يقول : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

فهل يتحقق هذا التغيير ليتحقق الأمل المنشود ؟؟

انه أمل لايتحقق الا بالجهاد والعمل .. وبالعودة الى جوهر الدين ، وفقه الاسلام كما كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم

نسأل الله جلت حكمته - أن يوفق المسلمين الى ما فيه الهدى والسداد ، والخير والرشاد ، وان يعيد لهم مجدهم وعزهم - وقوتهم وحضارتهم ...

« ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » وصلى الله على سيدنا محمد فى كل وقت وحين ، وعلى آله وأصحابه والتابعين وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

أهـم المصـــادر والمراجـــع

اولا : (أ) حجج شرعية بارشيف وزارة الاوقاف :

اسـم الواقف	رقم الحجة	رقم المحفظة	تاريخ الحجة
١ ـ حجة السلطان			
حسن بن قلاوون	٨٨١	٢٥	١٥ ربيع آخر سنة ٧٦٠هـ
٢ ـ حجة السلطان			
قــلاوون	١٠١٢	٤١	٨ محرم ١١٧٥ هـ
٣ ـ حجة مغلطـاى			
الجمـــالى	١٦٦٦	٦٦	٢٩ ربيع الآخر ٧٢٩ هـ
٤ ـ حجة صرغتمش			
النـــاصرى	٣١٩٥		٢٧ رمضان ٧٥٧ هـ

(ب) حجج شرعية بدار الوثائق القومية :

اسـم الواقف	رقم الحجة	رقم المحفظة	تاريخ الحجة
٥ ـ حجة السلطان			
حسام الدين لاجين	١٧	٣	٢١ ربيع الآخر ٦٩٧ هـ
٦ ـ حجة السلطان			
حسام الدين لاجين	١٨	٣	نفس التاريخ
٧ ـ حجة السلطان			
حسن بن محمد			
ابن قلاوون	٤٠	٦	١٣ جماد آخر ٧٦١ هـ

ثانيا : اهم المصادر :

ابن الاثير : عز الدين أبو الحسن على بن محمد الشيبانى ت ٦٣٠ هـ :

٨ - الكامل فى التاريخ - دار الفكر - بيروت - ١٣٩٨ هـ /١٩٧٨ م.

ابن الاخوة : محمد بن محمد بن أحمد القرشى ت ٧٢٩ هـ :

٩ - معالم القربة فى أحكام الحسبة - تحقيق د. محمد محمود شعبان ، صديق أحمد عيسى المطيعى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٧٦م .

الادريسى : أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس من جغرافيين القرن السادس الهجرى :

١٠ - نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة .

ابن اياس : أبو البركات محمد بن أحمد ت ٩٣٠ هـ :

١١ - بدائع الزهور فى وقائع الدهور - المطبعة الأميرية ببولاق - القاهرة - الطبعة الأولى .

البخارى : أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم ت ٢٥٦ هـ :

١٢ - الجامع الصحيح - المكتبة الاسلامية - استانبول - تركيا - ١٩٨١ م .

ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن عبد الله ت ٧٧٩ هـ :

١٣ - تحفة النظار فى غرائب الأمصار - تحقيق طلال حرب - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩ هـ :

١٤ - فتوح البلدان - تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - بدون تاريخ .

الترمذى : أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ت ٢٩٧ هـ :

١٥ - الجامع الصحيح وهو « سنن الترمذى » - بتحقيق أحمد محمد شاكر ، محمد فؤاد عبد الباقى ، ابراهيم عطوة عوض - دار احياء التراث العربى - بيروت .

ابن جبير : أبو الحسن محمد بن جبير الكنانى الأندلسى ت ٦١٤ هـ :

١٦ - رحلة ابن جبير - مطبعة السعادة - القاهرة - ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م - الطبعة الأولى .

ابن الجوزى : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ت ٥٩٧ هـ :

١٧ - تلبيس ابليس - القاهـرة .

الجـوهرى : اسماعيل بن حماد الجوهرى ت ٣٩٣ هـ :

١٨ - الصحاح « تاج اللغـة وصحاح العـربية » - تحقيق أحمـد عبد الغفور عطار - القاهرة - ١٤٠٢ هـ /١٩٨٢ م - الطبعة الثـانيـة .

ابن حجر العسقلانى : أحمد بن على ت ٨٥٢ هـ :

١٩ - الدرر الكامنة فى أعيـان المـائة الثامنة - دائرة المعارف العثمانية - الهند - ١٣٤٨ هـ /١٩٢٩ م .

ابن حوقل : أبو القاسم بن حوقل النصيبى - توفى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى :

٢٠ - المسالك والممالك - مطبعة ليدن - ١٨٧٣ م .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الحضرمى ت ٨٠٨ هـ :

٢١ ـ مقدمة ابن خلدون ـ دار القلم ـ بيروت ـ ١٩٨١ م ـ الطبعة الرابعة .

ابن خلكان : شمس الدين ابوالعباس احمد بن محمد بن أبى بكر ت ٦٨١ هـ:

٢٢ ـ وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ـ تحقيق د. احسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت .

أبو داود : سليمان بن الأشعث السجستانى الأزدى ت ٢٧٥ هـ :

٢٣ ـ السنن ـ مراجعة محمد محى الدين عبد الحميد ـ دار الفكر ـ القاهرة .

ابن دقماق : صارم الدين ابراهيم بن محمد ت ٨٠٩ هـ :

٢٤ ـ الانتصار لواسطة عقد الأمصار ـ الجزء الرابع والخامس ـ مطبعة بولاق ـ القاهرة ـ ١٣٠٩ هـ /١٨٩٢ م .

الرازى : محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى :

٢٥ ـ مختار الصحاح ـ المطبعة العثمانية ـ القاهرة ـ ١٣١١ هـ .

الزرقانى : محمد بن عبد الباقى :

٢٦ ـ شرح المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للقسطلانى ـ دار الطباعة ـ القاهرة ـ ١٢٩١ هـ .

ابن الزيات : شمس الدين ت ٨١٤ هـ :

٢٧ ـ الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة فى القرافتين الكبرى والصغرى ـ المطبعة الأميرية ـ القاهرة ـ ١٩٧٠ م .

السبكى : تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى ت ٧٧١ هـ :

٢٨ - طبقات الشافعية الكبرى - المطبعة الحسينية - القاهرة .

السخاوى : أبو الحسن نور الدين على بن أحمد بن عمر :

٢٩ - تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات - نشر وتصحيح محمود ربيع ، وحسن قاسم - القاهرة - ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م .

ابن سعد : أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهرى ت ٢٣٠ هـ :

٣٠ - الطبقات الكبرى - دار التحرير للطبع والنشر - القاهرة - ١٣٨٨ - ١٣٩٠ هـ / ١٩٦٨ - ١٩٧٠ م .

السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد ت ٩١١ هـ :

٣١ - تاريخ الخلفاء - تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم - دار نهضة مصر - القاهرة .

٣٢ - حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة - القاهرة - ١٢٩٩ هـ

الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد ت ٣١٠ هـ :

٣٣ - تاريخ الرسل والملوك - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الثانية .

العامرى : أبو الحسن محمد بن يوسف العامرى :

٣٤ - الاعلام بمناقب الاسلام - تحقيق أحمد عبد الحميد غراب - القاهرة - ١٣٨٧ هـ .

ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي المصري ت ٢٥٧ هـ :

٣٥ - فتوح مصر والمغرب - تحقيق عبد المنعم عامر - لجنة البيان العربي - القاهرة - ١٩٦١ م ٠

ابن عبد ربه : أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ت ٣٢٨ هـ :

٣٦ - العقد الفريد - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م ٠

ابن العماد : أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ت ١٠٨٩ هـ :

٣٧ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب - دار الآفاق الحديثة - بيروت ٠

ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧ هـ :

٣٨ - تاريخ الدول والملوك - المعروف بتاريخ ابن الفرات - ج ٧ ، ٨ ، ٩ - نشر قسطنطين زريق ، نجلاء عز الدين - بيروت - ١٩٣٩ - ١٩٤٢ م ٠

القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١ هـ :

٣٩ - صبح الأعشى في صناعة الانشا - نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية - المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر - القاهرة ٠٠

ابن القيم : شمس الدين ابو عبد الله محمد بن أبي بكر :

٤٠ - زاد المعاد في هدى خير العباد - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ٠

ابن مـاجه : أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ت ٢٧٥ هـ :

٤١ - السنن - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى - دار الفكر - القاهرة - ١٩٥٤ م .

مـــالك : مالك بن انس ت ١٧٩ :

٤٢ - المدونة - دار صادر - بيروت .

٤٣ - الموطـأ - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى - دار احياء التراث العربى - القاهرة - ١٩٥١ م .

المـــاوردى : على بن محمد بن حبيب ت ٤٥٠ هـ :

٤٤ - الأحكام السلطانية والولايات الدينية - المكتبة التوفيقية - القاهرة - ١٩٧٨ م .

مجهـول : كاتب مراكشى من كتاب القرن السادس الهجرى :

٤٥ - الاستبصار فى عجائب الامصار - نشره وعلق عليه الدكتور سعد زغلول عبد الحميد - دار الشئون الثقـافية العـامة - بغـداد - ١٩٨٦ م .

مســـلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابورى ت ٢٦١ هـ :

٤٦ - الجامع الصحيح بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقى - دار احياء التراث العربى - بيروت - الطبعة الثانية .

المقـــدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ت ٣٨٨ هـ :

٤٧ - أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم - طبعة ليدن - ١٨٧٧ م .

المقـــرى : أحمد بن محمد المقرى التلمسانى ت ١٠٤١ هـ :

٤٨ - فتح الطيب من غصن الاندلس الرطيب - تحقيق د. احسان عباس - دار صادر - بيروت - ١٩٦٨ م .

المقـريزى : تقى الدين أبو العباس أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ :

٤٩ ـ اغاثة الأمة بكشف الغمة ـ تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ـ دار الهلال ـ القاهرة ـ ١٩٩٠ م ٠

٥٠ ـ السلوك لمعـرفة دول المـلوك ـ ج ١ ، ج ٢ مطبوع فى ستة أقسـام ـ تحقيق الدكتور مصطفى زيادة ـ لجنـة التأليف والترجمة ـ القاهرة ـ ١٩٤١ م ٠

٥١ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ـ المعروف بالخطط المقريزية ـ مكتبة الثقافة الاسلامية ـ القاهرة ٠

ابن منظور : جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم ت ٧١١ هـ :

٥٢ ـ لسان العرب ـ دار المعارف ـ القاهرة ٠

النســائى : أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على بن بحر ت ٣٠٣ هـ :

٥٣ ـ السنن ـ المكتبة العلمية ـ بيروت ٠

النــويرى : شهاب الدين أحمد ت ٧٣٢ هـ :

٥٤ ـ نهاية الأرب فى فنون الأدب ـ الأجزاء من ١ ـ ٢٣ ـ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ، الأجزاء ٢٨ ـ ٣٠ مخطوط بدار الكتب المصرية ـ رقم ٥٤٩ ـ ٥٥١ ـ معـارف عـامة ٠

ياقــوت : شهاب الدين أبو عبد الله الرومى الحموى ت ٦٢٦ هـ :

٥٥ ـ معجم البلدان ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ٠

يحيـــى : ابن آدم القـرشى ت ٢٠٢ هـ :

٥٦ ـ كتاب الخراج ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ المطبعة السلفية ـ القاهرة ـ ١٣٨٤ هـ ٠

أبو يوسف : يعقوب بن ابراهيم - صاحب الامام ابى حنيفة ت ١٨٢ هـ :

٥٧ - كتاب الخراج - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت .

ثالثا : اهم المراجع :

ابراهيم مصطفى وآخرون :

٥٨ - المعجم الوسيط - أشرف على طبعه عبد السلام هارون - مجمع اللغة العربية - القاهرة - ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م .

ابو الحسن الندوى :

٥٩ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - دار الانصار - القاهرة - ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م - الطبعة العاشرة .

احمد شلبى (دكتور) :

٦٠ - المجتمع الاسلامى - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٨٠ م .

٦١ - تاريخ التربية الاسلامية - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٦٦ م .

احمد عبد الرازق احمد (دكتور) :

٦٢ - وسائل التسلية عند المسلمين - بحث ضمن كتاب « دراسات فى الحضارة الاسلامية » - اصدرته الهيئة المصرية العامة للكتاب - المجلد الاول - ١٩٨٥ م .

احمد فكرى (دكتور) :

٦٣ - مساجد القاهرة ومدارسها - ج ٢ - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٩ م .

آدم مـــتز :

٦٤ ـ الحضارة الاسلامية فى القـرن الرابع الهجرى ـ نقـله الى العربية محمد عبد الهادى ابو ريدة ـ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ج ١ سنة ١٩٥٧م ، ج ٢ سنة ١٩٤١ م •

الدمرداش سرحان (دكتور) ، منير كامل (دكتور) :

٦٥ ـ المناهج ـ دار العلوم للطباعة ـ القاهرة ـ ١٩٧٢ م •

السـيد ســـابق :

٦٦ ـ فقه السنة ـ ادارة احياء التراث الاسلامى ـ قطر ـ ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م •

النعمـان عبد المجيد القاضى :

٦٧ ـ الاسلام عقيدة وحياة ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ـ القاهرة ـ ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م •

أنـدريه كـــرمن :

٦٨ ـ المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ـ ترجمة د• عبد الحليم محمود وآخرين ـ دار الاحياء العربية ـ القاهرة •

بدوى عبد اللطيف عوض (دكتور) :

٦٩ ـ النظام المـالى الاسلامى المقـارن ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ـ القاهرة ـ ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م •

توفيـق محمـد سبع :

٧٠ ـ قيم حضارية فى القرآن الكريم ـ سلسلة البحوث الاسلامية ـ يصدرها مجمع البحوث الاسلامية ـ القاهرة ـ عدد ٥٠ ، ٥٢ ـ ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢م •

توفيق يوسف الواعى :

٧١ - الحضارة الاسلامية مقارنة بالحضارة الغربية - دار الوفاء - المنصورة - ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م - الطبعة الأولى .

توماس أرنولد :

٧٢ - الدعوة الى الاسلام - ترجمة د. حسن ابراهيم حسن ، عبد المجيد عابدين ، اسماعيل النحراوى - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٧٠ م - الطبعة الثالثة .

ثروت عكاشة :

٧٣ - التصوير بين الحظر والاباحة - بحث بمجلة عالم الفكر - تصدرها وزارة الاعلام فى الكويت - مج ٦ عدد ٢ - ١٩٧٥ م .

جرجى زيدان :

٧٤ - تاريخ التمدن الاسلامى - دار الهلال - القاهرة - ١٩٥٨م .

حسن ابراهيم حسن (دكتور) ، على ابراهيم حسن (دكتور) :

٧٤ - النظم الاسلامية - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٥٩ م - الطبعة الثانية .

حسن ابراهيم حسن (دكتور) :

٧٥ - تاريخ الاسلام السياسى - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٦٧ م .

٧٦ - تاريخ الدولة الفاطمية - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٨١ م .

حسن أحمد محمود (دكتور) :

٧٧ ـ نظرات فى تاريخ الحضارة الاسلامية ـ مقال بمجلة منبر الاسلام ـ يصدرها المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ـ القاهرة ـ عدد جمادى الثانية ١٣٨٠ هـ / نوفمبر ١٩٦٠ م .

حسين مؤنس (دكتور) :

٧٨ ـ الاسلام الفاتح ـ سلسلة دعوة الحق ـ تصدرها رابطة العالم الاسلامى ـ مكة المكرمة ـ عدد رقم ٤ ـ رجب ١٤٠١ هـ .

٧٩ ـ الحضارة ـ سلسلة عالم المعرفة ـ يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت ـ عدد رقم ١ ـ محرم ١٣٩٨ هـ / يناير ١٩٧٨ م .

٨٠ ـ عالم الاسلام ـ الزهراء للاعلام العربى ـ القاهرة ـ ١٤١٠هـ / ١٩٨٩ م .

دولت عبد الله عبد الكريم :

٨١ ـ الخوانق فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى ـ رسالة دكتوراه مقدمة الى كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ مكتبة الجامعة رقم ١٩٧٨ تاريخ .

سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) :

٨٢ ـ الحياة الدينية فى المدينة الاسلامية ـ بحث بمجلة عالم الفكر ـ تصدرها وزارة الاعلام فى الكويت ـ مجلد ١١ ـ العدد الأول ـ ١٩٨٠ م

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

٨٣ - الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية - بحث بمجلة عالم الفكر - مج ١١ - العدد الأول - ١٩٨٠ م .

٨٤ - المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك - دار النهضة العربية - القاهرة - ١٩٦٢ م - الطبعة الأولى .

٨٥ - اوربا العصور الوسطى - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة .

سفر بن عبد الرحمن الحوالي :

٨٦ - العلمانية - نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الاسلامية المعاصرة - دار مكة - أصدرته جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م - الطبعة الأولى .

سليمان حزين (دكتور) :

٨٧ - مقومات الحضارة الاسلامية - بحث ضمن كتاب « التوجيه الاجتماعي في الاسلام » من بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الاسلامية بالقاهرة - ج ١ صدر عام ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .

سهام مصطفى أبو زيد :

٨٨ - الحسبة في مصر الاسلامية من الفتح العربي الى نهاية العصر المملوكي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٨٦م .

شوقي عبد القوي عثمان (دكتور) :

٨٩ - تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الاسلامية (٤١-٩٠٤هـ / ٦٦١ - ١٤٩٨ م) - سلسلة عالم المعرفة - رقم ١٥١ - الكويت - ذو الحجة ١٤١٠ هـ / يوليو - ١٩٩٠ م .

عائشة عبد الرحمن (دكتور) :

٩٠ - الشخصية الاسلامية - دراسة قرآنية - دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٧٧ م - الطبعة الثانية ٠

عبد الحليم محمود (دكتور) :

٩١ - أسرار العبادات فى الاسلام - الدار المصرية للتاليف والترجمة - القاهرة - ١٩٦٦م ٠

عبد الرحمن عزام :

٩٢ - الرسالة الخالدة - مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر - ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م ٠

عبد الغنى عبود (دكتور) :

٩٣ - الحضارة الاسلامية والحضارة المعاصرة - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٨١ م - الطبعة الأولى ٠

عبد المنعم ماجد (دكتور) :

٩٤ - تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصورالوسطى - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٧٨ م - الطبعة الرابعة ٠

على الخفيف :

٩٥ - الفكر التشريعى واختلافه باختلاف التشريع - بحث مقدم الى المؤتمر السادس لمجمع البحوث الاسلامية بالقاهرة - ج ٣ - أصدره مجمع البحوث الاسلامية - محرم ١٣٩١ هـ / مارس ١٩٧١ م ٠

علي عبد الواحد وافي (دكتور) :

٩٦ ـ التكامل الاقتصادي في الاسلام بحث مقدم الى مجمع البحوث الاسلامية بالقاهرة ـ المؤتمر السادس ـ ج ٣ ـ أصدره مجمع البحوث الاسلامية ـ محرم ١٣٩١ هـ / مارس ١٩٧١ م ·

عماد الدين خليل (دكتور) :

٩٧ ـ ملاحظات في تاريخ المجتمع الاسلامي ـ مكتبة النور ـ القاهرة ·

غوستاف لوبون :

٩٨ ـ حضارة العرب ـ ترجمة عادل زعيتر ـ نشر عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٦٩ م ·

فيليب حتي :

٩٩ ـ تاريخ العرب المطول ـ دار الكشاف ـ بيروت ـ ١٩٦٥ م ·

مجموعة من العلماء :

١٠٠ ـ الموسوعة الميسرة في الاديان والمذاهب المعاصرة ـ اصدار الندوة العالمية للشباب الاسلامي ـ الرياض ـ ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م ـ الطبعة الثانية ·

محمد أسعد طلس :

١٠١ ـ التربية والتعليم في الاسلام ـ دار العلم بيروت ـ ١٩٥٧ م ·

محمد البهي (دكتور) :

١٠٢ ـ حقوق الانسان في القرآن في صلة الفرد بالجماعة ـ بحث مقدم الى المؤتمر السادس لمجمع البحوث الاسلامية بالقاهرة ـ أصدره مجمع البحوث الاسلامية ـ محرم ١٣٩١ هـ / مارس ١٩٧١ م ·

محمــد الحســنى :

١٠٣ - الاسلام الممتحن - المختار الاسلامى للطباعة والنشر والتوزيع - ١٩٧٧ م - الطبعة الأولى .

محمــد الــراوى :

١٠٤ - الدعوة الاسلامية دعوة عالميــة - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٥ م .

محمد الغــزالى :

١٠٥ - التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام - دار الكتب الحديثة - القاهرة .

١٠٦ - خلق المسلم - دار الكتب الحديثة - القاهــرة - ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .

١٠٧ - مائة سؤال عن الاسلام - دار ثابت للنشر والتوزيع - القاهرة - ج ١ - الطبعة الثانية - محرم ١٤٠٤ هـ / أكتوبر ١٩٨٣ م
ج ٢ - الطبعة الأولى - رمضان - ١٤٠٤ هـ / يونيه ١٩٨٤ م

١٠٨ - مشكلات فى طريق الحياة الاسلامية - كتاب الأمة - عدد رقم ١ - يصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية - قطر - ١٤٠٢ هـ .

محمد المبــارك :

١٠٩ - المجتمع الاسلامى المعاصر وواقع انحرافاته والمؤثرات التى أثرت فيه - بحث ضمن كتاب الثقافة الاسلامية - أصدرته جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ١٣٩٦ هـ .

محمـد جمـال الدين رفعت :

١١٠ - آداب المجتمع فى الاسلام - ادارة أحياء التراث الاسلامى - قطـر - ١٩٨٢ م ٠

محمـد جمـال الدين سـرور (دكتور) :

١١١ - تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق من عهد نفوذ الاتراك الى منتصف القرن الخامس الهجرى - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م - الطبعة الثانية ٠

محمـد حمـدى المنـاوى (دكتور) :

١١٢ - نهر النيل فى المكتبة العربية - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة - ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ٠

محمـد خلف الله أحمـد :

١١٣ - أثر الحضارة الاسلامية فى رقى البشرية وسعادتها - بحث ضمن كتـاب « التوجيـه الاجتمـاعى فى الاسـلام » - من بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الاسلامية بالقاهرة - ج ١ صدر عام ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م ٠

محمـد عبد الرحمـن غنيمـة :

١١٤ - مقدمة لتاريخ التعليم الجامعى فى الاسلام - رسالة ماجستير كلية الآداب - جامعة القاهرة - مكتبة الجامعة رقم ١٠٨ ٠

محمد عبد الستار عثمان (دكتور) :

١١٥ - المدينة الاسلامية - سلسلة عالم المعرفة رقم ١٢٨ - يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب - الكويت - ذوالحجة ١٤٠٨ هـ / أغسطس ١٩٨٨ م ٠

محمد على ضناوى :

١١٦ - الحضارة الاسلامية بين التحدى والتعطيل - بحث منشور ضمن بحوث الندوة العالمية للشباب الاسلامى - الرياض - المجلد الأول - ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م - الطبعة الثانية ٠

محمد فتحى عثمان :

١١٧ - القيم الحضارية فى رسالة الاسلام - بحث منشور ضمن بحوث الندوة العالمية للشباب الاسلامى - الرياض - المجلد الأول - ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م - الطبعة الثانية ٠

محمد فريد أبو حديد :

١١٨ - أمتنا العربية - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٥ م ٠

محمد قطب :

١١٩ - المجتمع الاسلامى المثالى وخط الانحراف عنه والغزو الفكرى فى البلاد الاسلامية - بحث ضمن كتاب الثقافة الاسلامية - أصدرته جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ١٣٩٦ هـ ٠

محمد محمد أمين على :

١٢٠ - تاريخ الأوقاف فى مصر فى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧ م) - رسالة دكتوراه مقدمة الى كلية الآداب - جامعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م ٠

محمـد محمـد عبد القـادر الخطيب (دكتور) :

١٢١ - وحدة الأمة الاسـلامية حقيقـة تاريخية - مطبعـة الحسـين الاسلامية - القاهرة - ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م.

محمـد يوسف الكاندهلوى :

١٢٢ - حياة الصحابة - دار الشهباء - القاهرة .

نعيـم زكى فهمى (دكتور) :

١٢٣ - طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخـر العصور الوسطى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٧٣ م .

هـ . أ . ل . فيشـر :

١٢٤ - تاريخ أوربا فى العصورالوسطى - ترجمة د. مصطفى زيادة، السيد الباز العرينى ، ابراهيم احمد العدوى - دار المعارف - القاهـرة .

و ل. ديـورانت :

١٢٥ - قصة الحضارة - ج ١ - نشأة الحضارة - ترجمة زكى نجيب محمود - لجنة التاليف والترجمة والنقل - القاهرة - ١٩٤٩م



الفهـــــرس

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضـــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــوع	رقم الصفحة
(أ) تمتع أهل الذمة بكثير من مناصب الدولة الاســـلامية	٢٨٩
(ب) تمتع أهل الذمة بمكانة اجتماعية واقتصادية طيبـــة	٢٩٢
(حـ) تسامح عام وشامل	٢٩٣
اثر التسامح الاسلامى فى نشر الاسلام	٣٠١
اتهامات باطــلة	٣٠٧
اسباب القــلاقل التى كانت تقــع بين المسلمــين وأهل الذمــة	٣١٣
التعصب ســمة غير المسلمين	٣٢٢
الخـــاتمة	٣٣١ـ٣٤٠
اهم المصــادر والمراجــع	٣٤١ـ٣٥٩
الفهـــــرس	٣٦١ـ٣٦٥

تم بحمــد الله تعــالى

* * *

الحمد لله
فاتحة كل خير
وتمام كل نعمة

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القوميـة

١٩٩١ / ٢٥٩٧

T. S. B. N

977 – 00-- ‚ 222 – X

مطبعـــة الحســـين الاســـلامية

خـلف الجـامع الأزهـــر الشريف

٢٥ حارة المدرسة (ش جمال الدين الافغانى سابقاً)